مايكل أورين

القوة والإيمان والخيال

أمريكا في الشرق الأوسط
منذ عام ١٧٧٦ حتى اليوم

ترجمة
آسر حطيبة

القوة والإيمان والخيال

القوة والإيمان والخيال

أمريكا في الشرق الأوسط
منذ ١٧٧٦ حتى اليوم

تأليف: مايكل بي. أورين

ترجمة: آسر حطيبة

كلمة
KALIMA

كلمات عربية

القوة والإيمان والخيال
أمريكا في الشرق الأوسط
منذ ١٧٧٦ حتى اليوم

مايكل بي. أورين

Power, Faith, and Fantasy
America in the Middle East,
1776 to the present

Michael B. Oren

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م
ISBN 978 977 6263 17 8

كلمة
إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٢٣٨٠ أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: ٦٣١٤٤٦٨ ٢ ٩٧١+ **فاكس:** ٦٣١٤٤٦٢ ٢ ٩٧١+
الموقع على شبكة الإنترنت: www.kalima.ae
البريد الإليكتروني: info@kalima.ae

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٤٣ شارع ابن قتيبة، حي الزهور، مدينة نصر، القاهرة ١١٤٧١
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalematarabia@kalematarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalematarabia.com

بي. أورين، مايكل
القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ ١٧٧٦ حتى اليوم / مايكل بي. أورين . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨
٧٦٨ص، ١٦,٥×٢٣,٠سم
تدمك: ٨ ١٧ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الولايات المتحدة الأمريكية-العلاقات الخارجية-الشرق الأوسط
٢- الشرق الأوسط-العلاقات الخارجية-الولايات المتحدة الأمريكية
أ- العنوان
٣٢٧,٧٣٠٦٥

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2008 by Kalemat Arabia
Power, Faith, and Fantasy
Copyright © 2007 by Sike, Inc.
All Rights Reserved.

المحتويات

ترتيب الأحداث وفقًا للتسلسل الزمني ١٣

القوة والإيمان والخيال ٢١
مقدمة: الطريق إلى المجد ٢٣
تمهيد: استحضار الماضي ٢٧

الباب الأول: أمريكا في أيامها الأولى تواجه الشرق الأوسط ٣٣
١- تهديد قاتل ومخز ٣٥
٢- الشرق الغامض والعداء ٥٩
٣- بوتقة الهوية الأمريكية ٦٩
٤- تنوير العالم وتحريره ٩٥

الباب الثاني: الشرق الأوسط وأمريكا ما قبل الحرب الأهلية ١١١
٥- اندماج وصراع ١١٣
٦- المصير الحتمي للشرق الأوسط ١٣٣
٧- تحت عيون الأمريكان ١٥٩

الباب الثالث: الحرب الأهلية وإعادة التعمير ١٨٣
٨- التصدع ١٨٥
٩- الشماليون والجنوبيون على ضفاف نهر النيل ١٩٧
١٠- نفير الإقدام إلى العلا ٢١٥
١١- الهجوم الأمريكي ٢٣١
١٢- الصحوة ٢٤٧

الباب الرابع: عصر الاستعمار ٢٥٥
١٣- فجر الإمبراطوريات ٢٥٧
١٤- تقوى الإمبراطورية ٢٧١
١٥- الأساطير الإمبراطورية ٢٩٣
١٦- منطقة أعيد تسميتها وتنظيمها ٣٠٣

الباب الخامس: أمريكا والشرق الأوسط والحرب العظمى ٣١٧
١٧- متابعون للكارثة ٣١٩
١٨- خطوات تنفيذية أم جمود؟ ٣٣٣
١٩- ميلاد حركة أمريكية ٣٤٣
٢٠- انهضوا أيها العرب وأفيقوا ٣٥٩
٢١- أول عملية سلام في الشرق الأوسط ٣٦٧
٢٢- إحياء الخيالات ٣٨٧

الباب السادس: نفط وحرب وهيمنة ٣٩٣
٢٣- من الإنجيل إلى مضخات النفط ٣٩٥
٢٤- نشوب صراع لا حل له ٤٠٩
٢٥- شعلة من أجل الشرق الأوسط ٤٣٥
٢٦- الشرق الأوسط والرجل القادم من ميسوري ٤٦٣

الباب السابع: البحث عن سلام في ظل الهيمنة الأمريكية ٤٩١
٢٧- الانسجام والهيمنة ٤٩٣
٢٨- حرب الثلاثين عامًا ٥٣٥
الخاتمة ٥٧٩
Notes ٥٨٩
Bibliography ٦٧٧
Illustration Credits ٧٣١

سفن الأسطول الأمريكي تستعد لدخول قناة السويس في يناير ١٩٠٩.

إهداء

إلى يوسي كلاين هليفي
زميلي وصديقي الذي ساعد في جعل هذا الكتاب ممكنًا
وإلى زوجتي سالي
التي تجعل كل شيء ممكنًا

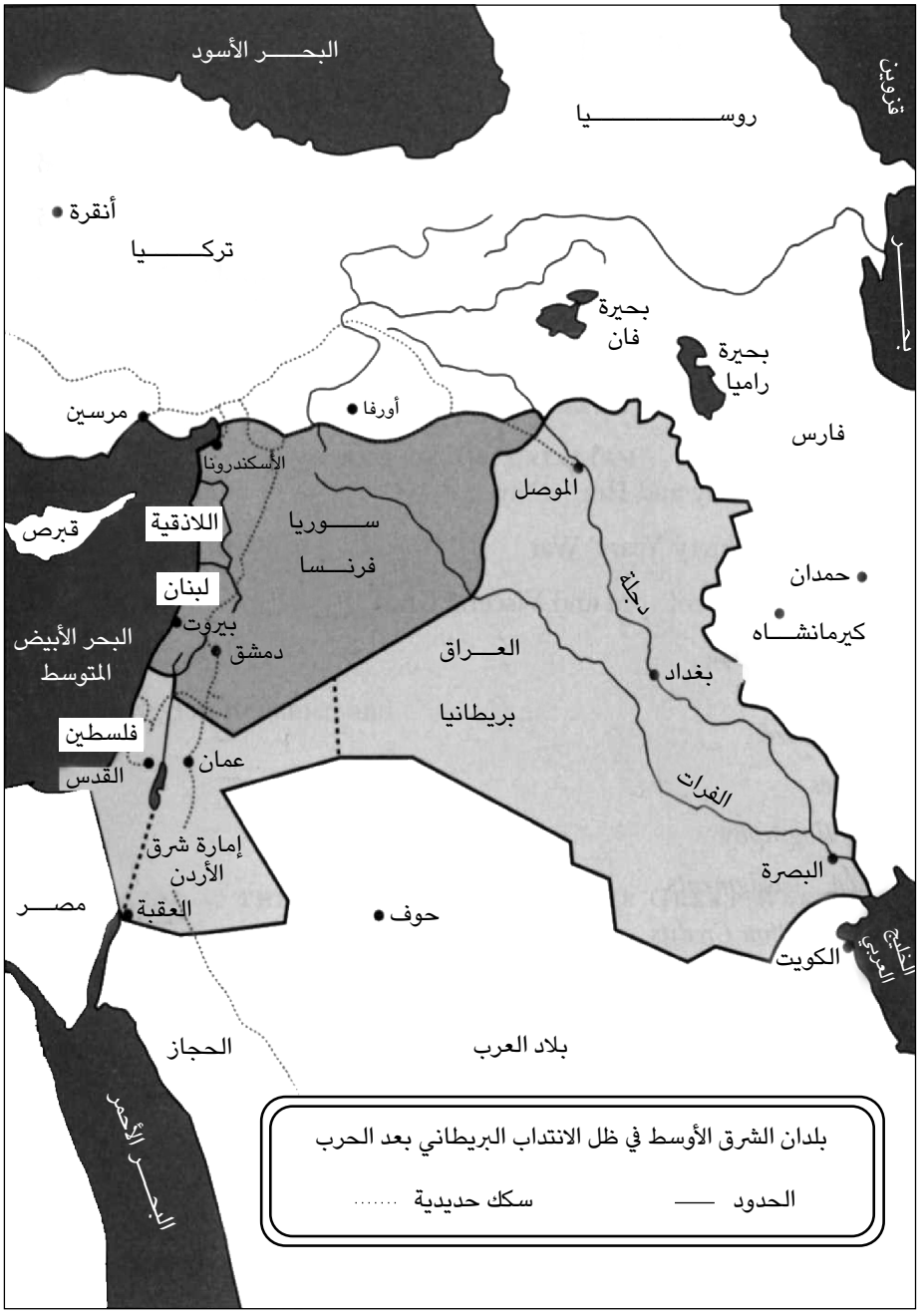

البحـــر الأسود
روســـــــــيا
قزوين
أنقرة
تركـــــيا
بحيرة
فان
بحيرة
راميا
بحر
فارس
أورفا
مرسين
الأسكندرونا
الموصل
قبرص
اللاذقية
ســـوريا
فرنـــسا
لبنان
بيروت
دمشق
حمدان
كيرمانشـــاه
دجلة
البحر الأبيض
المتوسط
العـــراق
بريطانيا
بغداد
فلسطين
القدس
عمان
الفرات
إمارة شرق
الأردن
البصرة
مصـــر
العقبة
حوف
الكويت
الخليج العربي
الحجاز
بلاد العرب
البحـــر الأحمر
بلدان الشرق الأوسط في ظل الانتداب البريطاني بعد الحرب
الحدود
سكك حديدية

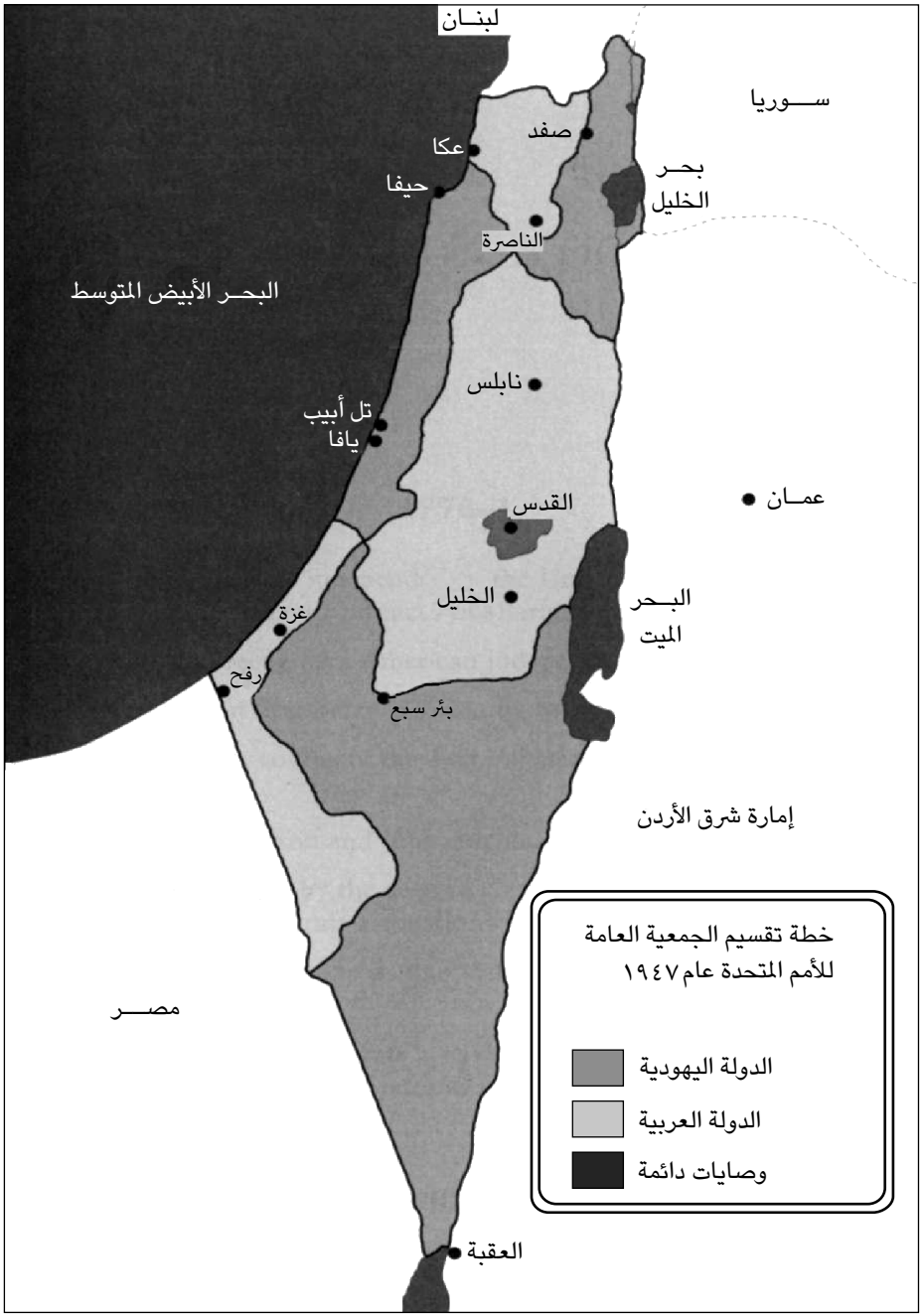
لبنـان
سـوريا
صفد
عكا
حيفا
بحـر
الخليل
الناصرة
البحـر الأبيض المتوسط
نابلس
تل أبيب
يافا
عمـان
القدس
الخليل
البحـر
الميت
غزة
رفح
بئر سبع
إمارة شرق الأردن
خطة تقسيم الجمعية العامة
للأمم المتحدة عام ١٩٤٧
الدولة اليهودية
الدولة العربية
وصايات دائمة
مصـر
العقبة

ترتيب الأحداث وفقًا للتسلسل الزمني

١٧٧٦–١٨٠٠

١٧٧٦: بإعلان الولايات المتحدة استقلالها تفقد حماية البحرية البريطانية لها، وتواجه القراصنة البرابرة وحدها.

١٧٧٧: المغرب تعترف باستقلال الولايات المتحدة.

١٧٨٤: القراصنة المغاربة يستولون على البارجة البوسطنية بيتسي Betsy.

١٧٨٥: جون لامب John Lamb يرأس أول بعثة أمريكية دبلوماسية في الشرق الأوسط.

١٧٨٥: توماس جيفرسون Thomas Jefferson وجون آدامز John Adams يقابلان مندوب طرابلس.

١٧٨٧: بسبب حاجتها لمواجهة شمال أفريقيا، الوفود تجتمع في فيلادلفيا لوضع مسودة دستور.

١٧٨٨: وصول جون ليديارد John Ledyard — أول أمريكي يستكشف الشرق الأوسط — إلى مصر.

١٧٩٤: الكونجرس يصوت لمصلحة تكوين سلاح للبحرية «يكفي لحماية تجارة الولايات المتحدة من القراصنة الجزائريين.»

١٨٠١–١٩٠٠

١٨٠١: طرابلس تعلن الحرب على الولايات المتحدة.

١٨٠٣: طرابلس تستولي على الباخرة يو إس إس فيلادلفيا USS Philadelphia وطاقمها المكون من ٣٠٥ بحار.

١٨٠٤: القوات الأمريكية تحرق الباخرة فيلادلفيا في ميناء طرابلس.

١٨٠٥: ويليام إيتون William Eaton وجنود البحرية الأمريكية وبعض المرتزقة يهاجمون مدينة دارنا على ساحل شمال أفريقيا، وجيفرسون يعقد اتفاق سلام منفصلًا مع طرابلس.

١٨١٥: جيمس ماديسون James Madison يرسل أسطولًا أمريكيًّا لإجبار مدن الجزائر وطرابلس وتونس على التوقف عن مهاجمة السفن الأمريكية.

١٨١٩: ليفي بارسونز Levi Parsons وبليني فيسك Pliny Fisk — أول مبشرَيْن أمريكيين إلى الشرق الأوسط — يغادران بوسطن.

١٨٢١: بدء حرب الاستقلال اليونانية، مما يجبر الولايات المتحدة على الاختيار بين مبادئها الديمقراطية ومصالحها الاقتصادية في الدولة العثمانية.

١٨٢٣: بليني فيسك يؤسس أول مدرسة أمريكية في الشرق الأوسط.

١٨٣٠: الرئيس أندرو جاكسون Andrew Jackson يعقد اتفاقية بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية.

١٨٣١: ديفيد بورتر David Porter — أول سفير أمريكي إلى الشرق الأوسط — يصل إلى إسطنبول.

١٨٣٢: واشنطن إيرفينج Washington Irving ينشر كتاب «قصر الحمراء» الذي يضم مجموعة من القصص العربية. الولايات المتحدة توقع اتفاقية تجارية مع مسقط (عُمان اليوم).

١٨٣٥: الرحالة الأمريكي جون لويد ستيفنز John Lloyd Stephens يصل إلى الإسكندرية.

١٨٣٧: إدوارد روبنسون Edward Robinson يؤسس حقل علم آثار الإنجيل.

١٨٣٧: المبشرة الأمريكية هاريت ليفرمور Harriet Livermore ترحل إلى فلسطين.

١٨٤٠: الباخرة «السلطانة» تصبح أول باخرة شرق أوسطية ترسو في الولايات المتحدة.

١٨٤٢: سايرس هاملين Cyrus Hamlin يفتتح مدرسة على أطراف إسطنبول، واضعًا بذلك الأساس لمدرسة روبرت كوليدج Robert College.

١٨٤٤: واردر كريسون Warder Cresson، القنصل ومرمم الآثار الأمريكي، يرحل إلى فلسطين.

١٨٤٨: ويليام فرانسيس لينش William Francis Lynch يصبح أول مستكشف يبحر عبر نهر الأردن من بحيرة طبرية إلى البحر الميت.

١٨٥١: كلورِيندا مينور Clorinda Minor تصل إلى فلسطين بهدف تأسيس مدرسة زراعية تمد اليهود بالمهارات الضرورية لإقامة دولة.

١٨٥٦: هيرمان ميلفيل Herman Melville يقوم بجولة في الشرق الأوسط.

١٨٥٨: واشنطن ترسل الدبلوماسي إدوين دي ليون Edwin De Leon إلى يافا للمطالبة بالعدالة لضحايا هجوم عربي على مستعمرة ديكسون.

العبد السابق ديفيد إف. دور David F. Dorr ينشر كتابًا عن رحلته عبر الشرق الأوسط.

١٨٦٢: يتقدم دانييل بليس Daniel Bliss باقتراح رسمي لافتتاح أول جامعة حديثة في العالم العربي وهي «الكلية السورية البروتستانتية»، التي سميت فيما بعد «الجامعة الأمريكية ببيروت».

١٨٦٣: الرئيس لينكولن Lincoln يعارض وجود القوات المصرية في المكسيك.

١٨٦٥: إلقاء القبض على جون سورات John Surrat في مصر، وهو أحد المتآمرين في اغتيال لينكولن.

١٨٦٦: جورج آدامز George Adams يختار ١٥٦ أمريكيًّا لتكوين مستعمرة في فلسطين.

١٨٦٧: مارك توين Mark Twain يقوم بجولة في الشرق الأوسط وينشر انطباعاته في كتاب The Innocents Abroad.

١٨٦٨: الخديوي المصري إسماعيل يستعين بالمحاربين القدامى في الحرب الأهلية الأمريكية لتحديث جيشه وتقوية العلاقات المصرية الأمريكية.

١٨٧٢: الجنرال ويليام تيكومسيه شيرمان William Tecumseh Sherman ورالف والدو إيمرسون Ralf Waldo Emerson يقومان بجولة في الشرق الأوسط.

١٨٧٨: الرئيس السابق يوليسيس إس جرانت Ulysses S. Grant يقوم بجولة في الشرق الأوسط.

١٨٨٠: وضع المسلة المصرية القديمة المعروفة باسم «إبرة كليوباترا» في متنزه سنترال بارك Central Park بنيويورك.

١٨٨١: أتباع عائلة سبافورد Spafford يؤسسون المستعمرة الأمريكية في القدس.

١٨٨٢: جنود البحرية الأمريكية يرسون في مدينة الإسكندرية بمصر بعد أن قام البريطانيون بقصف المدينة. والشاعرة إيما لازاروس Emma Lazarus تصبح رائدة الصهيونية الأمريكية.

١٨٨٣: صامويل بينجامين Samuel Benjamin يرأس أول بعثة رسمية أمريكية إلى بلاد فارس.

١٨٨٨: الشاعر اللبناني والناشط السياسي أمين ريحاني يصل إلى الولايات المتحدة.

١٨٩٠: صامويل زويمر Samuel Zwemer — أول مبشر غربي يخترق الجزيرة العربية — يبدأ رحلته إلى الشرق الأوسط.

١٨٩١: ويليام بلاكستون William Blackstone يقدم دعوته التاريخية للمساندة الأمريكية لإقامة دولة يهودية في فلسطين إلى الرئيس بينجامين هاريسون Benjamin Harrison.

١٨٩٣: ملايين الأمريكيين يشاركون في خيالات الشرق الأوسط بالمعرض العالمي الكولومبي بشيكاجو.

١٨٩٦: كلارا بارتون Clara Barton تسافر إلى تركيا لمساعدة ضحايا الأعمال الوحشية التركية من الأرمن.

١٨٩٧: انعقاد أول مؤتمر صهيوني في بازل بسويسرا بمشاركة أربعة أمريكيين.

١٩٠٠–١٩٤٥

١٩٠١: المسيحيون المحليون يختطفون إيلين ستون Ellen Stone — المبشرة الأمريكية في بلغاريا — في محاولة لتمويل ثورتهم ضد تركيا.

١٩٠٢: واضع النظريات الأمريكي ألفريد ماهان Alfred Mahan يصطك مصطلح «الشرق الأوسط».

١٩٠٤: رئيس العصابة المغربي ريسولي يختطف رجل الأعمال الأجنبي أيون بيرديكاريس Ion Perdicaris الذي يعمل في المغرب.

١٩٠٦: تيودور روزفلت Theodore Roosevelt يساعد في حل خلاف فرنسي ألماني حول الحقوق الإمبراطورية في شمال أفريقيا خلال مؤتمر ألجيريكاس Algericas Conference.

١٩٠٩: إنشاء إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية.

١٩٠٩: مقتل المبشر الأمريكي هوارد باسكرفيل Howard Baskerville خلال قيادته لثورة مزارعين إيرانيين.

١٩١٠: تيودور روزفلت يقوم بجولة في الشرق الأوسط.

١٩١٢: هنرييتا زولد Henrietta Szold تؤسس منظمة المرأة الصهيونية «هاداسا» Hadassah.

١٩١٥: السفير الأمريكي في تركيا هنري مورجنثاو Henry Morgenthau يحاول مساعدة ضحايا الإبادة الجماعية من الأرمن، والسفن الأمريكية تجلي اليهود من فلسطين والمبشرين من بيروت.

١٩١٧: لويس براندیس Louis Brandeis يساعد في إقناع وودرو ويلسون Woodrow Wilson بدعم إعلان بلفور، الذي يطالب الحكومة البريطانية بإقامة وطن لليهود في فلسطين. وأمين الريحاني يدعو العرب الأمريكيين إلى التطوع في الخدمة العسكرية.

١٩١٨: الرئيس وودرو ويلسون يعد دول الشرق الأوسط بمنحها حق تقرير المصير.

١٩١٩: مؤتمر باريس للسلام، والرئيس وودرو ويلسون يحاول بلا جدوى أن يؤمن استقلال الشرق الأوسط.

١٩٢١: رودلف فالنتينو Rudolph Valentino يقوم ببطولة فيلم The Sheikh of Araby، أول فيلم خيالي عن الشرق الأوسط تنتجه هوليوود. وجولدا مائير Golda Meir تغادر ويسكنسن متجهة إلى فلسطين.

١٩٢٣: نشر كتاب «النبي» لخليل جبران.

١٩٢٤: شركات البترول الأمريكية والأوروبية تكون شركة بترول العراق. والصحفي لويل توماس Lowell Thomas يصدر كتاب With Lawrence in Arabia. والولايات المتحدة تعترف بالانتداب البريطاني على فلسطين.

١٩٢٨: إبرام اتفاقية الخط الأحمر The Red Line Agreement المحددة للمناطق التي يسمح لشركة بترول العراق بالتنقيب فيها في الشرق الأوسط.

١٩٣١: تشارلز كرين Charles Crane يقابل ابن سعود، واضعًا أسس التعاون السعودي الأمريكي في المستقبل.

١٩٣٢: المهندس الأمريكي كارل تويتشيل Karl Twitchell يجري مسحًا للجزيرة العربية بحثًا عن المياه والمعادن والبترول.

١٩٣٣: المملكة العربية السعودية تمنح شركات البترول الأمريكية حق التنقيب عن البترول.

١٩٣٨: والتر لودرميلك Walter Lowdermilk — أحد المنادين بالحفاظ على الموارد الطبيعية — يبتكر نظامًا للرى للمجتمع اليهودى فى فلسطين.

١٩٣٨: المهندسون الأمريكيون يعثرون على البترول في الدمام بالمملكة العربية السعودية.

١٩٣٩: الصهاينة الأمريكيون يعترضون على إصدار بريطانيا للكتاب الأبيض White Paper الذي يحد من هجرة اليهود إلى فلسطين.

١٩٤٢: بدء عملية الشعلة Operation Torch بقيادة القوات الأمريكية لغزو شمال أفريقيا. ممثلو الصهيونية يجتمعون في فندق بالتيمور بنيويورك ويعلنون هدفهم وهو تأسيس دولة يهودية مستقلة في فلسطين.

١٩٤٣: الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى يضغطان على فرنسا لاحترام استقلال لبنان. وجيمس ماكولي لانديس James McCauley Landis يصبح مدير مركز إمداد الشرق الأوسط. باتريك هيرلي Patrick Hurley — المبعوث الشخصي للرئيس روزفلت إلى الشرق الأوسط — يوصي بتقديم دعم أمريكي للحركة الوطنية.

١٩٤٥: فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt يقابل ابن سعود على شاطئ البحيرة المرة الكبرى، موطدًا دعائم الشراكة السعودية الأمريكية. وإدارة ترومان الجديدة تجبر فرنسا على سحب قواتها من سوريا، وتوقف المحاولات السوفييتية للهيمنة على ليبيا.

١٩٤٦–الحاضر

١٩٤٦: الولايات المتحدة تنجح — من خلال الأمم المتحدة — في الضغط على الاتحاد السوفيتي من أجل الانسحاب من إيران.

١٩٤٧: الرئيس ترومان يعلن مبدأه في الدفاع عن اليونان وتركيا ضد هجمات الاتحاد السوفيتي. والولايات المتحدة — بالإضافة إلى ٣٢ دولة أخرى — تصوت لمصلحة قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ القاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية.

١٩٤٨: الولايات المتحدة تعترف بدولة إسرائيل بعد تأسيسها بإحدى عشرة دقيقة.

١٩٥٢: وكالة الاستخبارات الأمريكية تساعد مجموعة الضباط الأحرار — ومن بينهم البكباشي جمال عبد الناصر — في الاستيلاء على السلطة في مصر.

١٩٥٣: انقلاب بمساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية ينحي القائد الإيراني الوطني مصدق من السلطة.

١٩٥٥: إنشاء حلف بغداد، وهو تحالف ضد الشيوعية تدعمه الولايات المتحدة.

١٩٥٦: أزمة السويس. الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يجبران بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على سحب قواتها من الأراضي المصرية وتؤيدان تأميم الرئيس عبد الناصر لقناة السويس.

١٩٥٧: الرئيس أيزنهاور يقر مبدأ الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية.

١٩٥٨: القوات الأمريكية تصل إلى لبنان لدعم الحكومة الموالية للغرب برئاسة كميل شمعون Camille Chamoun.

١٩٦١: الرئيس كينيدي يبادر بمراسلة الرئيس المصري عبد الناصر.

١٩٦٢: إدارة الرئيس كينيدي توافق على بيع صواريخ هوك المضادة للطائرات لإسرائيل. وفيلم «لورنس العرب» Lawrence of Arabia يطرح في دور السينما ويلقى نجاحًا واستحسانًا من الجمهور.

١٩٦٧: الولايات المتحدة تساند إسرائيل في حرب الأيام الستة وانتصارها على الجيوش العربية واحتلالها للضفة الغربية وغزة والقدس ومرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء. وإدارة الرئيس جونسون تقدم مبادرة لعملية سلام بين العرب وإسرائيل على أساس صيغة الأرض مقابل السلام المتضمنة في قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢.

١٩٦٩: وزير الخارجية الأمريكية ويليام روجرز William Rogers يعلن خطته لسلام بين العرب وإسرائيل بناء على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢.

١٩٧٠: منظمة التحرير الفلسطينية تحاول الاستيلاء على السلطة في الأردن، عن طريق صراع دموي عرف باسم «أيلول الأسود».

١٩٧٣: الولايات المتحدة تفتح جسرًا جويًّا مع إسرائيل بعد أن تشن مصر وسوريا هجومًا مفاجئًا عليها. والمملكة السعودية تتزعم عملية قطع البترول عن الولايات المتحدة بسبب مساندتها لإسرائيل.

١٩٧٤: تنجح دبلوماسية هنرى كيسينجر Henry Kissinger المكوكية في فك اشتباك القوات المصرية والاسرائيلية فى شبه جزيرة سيناء.

١٩٧٩: الرئيس جيمي كارتر Jimmy Carter يتوسط للتوصل إلى اتفاق سلام بين مصر وإسرائيل. واحتجاز اثنين وخمسين أمريكيًّا — معظمهم من موظفي السفارة الأمريكية في طهران — من قبل مؤيدي الثورة الإسلامية في إيران.

١٩٨٠: فشل محاولة لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في إيران. والرئيس كارتر يعلن للكونجرس التزامه بالدفاع عن المصالح الأمريكية في الخليج العربي.

١٩٨١: الطائرات الأمريكية تقصف طائرتين حربيتين ليبيتين في خليج سدرة. وإدارة الرئيس ريجان تدين هجوم إسرائيل على المفاعل النووي العراقي بأوسيراك.

١٩٨٣: عملية تفجير انتحارية بتنظيم من حزب الله تقتل ٢٤١ من مشاة البحرية الأمريكية الذين أُرسِلوا لحفظ السلام في لبنان خلال الحرب الأهلية.

١٩٨٤: الولايات المتحدة تسحب قواتها من لبنان. واختطاف ويليام باكلي William Buckley، رئيس مكتب وكالة الاستخبارات الأمريكية ببيروت، وتعذيبه حتى الموت.

١٩٨٦: ردًّا على هجوم إرهابي على الجنود الأمريكيين في ملهى ليلي ببرلين يأمر الرئيس ريجان بقصف ليبيا.

١٩٨٦: تفجر فضيحة إيران — كونترا، كاشفة الستار عن صفقات أسلحة غير قانونية بين البيت الأبيض في عهد ريجان وحكومة إيران الثورية.

١٩٨٧: انطلاق الانتفاضة الفلسطينية في غزة والضفة الغربية.

١٩٨٧: البحرية الأمريكية ترافق ناقلات البترول الكويتية لردع أي هجوم إيراني محتمل.

١٩٩٠: العراق تغزو الكويت.

١٩٩١: تحالف بقيادة الولايات المتحدة ينجح في طرد القوات العراقية من الكويت، لكنه يبقي على الرئيس صدام حسين في السلطة. وبعد الحرب تدعو الولايات المتحدة إلى مؤتمر مدريد للسلام، في محاولة للتوصل إلى اتفاق سلام عربي إسرائيلي عام.

١٩٩٣: توقيع اتفاقية أوسلو في حديقة البيت الأبيض، وهي نتاج مفاوضات سرية بين إسرائيل والفلسطينيين في النرويج.

١٩٩٦: مقتل تسعة عشر من القوات الأمريكية في هجوم إرهابي على مجمع أبراج الخبر السكني في المملكة العربية السعودية.

١٩٩٨: الرئيس كلينتون يتوسط في عقد اتفاق مرحلي انتقالي فلسطيني إسرائيلي في مزرعة واي ريفر. وفي رد فعل لهجمات القاعدة في أفريقيا، قامت الولايات المتحدة بضرب أهداف يفترض أنها إرهابية في السودان.

٢٠٠٠: مفجر انتحاري يقتل ١٧ بحارًا على متن المدمرة الأمريكية يو إس إس كول USS Cole بالقرب من سواحل اليمن.

٢٠٠١: هجمات للقاعدة على نيويورك وفيرجينيا وبنسلفانيا تؤدي إلى مقتل ما يقرب من ثلاثة آلاف مدني.

٢٠٠٢: الولايات المتحدة تعلن الحرب على حكومة طالبان في أفغانستان وتنجح في إسقاطها.

٢٠٠٣: الولايات المتحدة تغزو العراق.

القوة والإيمان والخيال

مقدمة

الطريق إلى المجد

من شجرة صنوبر بيضاء كبيرة نحت جون ليديارد John Ledyard قاربًا بيديه وأبحر به في نهر كونيتيكت، كان شابًّا قويًّا يجدف وشعره البني ينسدل على ظهره، وأنفه الأقنى يتجه نحو مقدمة القارب. ووسط المياه التي ارتفع منسوبها نتيجة لذوبان الثلوج في الربيع أبحر ليديارد مئات الأميال نحو مصب نهر كونيتيكت على المحيط الأطلنطي، وكان عليه اجتياز مسافات شاسعة قبل أن يبلغ غايته، وهي بلاد تعج بأطلال كالمتاهات وصحاري تلفحها الشمس الحارقة، ولم يكن جون ليديارد يعلم في ذلك الوقت من عام ١٧٧٣ بأنه سيصبح أول مواطن في الولايات المتحدة المستقلة يستكشف منطقة الشرق الأوسط، ويسجل انطباعاته عنها، ويقربها إلى أذهان الأمريكيين.

لم يكن اهتمام ليديارد في ذاك الربيع منصبًّا على الوصول إلى الشرق الأوسط، بل كان يرغب في الهروب من رقابة القس إليعازر ويلوك Eleazar Wheelock رئيس جامعة دارتموث المستبد، وكان ويلوك قد اقتنع بأن ليديارد — الذي يعيش على الحدود في نيو هامبشير، والذي عاش ذات مرة بين قبائل الإيروكوي — يمكن أن يصبح قسًّا ومبشرًا عظيمًا، لذا ضغط عليه للالتحاق بالجامعة، أما ليديارد ابن الثالثة والعشرين فكان ولعه بالاستكشاف يفوق كثيرًا ولعه بدراسة اللاهوت، وكان يتوق إلى المغامرة، ليصبح — كما كتب ذات مرة لوالدته الأرملة — «أكبر رحالة في التاريخ ... غريب الأطوار، نسيج وحده، سريع الحركة، غامض، محب للاستطلاع ... شامخ كالشهاب.» استمر ليديارد في الدراسة لفصل دراسي واحد في دارتموث قبل أن يبحر بقاربه على نهر كونيتيكت، متجهًا نحو المحيط والعالم.[١]

لم تكن بداية رحلة ليديارد واعدة، فقد كان بحارًا عاديًّا على متن سفينة تجارية متجهة إلى جزر الهند الغربية، ولم تكن الحياة على ظهر السفن المليئة بالفئران في أواخر القرن الثامن عشر ممتعة بأية صورة من الصور، وعندما استدارت السفينة شرقًا تجاه البحر الأبيض، قرر ليديارد أن يهرب من جديد، فغادر السفينة عند جبل طارق في يوليو/تموز ١٧٧٦، وانضم إلى جنود البحرية البريطانية. وفي الشهر نفسه دخلت بريطانيا الحرب ضد مستعمراتها الأمريكية المتمردة التي كانت عندئذ قد اتحدت تحت اسم الولايات المتحدة، وكان من الممكن أن يجد ليديارد نفسه في مواجهة أبناء بلده، ولكن شاء القدر ألا يخدم على بارجة حربية، بل على السفينة «ريزولوشن» التي كان قائدها جيمس كوك James Cook أشهر قبطان إنجليزي.

كان كوك — مكتشف تاهيتي وجزر هاواي — يستعد في ذلك الوقت لرحلته الثالثة حول العالم، عابرًا المحيط الهادئ ومتجهًا نحو سواحل أوريجون وألاسكا بحثًا عن ممر بحري عبر القارة، هو الممر الشمالي الغربي الأسطورى. كان ليديارد يدون مذكراته خلال الرحلة، واصفًا بكل حيوية سكان بحر الجنوب الذين قابلهم والوشم يغطي أجسادهم، وكذلك محاربي هاواي الذين هاجموا وقتلوا كابتن كوك في ١٤ فبراير/شباط ١٧٧٩. ولكن لم تستطع بشاعة هذا الحادث أن تقلل من جمال منطقة أوريجون المليئة بالغابات والواقعة على الساحل الشمالي الأمريكي. كان ليديارد تواقًا إلى العودة إلى تلك المنطقة، وتحقيق ثروة من خلال بيع الفراء، لذا اتخذ أول خطوة في طريق تحقيق حلمه بأن غادر السفينة عند شواطئ لونج أيلاند في ١٧٨٢، والرجوع إلى موطنه الأصلي.

ومع أن الولايات المتحدة كانت قد أوشكت في ذلك الوقت على أن تحصل على استقلالها، فإن جيشها ظل في حالة تأهب للحرب، وكان يمكن أن يخدم ليديارد بين صفوفه، ولكنه كان قد ركن إلى الدعة ولم يرغب في التطوع، فقد رأى نفسه «يتنقل في الحياة ... بين طرفي نقيض» هما السعادة والتعاسة، «وأنه كائن لا ينتمي لأي ميدان ولا يصلح لأي مجال». نشر ليديارد مذكراته عن رحلة الكابتن كوك، وأصبحت أول كتاب في أدب الرحلات يطبع في الولايات المتحدة، ويعد ذلك الكتاب — بمعايير القرن الثامن عشر — من الكتب الأكثر مبيعًا. وفي سن الثالثة والثلاثين كان ليديارد قد رأى من العالم ومن القارة الأمريكية أكثر من أي شخص آخر عاش في تلك الفترة. ومع ذلك ظل عقله معلقًا بأوريجون، وبحلمه في إقامة مركز لتجارة الفراء، وعندما فشل في إيجاد مؤيدين لمشروعه في الولايات المتحدة، ترك ليديارد بلاده مرة أخرى ليبحر عام ١٧٨٥ إلى فرنسا.

كان ليديارد يجسد روح الرواد الاوائل التي كان يقدرها الفرنسيون في ذلك الوقت، مما مكنه من التعرف على عدد من كبار الشخصيات في باريس، وصادق ليديارد

أيضًا بينجامين فرانكلين Benjamin Franklin، أول سفير أمريكي في فرنسا، بالإضافة إلى الثوري المتقد حماسًا توم بين Tom Paine وبطل البحرية جون بول جونز John Paul Jones، أما أعمق علاقاته وأكثرها تأثيرًا فكانت مع رجل أرستقراطي لم يكن يشترك — فيما يبدو — إلا في صفات قليلة مع هذا البحار البسيط الذي كان يعيش في الغابات.

«حين كنت في باريس تعرفت إلى جون ليديارد ... رجل عبقري غزير العلم يتحلى بالجرأة والشجاعة الفائقة.» هذا ما كتبه توماس جيفرسون، الذي كان قد خلف فرانكلين سفيرًا للولايات المتحدة بفرنسا. وكان جيفرسون طويل القامة نحيفًا فاتح البشرة، وهذه الصفات تمثل تناقضًا تامًّا مع صفات هذا الرحالة مفتول العضلات الذي عركته الظروف والمغامرات. ومع ذلك توثقت علاقتهما سريعًا، كان جيفرسون يرى في ليديارد «رجل الحقيقة، صاحب الشجاعة الفائقة والشخصية المغامرة الجوالة»، وفي رده على هذا الثناء والمديح، أطلق ليديارد على جيفرسون «أخي وأبي وصديقي».[٢]

كان جيفرسون مفتونًا بوصف ليديارد لأوريجون وسال لعابه لفكرة أنه قد يعثر على مجرى مائي بين هذه المنطقة والساحل الشرقي للولايات المتحدة، وقد أقنع ليديارد بالعودة إلى أوريجون عن طريق روسيا ومضيق بيرنج، ثم البحث عن هذا الممر الشمالي الغربي الأسطوري. وطلب جيفرسون من الإمبراطورة الروسية كاثرين العظيمة Catherine the Great أن تسمح لليديارد بالعبور سالمًا عبر بلادها، ولم توافق كاثرين على هذا المشروع، معتبرة إياه «خيالًا». ولكن هذا التشكك من جانبها لم يثنِ ليديارد؛ وفي شتاء ١٧٨٧ انطلق ليديارد في رحلته من ستوكهولم إلى سانت بطرسبرج، ثم أكمل رحلته بالقارب والزلاجة الثلجية لمسافة ثلاثة آلاف ميل من الجليد نحو شرق سيبيريا. وهناك ألقى عملاء كاثرين القبض عليه، وجرى ترحيله من روسيا.

أثرت هذه المحنة في ليديارد كثيرًا فبدا عجوزًا، لكنها لم تثنِ من عزمه ولا إصراره، وأعلن أن «الوجه الأمريكي لا يتحمل كما يتحمل القلب الأمريكي». واستمر ليديارد يراسل جيفرسون، واضعًا نظريات كانت آنذاك ثورية بأن الأمريكيين الأصليين كانوا أحفاد مهاجرين من آسيا فيما قبل التاريخ، وأن كل البشر — بصرف النظر عن جنسهم — ينحدرون من سلف واحد. لكنه لم يتخل أبدًا عن طموحه في استكشاف مناطق خارج الخريطة. انتقل ليديارد إلى لندن بحثًا عن راع جديد، وهناك لفت انتباه الجمعية الأفريقية وسكرتيرها هنري بوفوي Henry Beaufoy. وانبهر بوفوي «برجولة ليديارد، وانفتاح أساريره، وحيوية نظرات عينيه»، فاقترح على ليديارد أن يستكشف ضفاف النيل، من القاهرة وحتى سنار في شرق السودان، وهي رحلة لم يقم بها أي

غربي من قبل، وأبدى ليديارد رغبته بالتحرك فورًا، ولكن بوفوي شرح له أن الجمعية قد خططت رحلاتها بدقة، وأنه لن يتمكن من التوجه إلى مصر قبل عدة أشهر على الأقل.

استعد ليديارد جسمانيًّا بالركض لمسافة عشرين ميلًا، وذهنيًّا بالانكباب على خرائط الشرق الأوسط، التي كان معظمها غير مستق من الواقع. فقام بالاتصال بالسفير الأمريكي في بريطانيا، ويليام ستيفن سميث، واتفقا — عن طريقه — على «توظيف مواهبه وبذل جهده في سبيل خدمة وطنه»، وأن تكون استكشافاته باسم الولايات المتحدة. وأخيرًا، في ٣٠ يونيو/حزيران ١٧٨٨ غادر ليديارد لندن متجهًا إلى مارسيليا بعد أن استكمل جميع استعدادات السفر. وقد كتب في رسالة أخيرة لوالدته: «من هنا سيبدأ طريقي ... عبر البحر المتوسط ... إلى القاهرة العظيمة. أما ما وراء ذلك فمجهول، وستبدأ منه اكتشافاتي. أما أين سينتهي بي المطاف، وكيف فستعلمينه إذا بقيت على قيد الحياة.» وكتب رسالة لجيفرسون يشكره فيها على صداقته وثقته، وواعدًا إياه بالحفاظ عليهما: «أنا لا أعتقد أن الجبال أو المحيطات ستقف عقبة أمام وصولي إلى المجد، فقلبي مشتعل حماسًا.» هكذا تنبأ ليديارد.

كان جون ليديارد متجهًا إلى الشرق الأوسط، وهي منطقة غارقة في الغموض، وندر أن يكون قد زارها أي غربي من قبل، فما بالك باختراق أعماقها؟ فما الذي كان يتوقع العثور عليه هناك، بجانب المشقة والعداوة؟ وما أوجه التشابه في التاريخ والعقيدة والثقافة التي كان يمكن أن تربط هذه البلاد البعيدة الغريبة بديمقراطية الولايات المتحدة الحديثة؟ وما هو المستقبل المشترك الذي قد ينتظر هذين الجزأين غير المتوافقين من العالم؛ الولايات المتحدة والشرق الأوسط؟

كانت مثل هذه الأسئلة مطروحة في ١٧٨٠، ومع ذلك فقد استمر الأمريكيون في الإلحاح عليها منذ ذلك الحين. بينما كان ليديارد — الذي سوف نصف رحلته بالتفصيل في الفصل التالي — أول أمريكي يستكشف الشرق الأوسط، وواحدًا من ملايين من بني جلدته الذين سافروا عبر قرنين من الزمان إلى المنطقة ودرسوها وكتبوا عنها وحاربوها. هذا التفاعل كان لا بد أن يحدث تحولًا في الشرق الأوسط، لكنه أثر أيضًا على الولايات المتحدة، تارة بالضعف وتارة بالقوة وتارة بالانقسام.

كانت رحلة ليديارد إلى الشرق الأوسط بالفعل «ممرًّا إلى المجد» له ولغيره من الأمريكيين، في الحاضر والماضي. وحينما رست سفينته في مصر، قال ليديارد: «انتبهوا، إنني أتيت بشخصية جديدة إلى العالم، وموضوع جديد للتراجم والسير».[٣] وكان بإمكانه أن يضيف «بداية لمشاركة الولايات المتحدة بصورة متميزة في الشرق الأوسط».

تمهيد

استحضار الماضي

قليل من الأمريكيين يمكنهم اليوم معرفة من هو جون ليديارد، أما من يقدر مساهمته في علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط فعددهم أقل بكثير. غير أنه منذ حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وبالتأكيد منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، زادت معرفة الأمريكيين بالشرق الأوسط إلى حد بعيد. ومنذ خمسة عشر عامًا، كم عدد من كان يعرف منهم معنى كلمة «جهاد»، أو «القاعدة» أو «انتفاضة» أو «الوهابيين»؟ وكم عدد من كان بإمكانه أن يفرق بين العرب والإيرانيين؟ والبعثيين والإسلاميين؟ والسنة والشيعة؟ يضاف إلى ذلك أن أسماء مدن الشرق الأوسط كالفالوجة وجنين أصبحت أقرب لأذهان وأسماع الأمريكيين اليوم من مدن الوسط الأمريكي.

إن معرفة الأمريكيين المطردة بالشرق الأوسط تعكس الدور الرئيسي الذي تحتله المنطقة في حياتهم الآن، لقد أصبحت الولايات المتحدة متضامنة ومشاركة في الشرق الأوسط بصورة كبيرة تمس حتى وجودها وكيانها. فحرب العراق والتهديدات الإرهابية والبحث عن موارد للطاقة والوقود يمكن الاعتماد عليها أصبحت موضوعات تفرض نفسها على وسائل الإعلام في الساحة الأمريكية بوجه عام وعلى خطة العمل القومية بوجه خاص. وأصبح الشرق الأوسط يمثل إلهامًا دينيًّا لملايين الأمريكيين أيضًا، كما أصبح مصدر تخوف كثير منا. واحتل العرب مكانًا رئيسيًّا في إجهاد الجيوش الأمريكية، وحل الاهتمام باللغة العربية محل الاهتمام بالروسية، خاصة لهيئات الاستخبارات الأمريكية، وأصبحت علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط أكثر مادية من علاقاتها بأمريكا الجنوبية وأفريقيا وأوروبا، وأكثر إلحاحًا من علاقاتها بكوريا الجنوبية أو حتى بالصين.

وبذلك أصبح الشرق الأوسط بوجه عام مؤثرًا على أمن الولايات المتحدة وسلامة كل سكانها.

وعلى الرغم من هذه الأهمية القصوى للشرق الأوسط، فلا يزال الأمريكيون — إلى حد بعيد — غير واعين بتاريخ بلادهم الثري متعدد الجوانب في هذه المنطقة، إذ يبدو أن معظمهم يعتقد أن الولايات المتحدة أصبحت نشطة في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية، أو مع بدايات الصراع العربي الإسرائيلي، أو مع اكتشاف النفط السعودي. والدهشة هي ردّ فعل الغالبية على أي ادعاء بأن العلاقات مع منطقة تبعد عنهم نحو خمسة وثلاثين ألف ميل (من نيويورك إلى أقرب مدينة في الشرق الأوسط وهي سيدي إفني بالمغرب) يمكن أن يكون لها هذا التأثير على صياغة الدستور وتكوين البحرية الأمريكية، وسيندهش معظمهم إذا عرفوا أن الأمريكيين وشعوب الشرق الأوسط قد تقابلوا ليس فقط في حقول النفط والمعارك فحسب، ولكن في مجالات الفن والتعليم والأعمال الخيرية أيضًا، فالأمريكيون هم أول من بنى جامعة حديثة في الشرق الأوسط، وبدأ كل من العلم الأمريكي وتمثال الحرية من تجربة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

يرجع نقص المعرفة بتاريخ الشرق الأوسط — ولو جزئيًّا — إلى عدم وجود كتاب شامل في هذا الموضوع، ففي حين يستطيع أي بريطاني مهتم بقراءة تاريخ بلاده أن يراجع كتاب إليزابيث مونرو Elizabeth Monroe الكلاسيكي Britain's Moment in the Middle East أو غيره من الأعمال المميزة الأخرى التي وضعها ويليام روجر لويس William Roger Louis، فإن الأمريكيين عليهم الخوض في مجموعة كبيرة من المؤلفات ليتمكنوا من الحصول على الموضوعات التي يبغونها في هذا المجال. وقد وُضِعَت عشرات الكتب عن حروب البربر — وهو أول صراع أمريكي مع الشرق الأوسط — وعن سياسة الولايات المتحدة نحو تسوية الأوضاع في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن لا توجد دراسة واحدة عن التدخلات العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط أو عن الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في عمليات التحرر من الاستعمار. كما تحتل قائمة المؤلفات التي تتناول السياسة الأمريكية نحو إسرائيل والصراع الفلسطيني عدة صفحات، ولكن لا يوجد عمل واحد عن التراث الأدبي الأمريكي في الشرق الأوسط أو عن اندماج اقتصاديات الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ عام ١٧٧٦.

لكن عديدًا من الباحثين سعوا إلى تحري جوانب أكبر فيما يخص تاريخ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ففي كتاب Pioneers East الذي نشر عام ١٩٦٧، قدم ديفيد فيني David Finnie سردًا نابضًا بالحياة للأمريكيين العاملين والمسافرين والمبشرين في

المنطقة في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبعد ذلك بعامين أضاف جيمس فيلد James A. Field عمقًا أكاديميًّا إلى استقصاء فيني الشعبي فألف كتاب America and the Mediterranean World، ١٧٧٦–١٨٨٢، وسار جون دي نوفو John DeNovo على نهج فيلد من خلال كتابه American Interests and Policies in the Middle East، ١٩٠٠–١٩٣٩ الذي يعتبر عملًا موسوعيًّا. وبعد دي نوفو وضع جوزيف جرابيل Joseph L. Grabill كتابه الرائد Protestant Diplomacy and the Near East: Missionary Influence on American Policy، ١٨١٠–١٩٢٧. أما آخر هذه الدراسات الموسعة فكانت دراسة بعنوان American Diplomatic Relations with the Middle East، ١٧٨٤–١٩٧٥ نشرت منذ ثلاثين عامًا ووضعها توماس برايسون Thomas Bryson، ومنذ ذلك التاريخ ركز المؤرخون على فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وعلى الأبعاد السياسية والاستراتيجية لعلاقة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وتعتبر كتب American Presidents and the Middle East لجورج لينشيفسكي George Lenczowski، وThe Other Arab–Israeli Conflict لستيفن سبيجل Steven L. Spiegel، وPeace Process لويليام كوانت William B. Quandt ثلاثة أمثلة من أفضل الكتابات في هذا المجال، ومن الكتب الرئيسية الأخرى كتاب The Arabists لروبرت كابلان Robert D. Kaplan، وهو كتاب يغطي فترة زمنية واسعة، لكنه يبحث بصورة أساسية تأثير وزارة الخارجية الأمريكية على سياسة الشرق الأوسط.

وتلك القائمة ما زال ينقصها بحث النطاق الكامل للعلاقات الأمريكية الشرق الأوسطية التي دامت قرونًا في جميع الجوانب العسكرية والاقتصادية والثقافية، ولم تسعَ أية دراسة إلى التعرف على الموضوعات المكررة في هذا التاريخ، أو إلى تقديم إطار منهجي لتحليله، وحتى يومنا هذا لم تقدم أية دراسة عرضًا أكاديميًّا لدور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، أي عرض ميسر للعلماء وعامة القراء على السواء. ويسعى هذا الكتاب إلى ملء ذلك الفراغ.

إن كتابة مثل هذا العمل تثير العديد من التحديات، وعلى رأسها إجابة السؤال الآتي: «أين يقع الشرق الأوسط؟» ومع أن مصطلح الشرق الأوسط يكاد يكون اليوم مقبولًا ومعروفًا في العالم بأسره، فالواقع أنه لا يوجد إجماع على حدوده، فكثير من الباحثين يصنفون المغرب وتونس والجزائر على أنها دول شرق أوسطية، في حين يعتبر آخرون دول شمال أفريقيا كيانًا منفصلًا، وأقسام دراسات الشرق الأوسط ببعض الجامعات تستبعد أفغانستان وباكستان من نطاق دراساتها، ولكن برامج أخرى منها تغطي القوقاز وجنوب غرب آسيا، وكلما عدنا تاريخيًّا إلى الوراء يزداد عمق الخلافات

حول معايير المنطقة، فالمؤرخون يختلفون حول ما إذا كانت دراسة الشرق الأوسط في القرن الثامن عشر يجب أن تتضمن بلغاريا العثمانية واليونان، أو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتبع شرقًا أدنى منفصلًا وغامض المعالم، وينفي بعضهم أن يكون الشرق الأوسط قد ظهر للوجود قبل ١٩٠٢، عندما استخدم هذا المصطلح لأول مرة.

يعمل هذا الكتاب على حل تلك المشكلات عن طريق التعامل مع «الشرق الأوسط» كمرادف للمنطقة التي كان الأمريكيون — ومعظم الأوروبيين — فيما مضى يعرفونها باسم «الشرق». فعلى الأقل قبل القرن العشرين كان «الشرق» يتكون من منطقة واسعة تمتد من الأناضول ومنطقة تراقيا الغربية إلى شمال أفريقيا ومصر، ومن الجزيرة العربية إلى الخليج العربي، وكانت البلاد الخاضعة لسيطرة العثمانيين في أوروبا وآسيا الوسطى تندرج أيضًا تحت هذا التصنيف مع أنها أصبحت أقل «شرقية» بعد حصولها على الاستقلال. هذه البلدان كانت ترتبط في أذهان الأمريكيين بحضارة مشتركة، ولباس متشابه، وتقارب في العمارة، والفنون، والمعتقدات الدينية، وأنظمة الحكم، ومع ذلك فلا يزال معظم الأمريكيين يصنفون الليبيين والإيرانيين والفلسطينيين والتونسيين واللبنانيين ضمن إطار جغرافي سياسي يطلقون عليه اسم «الشرق الأوسط».

بعد تحديد مفهوم الشرق الأوسط، تصبح مهمتنا التالية هي توضيح هيكل الدراسة، وهنا أيضًا تثور تساؤلات رئيسية: هل يجب أن نوجه اهتمامًا متساويًا لكافة مراحل تاريخ العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية؟ أم نختار فقط الفترات التي لم يكتب عنها إلا القليل؟ وماذا — بجانب المنظور — يمكن أن يسهم به الكتاب بجانب الموضوعات التي نوقشت من قبل، مثل سياسة أيزنهاور نحو أزمة السويس عام ١٩٥٦، أو موقف نيكسون من الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٧٣؟ وكيف يمكن لنص يعتمد على أوراق دبلوماسية مصنفة على أنها سرية ولم تفتح ملفاتها بعد أمام الجمهور والعامة واستعمالها لإعادة بناء أول قرنين من علاقات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة، وفي توثيق الثلاثين عامًا الأخيرة من هذا التفاعل؟

الإجابات على كل تلك التساؤلات تنعكس على هيكل الكتاب وبنائه. ووفقًا لذلك تقدم الأجزاء الستة الأولى من الدراسة عرضًا مفصلًا لعلاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين، أما الجزء الأخير فيستقصي أحداث السنوات الستين الأخيرة، بدءًا بالحرب الباردة وانتهاءً بحرب العراق، وخلال صفحات الكتاب بأكمله، سنجد أن التركيز سيكون على تعريف الأنماط الأساسية لدخول الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، مع متابعة الموضوعات التي تمتد كالخيط المشترك خلال النص، رابطة بعضه ببعض وموضحة إياه.

أكثر تلك الموضوعات التي تفرض نفسها وتظهر بوضوح هو موضوع القوة، فالقوة تشير إلى السعي وراء المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط من خلال العديد من الوسائل: العسكرية والدبلوماسية والمالية، والقوة هي التي ظهرت في قرار الرئيس ماديسون بإرسال بوارج حربية إلى الجزائر عام ١٨١٥، وفي جهود لنكولن عام ١٨٣٦ لإثناء مصر عن التدخل في المكسيك، لكن الولايات المتحدة لجأت أيضًا إلى استخدام القوة في الشرق الأوسط لحماية مواطنيها الذين كانوا يقيمون هناك، وللدفاع عن الأقليات المهددة بالخطر، فعندما أنقذت الباخرة يو. إس. إس. إنديبندنس USS Independence مبشرين أمريكيين من الخطر في لبنان عام ١٨٤٤، أو عندما قامت الباخرة تينيسي Tennessee بإجلاء لاجئين يهود من فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، لم تكن القوة تخدم مصالح اقتصادية أو سياسية فقط، بل كانت تساند الإيمان الأمريكي.

أما الإيمان — وهو الموضوع الثاني — فيشير إلى تأثير الدين في تشكيل المواقف والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط، ومع أن الكاثوليك واليهود لعبوا دورًا نشطًا في تحديد مسار العلاقات الأمريكية في المنطقة، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كانت السيطرة للنفوذ البروتستانتي. غادر أول المبشرين البروتستانت بوسطن متوجهًا إلى الشرق الأوسط عام ١٨١٩ بهدف إعادة فلسطين للسيادة اليهودية وإنقاذ أرواح المسيحيين الأرثوذكس والموارنة والدروز، ولكن الإيمان بالنسبة إلى الولايات المتحدة كان له بُعد دنيوي ومدني أيضًا، يدفع الأمريكيين إلى تصدير مفاهيمهم الوطنية والديمقراطية للخارج. ومع ذلك فقد فشلت الإرساليات التبشيرية في التنصير وفي إعادة بناء دولة يهودية، لكنها نجحت في تأسيس أول جامعات حديثة في تركيا والعالم العربي، فعن طريق غرس مشاعر الانتماء الوطني والاعتزاز في طلابها، تمكنت هذه المؤسسات من إطلاق قوى جبارة جديدة في الشرق الأوسط، وغيرت سياسة المنطقة بلا رجعة.

الموضوع الثالث هو الخيال؛ فلطالما سبت فكرة الشرق الأوسط عقول الأمريكيين، وسحرتهم بصور خيالية تملؤها مآذن المساجد والأهرامات والواحات والجمال والكثبان الرملية، ونجد جذور تلك الصور الرومانسية عن الشرق الأوسط في الإنجيل من خلال الصور الخيالية التي رسمها للصحراء، وهو يعتبر عادة أكثر الكتب قراءة في الولايات المتحدة، وأسهم كتاب «ألف ليلة وليلة» — وهو كتاب خيالي من العصور الوسطى — في صبغ الشرق الأوسط بأجواء جنسية. وبإغراء من تلك الصور الجذابة سافرت أعداد كبيرة من الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر إلى الشرق الأوسط، ووصفوا أدق تفاصيل الطبيعة والتضاريس وصفًا تفصيليًّا بكل دقة في كتاباتهم. وفيما بعد، عندما حلت التسجيلات الصوتية والمرئية محل الكتب باعتبارها الوسائل الأساسية لتخليد الأساطير،

أصبحت الأعمال المستوحاة من الشرق الأوسط هي الأكثر رواجًا في هوليوود وفي مجال الموسيقى، ولم تؤثر هذه الأعمال فقط على رؤية الجمهور للمنطقة، بل أثرت أيضًا على سياسات الحكومات الأمريكية، فالخيال — كما سيظهر فيما بعد — قد أسهم في قرار الرئيس بوك Polk برعاية رحلة بحرية استكشافية إلى نهر الأردن، وكذلك في قرار الكونجرس عام ١٨٥٦ بإنشاء سلاح للجمال بجمال عربية مستوردة من مصر.

ولم يكن واحد من تلك الموضوعات حكرًا على علاقات الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط، فالأوروبيون قد أدخلوا عناصر القوة والإيمان والخيال في سياساتهم نحو الشرق الأوسط أيضًا. ومع ذلك فإن استمرار تلك الأنماط على مدار أكثر من مائتي عام من تدخل الولايات المتحدة في شئون الشرق الأوسط — والتفاعل الديناميكي بينهما — كان أمرًا انفردت به الولايات المتحدة.

يهدف هذا الكتاب إلى تقديم فهم أكثر عمقًا وتنوعًا لهذا الجزء المحوري من تاريخ الولايات المتحدة عن طريق بحث تلك الموضوعات وإعادة تشكيل تاريخ العلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط، ويقدم الكتاب أيضًا خلفية تاريخية لتحليل الدور الحالي للولايات المتحدة في المنطقة؛ فسياسات الولايات المتحدة في العراق وإيران وفي الصراع الفلسطيني الإسرائيلي تعتبر اليوم محل جدال واسع داخل الولايات المتحدة وخارجها، وهدف هذا الكتاب ليس الانحياز لأية جهة أو الدعاية لها في هذه الخلافات، أو الدعوة إلى مسار معين، بل يسعى إلى تقدير الميراث المشترك لهذين العالَمين اللذين أحيا فيهما واللذين أقدرهما بنفس القدر وأكن لهما نفس الاحترام؛ الولايات المتحدة والشرق الأوسط.

القدس ونيو هيفين ٢٠٠٦

الباب الأول

أمريكا في أيامها الأولى تواجه الشرق الأوسط

الفصل الأول

تهديد قاتل ومخز

فجأة في عام ١٧٧٦ صار الأمريكيون وحدهم، وقبل ذلك كان التجار من العالم الجديد يبحرون عبر المحيطات في سفنهم وقواربهم ومراكبهم الشراعية ولا يخشون أحدًا؛ فهم على ثقة بأن أقوى بحرية في التاريخ تقوم على حمايتهم، ولكن هذا الشعور بالأمان تبدد بين ليلة وضحاها عندما اشتعلت الثورة؛ فالبحرية البريطانية الضخمة التي كانت تحمي التجارة الأمريكية ضد أية مخاطر أصبحت عدوها اللدود، ولأن الولايات المتحدة لم تكن تملك أسطولًا خاصًّا بها يقوم على حمايتها، فقد كانت سفنها تتعرض للهجوم بدءًا من اللحظة التي تغادر فيها مراسيها لتبحر في عرض البحار بلا حول ولا قوة.

إن غياب القوات البحرية لم يهدد البحارة الأمريكيين فحسب، بل هدد بقاء البلاد نفسها. فقد كانت أمريكا في القرن الثامن عشر دولة بحرية تعتمد إلى حد بعيد على التجارة الخارجية لأن معظم المدن الأمريكية كانت تتمركز على الساحل الشرقي، فضلًا عن توفر الموانئ الطبيعية، وتمتعها بوفرة من أفضل أنواع الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وكانت أية ضربة لهذه التجارة تعني ضربة قوية للولايات المتحدة الناشئة، خاصة في ذلك الوقت الذي كانت تصارع فيه من أجل الحفاظ على استقلالها الهش ضد خطر الإفلاس الذي تواجهه. وفي حين كانت الجيوش الأمريكية تحارب الجيش البريطاني الذي يفوقها خبرة وتدريبًا وعتادًا هو الجيش البريطاني، حافظت المستعمرات السابقة على طرقها البحرية بكل ما أوتيت من قوة، وكان أحد هذه الطرق البحرية يتجه جنوبًا إلى جزر الهند الغربية، ولكن طريقًا آخر لا يقل أهمية كان يمتد عبر المحيط الأطلنطي شرقًا إلى موانئ البحر المتوسط.

يمتد حوض البحر المتوسط من صخرة جبل طارق إلى سواحل الشام وسواحل الأناضول، وكان يعد حينذاك إحدى المناطق القليلة في العالم التي ظلت بمنأى عن الهيمنة الأوروبية، حيث كان يمكن للتجار الأمريكيين السعي وراء تحقيق ثروة بكل حرية. ومع أن الرحلة من أمريكا الشمالية حتى البحر المتوسط نادرًا ما كانت ممتعة،

حيث كانت تتطلب الإبحار لمدة ستة أسابيع على متن سفن باردة مزدحمة وغير صحية، فإن الأرباح عادة ما كانت تفوق المصاعب، وكان التجار المحليون يرحبون بسرور بمقايضة منتجات الشرق من الزبيب والتين والأطعمة الشرقية بمنتجات العالم الجديد من الأخشاب والتبغ والسكر، وكانت تجارة الخمور المعروفة باسم «بوسطن بارتيكيلر» Boston Particular من أنجح التجارات، وكان أحفاد المهاجرين الأوائل إلى نيو إنجلاند يقومون بتصنيعها ومبادلتها ببراميل من الأفيون التركي، الذي كان المستعمرون يصدرونه إلى كانتون والصين، أو يعودون به إلى الولايات المتحدة لاستعماله في الأغراض العلاجية. وفي سبعينيات القرن الثامن عشر كان خُمس الصادرات السنوية للمستعمرات تقريبًا يذهب إلى موانئ البحر المتوسط على متن أكثر من مائة سفينة أمريكية. وقال أحد رجال الأعمال البريطانيين تعليقًا على ذلك: «اذهبوا حيث شئتم فلن تجدوا ميناء صغيرًا ولا كبيرًا ... إلا وفيه أمريكي ... يجتهد في مساومة السكان المحليين.»[١]

قبل الثورة، كان الخطر الأوحد الذي يهدد تجارة الولايات المتحدة الحيوية في البحر المتوسط يأتي من الشرق الأوسط؛ فقد كان القراصنة العرب — الذين يطلقون على أنفسهم اسم «المجاهدين» — يهاجمون السفن الغربية ويستولون على حمولاتها ويأسرون أطقمها، كان هؤلاء «القراصنة» — كما أطلق عليهم الأمريكيون الأوائل — يبحرون من إمبراطورية المغرب المستقلة والمناطق العثمانية شبه المستقلة كطرابلس وتونس والجزائر، وهي منطقة شرق أوسطية معروفة في مجموعها في اللغة العربية باسم «المغرب العربي»، أما الغربيون فأطلقوا عليها اسمًا مختلفًا، وهو اسم يشير إلى الجشع والقسوة، فقد أطلقوا عليها اسم «منطقة البربر».

ظل هؤلاء البربر كابوس أوروبا منذ القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر، وكان معظم الرجال الذين يأسرهم القراصنة — ومنهم ميجيل دي سيربانتيس Miguel de Cervantes الذي استقى مسرحيته الأولى من محنته في الأسر — يباعون عبيدًا محكومًا عليهم بالأشغال الشاقة القاتلة في المناجم والسفن، أما النساء الأوروبيات — اللاتي كان جمالهن الأشقر موضع تقدير كبير — فكن يجلبن أفضل الأسعار في سوق الجواري. كان الهرب شبه مستحيل، وهناك قصة عن سيدة تدعى ماريا مارتن Maria Martin، وهي مواطنة بريطانية اختطفها القراصنة الجزائريون، وقالت إنهم خلعوا عنها ملابسها وأخضعوها لتفتيش شامل، ثم قيدوها بسلسلة في زنزانة مظلمة لمدة تزيد على سنتين، كل هذا لمجرد أنها رفضت أن تصبح إحدى ملك اليمين. دفع اليأس بعض هؤلاء الأسرى إلى إعلان إسلامهم، وقضوا مدة أسرهم في العمل كمستشارين وأطباء، وانضم آخرون

إلى أسطول القراصنة كخونة مرتدين، ولكن ظل معظمهم في حالة انتظار يائس أملًا في أن تفتديهم عائلاتهم من الأسر، فلم يكن يملك الفدية الباهظة إلا قليل منهم.[٢]

ومع أن ضربات قراصنة شمال أفريقيا كانت موجهة بصورة أساسية ضد الأوروبيين، فإنهم بين الحين والحين كانوا يوجهون ضرباتهم إلى ضحايا من العالم الجديد، وقد وقع أول هجوم موثق عام ١٦٢٥ عندما استولى قراصنة مغاربة على سفينة تجارية قادمة من مستعمرات أمريكا الشمالية، وبعد ذلك بعشرين عامًا صد بحارة من كامبردج بولاية ماساتشوستس هجومًا جزائريًّا، لكن الجزائر استولت على سفينة أخرى من ماساتشوستس وثلاث عشرة سفينة من فيرجينيا عام ١٦٧٨. وكان من بين الأسرى الإنجليز الذين افتدتهم بلادهم من الأسر عام ١٦٨٠ — وعددهم ٣٩٠ أسيرًا — أحد عشر من سكان نيو إنجلاند ونيويورك. وقال حاكم ولاية ماساتشوستس سيمون برادستريت Simon Bradstreet في بيان له: «كنا قد فقدنا بالفعل خمس أو ست سفن، استولى عليها القراصنة، ولا يزال المزيد من مواطنينا يعانون ذل الأسر.» كان جوشوا جي Joshua Gee واحدًا من هؤلاء، وهو تاجر من بوسطن عانى «محنًا وآلامًا» — عملًا بالسخرة، وتعذيبًا، وإيذاء جسديًّا من آن لآخر — وذلك خلال سبع سنوات قضاها في الأسر، وقد ذرف الرجل «دموع الفرح ... وشكر ربه ... على رحمته الواسعة» عندما فُكَّ أسره.[٣]

غير أن هجمات القراصنة ضد سفن العالم الجديد شهدت تراجعًا في القرن الثامن عشر، بعد أن أصبحت السفن الأمريكية تحت حماية الأسطول البريطاني الذي كان يتمدد بسرعة، ويتمتع بالتفوق التكنولوجي. وكانت مراكب القراصنة ذات الشراع الواحد وسفنهم الصغيرة لا تحمل الواحدة منها أكثر من عشرين مدفعًا وبضع عشرات من الرجال المسلحين، مما جعلهم يفكرون مرتين قبل الهجوم على سفينة تحميها سفن البحرية الملكية، التي تحمل الواحدة منها في المتوسط ٨٥٠ رجلًا ومائة مدفع. لم يزد شمال أفريقيا في نظر البريطانيين عن ذبابة لا تكاد تستحق هجومًا بسفينة واحدة، ناهيك عن شن حرب، ولجأت لندن — بدلًا من مقاومة القراصنة — إلى تملق الدول البربرية بدفع «رسوم» سنوية، وهو بديل مهذب لكلمة «إتاوة»، حصل القراصنة على هذه الرشوة مقابل عدم المساس بالسفن البريطانية، فتحول اهتمامهم إلى قوى أقل فتكًا، كالبرتغال والدنمارك وأسبانيا.

ظلت السفن الأمريكية تتمتع بالحماية حتى صدور إعلان الاستقلال عام ١٧٧٦، وسرعان ما أصبحت سفن الولايات المتحدة مستهدفة، ليس فقط من قبل قراصنة شمال أفريقيا، بل — وهو الأسوأ — وإنما أيضًا من الأسطول البريطاني الذي كان

فيما مضي يعمل على حمايتها. ومع ذلك تمكنت البحرية الأمريكية الناشئة من مواجهة تلك التحديات تحت قيادة القباطنة الشجعان من أمثال جون بول جونز John Paul Jones، وأيضا بمساعدة السفن الحربية الفرنسية. ولكن بانتهاء الحرب عام ١٧٨٣ كانت معظم السفن الحربية الأمريكية قد أسرت أو بيعت أو غرقت، وكانت الولايات المتحدة لا تكاد تستطيع الدفاع عن سواحلها، فضلًا عن حماية تجارتها عبر البحار. وقال بيرس لونج Pierse Long عضو الكونجرس عن ولاية نيو هامبشير ومعه كل الحق: «لسنا الآن في حالة تسمح لنا بأن نخوض حربًا ضد أية دولة، خاصة ضد دولة [الجزائر] لا نتوقع منها سوى ضربات عنيفة.» وكان الأسطول الجزائري الصغير المكون من تسع بوارج حربية كبيرة وخمسين قاربًا مسلحًا يتفوق على نظيره الأمريكي في التسليح تفوقًا كبيرًا. وأكد ذلك اللورد شيفيلد Sheffield البريطاني، وهو المعارض الشهير لاستقلال الولايات المتحدة، قائلًا: «لا يستطيع الأمريكيون حماية أنفسهم [من البربر]؛ إذ لا يمكنهم أن يزعموا أن لديهم أسطولًا بحريًّا.»

أمريكا عاجزة عن الرد

كان اللورد شيفيلد يملك أسبابًا وجيهة للشماتة بالولايات المتحدة، فلم يكن بالإمكان تكوين أسطول بحري لأية دولة إلا عن طريق حكومة مركزية قوية، وهو ما كان ينقص الولايات المتحدة؛ إذ كانت ولاياتها مرتبطة ارتباطًا ضعيفًا بعضها ببعض من خلال بنود اتفاقية الاتحاد الكونفيدرالي، ولم تكن الولايات تستطيع أن تفرض ضرائب قومية، فضلًا عن تكوين جيش موحد، بل إن بنود الاتفاقية كانت تعارض تمامًا تكوين أسطول بحري دائم في أوقات السلم. وفي حين كانت الكونفيدرالية تسمح نظريًّا لأية ولاية «تعاني هجمات بالقراصنة» بامتلاك بعض السفن الحربية للدفاع عن نفسها، فإن أيًّا من الولايات لم يكن لديها فعليًّا القدرة على بناء قوة عسكرية تكفي لصد هجمات البرابرة، بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة لم تكن تستطيع أن تخوض حربًا ضد شمال أفريقيا إلا بموافقة تسع من بين ثلاث عشرة ولاية تملك كل منها الحق في ممارسة «سيادتها وحريتها واستقلالها».

لم يكن الأمريكيون يرغبون في التخلي عن الامتيازات التي تتمتع بها ولاياتهم في سبيل تقديم جبهة موحدة للعالم، وعزز ذلك نفورهم من الشئون الدولية عامة. وقد حذر جورج واشنطن قائلًا: «لا يمكن أن نثق بأية دولة إلا فيما يخدم مصالحها الخاصة»، ومن وجهة نظر الأمريكيين كانت الدول الأوروبية أقل الدول التي يمكن الوثوق بها، فالخوف من الانجراف في شئون أجنبية أدى إلى معارضة الكثير من

الأمريكيين لإنشاء أسطول بحري قد يدخل في مواجهة مع الأساطيل الأوروبية، أو الأسوأ من ذلك، يوجه مدافعه إلى المؤسسات الديمقراطية الوليدة للأمة الأمريكية. وبعد نجاتهم بشق الأنفس من مواجهة مع واحد من أساطيل أوروبا (الأسطول البريطاني)، خشي كثير من الأمريكيين أية قوة بحرية، حتى إن كان أسطولهم. كان هناك أيضًا جانب مالي لتلك المعارضة؛ فبناء السفن الحربية يتكلف أموالًا باهظة، وكانت الخزانة الأمريكية ترزح تحت وطأة ديون الحرب الهائلة، ولم تكن قادرة على تحمل مزيد من الأعباء.[٤]

أجبر نقص البوارج الحربية وعدم وجود تفويض ببنائها الولايات المتحدة على أن تتغلب على نفورها من السياسة الأوروبية، وتطلب عون حلفائها الثوريين في فرنسا. كان على فرنسا — وفقًا لاتفاقية التحالف التي وقعتها مع الولايات المتحدة عام ١٧٧٨ — «أن تبذل ما في وسعها ... لحماية ... سفن الولايات المتحدة ومواطنيها وبضائعها ... ضد الهجمات وأعمال العنف والسلب ... التي ترتكبها دول البربر.» ولكن عندما طالبت الولايات المتحدة فرنسا بتنفيذ ذلك الاتفاق كانت الاستجابة سلبية، فقد حرص الزعماء الفرنسيون على ترويج تجارتهم ودعمها في البحر المتوسط، وخشوا من تأثير المنافسة الأمريكية على الموانئ الفرنسية الجنوبية تولون ونيس ومرسيليا، وانتهى الفرنسيون إلى أنه «لا توجد مصلحة لفرنسا في منح الأمريكيين إبحارًا هادئًا وآمنًا في البحر المتوسط»، وقوبل الطلب الأمريكي بالرفض.

بعد هذا الخذلان الفرنسي أصبح الأمريكيون فريسة سهلة للقراصنة؛ ففي سبتمبر/أيلول ١٧٨٣ طاردت سفن القراصنة الجزائريين قافلة سفن أمريكية في طريق عودتها إلى الولايات المتحدة بعد إجراء مباحثات سلام مع بريطانيا. وقال بينجامين فرانكلين Benjamin Franklin ساخرًا: «إذا لم يكن هناك قراصنة جزائريون، فمن مصلحة بريطانيا أن تخلقهم خلقًا»، مرددًا بذلك اعتقادًا سائدًا لدى الأمريكيين بأن بريطانيا تدفع للقراصنة سرًّا. والحقيقة أن قراصنة شمال أفريقيا لم يكونوا بحاجة إلى تشجيع من بريطانيا أو غيرها من دول أوروبا لمهاجمة سفن الولايات المتحدة التي أصبحت بلا سند من حلفاء أو سلاح، ولا تملك حتى القدرة المالية لدفع الإتاوة.[٥]

ظهرت جرأة قراصنة شمال أفريقيا واستهتارهم في مهاجمة السفن الأمريكية في أكتوبر ١٧٨٤، عندما هاجموا السفينة بيتسي Betsy؛ فقد كانت تلك السفينة التي تصل حمولتها إلى ٣٠٠ طن تبحر من بوسطن إلى جزر تينيريف Tenerife التي تبعد مسافة ١٠٠ ميل من سواحل شمال أفريقيا عندما واجهت سفينة مجهولة الهوية، وباستخدام صف من المجاديف المزدوجة تمكنت تلك السفينة الخفيفة من الاقتراب

من بيتسي، ووضعت جانبها في مواجهة جانب السفينة بيتسي التي أثقلتها حمولتها، ثم بدأ القراصنة بصدورهم العارية وعماماتهم وسراويلهم الفضفاضة في الهجوم على بيتسي والانتشار فيها، «وسيوفهم بين أسنانهم ومسدساتهم المحشوة في أحزمتهم»، كما وصفهم أحد البحارة الأمريكيين. وذكر شاهد آخر أنهم «أشاروا لنا جميعًا بالسير إلى الأمام، مؤكدين لنا بلغات عديدة أننا إن لم نطع أوامرهم فسيقتلوننا جميعا.» وجردوا أفراد طاقم السفينة من معظم ملابسهم، واستولوا على جميع مقتنياتهم، قبل أن يحبسوهم في مخزن السفينة، تمهيدًا لبيعهم في سوق العبيد بالمغرب.[٦]

بعد ثلاثة أشهر من الاستيلاء على بيتسي استولت الجزائر على سفينتين أمريكيتين أخريين، هما دوفين Dauphin وماريا Maria، وأسرت واحدًا وعشرين من أفراد الطاقم الأمريكيين، الذين قيدوا بالأغلال ثم سيقوا في موكب تحيط به الحشود الهاتفة في شماتة حتى بلاط الداي حسن، الذي قيل إنه بصق في وجوههم، وقال: «الآن ظفرت بكم أيها الكلاب المسيحيون، سأجعلكم تأكلون الأحجار.» ويذكر أحد البحارة واسمه جيمس ليندر كاثكارت James Leander Cathcart، وكان عمره حينئذ ١٧ عامًا، أنهم وُضِعوا في قبو، «مظلم تمامًا ... حيث ينام العبيد على عمق أربعة طوابق تحت الأرض، والكثير منهم عراة تقريبًا، أما الباقون فلم يكن يسترهم في الشتاء القارس إلا بطانية بالية.» كانت الوجبة اليومية — حسب قوله — مكونة من ١٥ أوقية (٤٢٥ جرامًا) من الخبز، وكان أقل قدر من المقاومة يعاقب بالجلد بالعصا على القدمين أو بقطع الرأس أو بالإعدام بالخازوق.

يقول ممثل ولاية فيرجينيا الوطني الغيور ريتشارد هنري لي Richard Henry Lee، أحد المشاركين في التوقيع على وثيقة الاستقلال: «اللعنة ألف مرة على القراصنة الجزائريين الذين أعلنوا الحرب على تجارتنا.» أما وزير الشئون الخارجية، جون جاي John Jay، فحذر من أن «الشر المستطير» للبرابرة لا يهدد فقط تجارة الولايات المتحدة، بل يكشف أيضًا ضعفها التام أمام القوى الأوروبية المتربصة. وأدت بعض التقارير التي لا أساس لها من الصحة لبعض الصحف عن هجمات القراصنة على سفن أمريكية إلى تصاعد المخاوف، فقال جون بول جونز الذي عرف برباطة الجأش معبرًا عن قلقه: «الجزائريون يبحرون في مجموعات متفرقة مكونة من ست أو ثماني سفن، ويصلون إلى الجزر الغربية.» ومع كل هذه الهجمات — الحقيقية والخيالية — فإن الولايات المتحدة لم تفكر مرة واحدة في أن تثأر من القراصنة، وفيما عدا طرد ثلاثة من يهود فيرجينيا بتهمة التجسس لمصلحة شمال أفريقيا، ظلت الولايات المتحدة على سلبيتها.

كانت الولايات المتحدة قد حصلت على استقلالها للتو، وواجهت بالفعل أول تهديد أجنبي خطير من الشرق الأوسط، ولم يكن الاستيلاء على السفن بيتسي ودوفين وماريا إلا بداية للعديد من حوادث الاختطاف والأسر التي واجهتها الولايات المتحدة بعد ذلك في المنطقة. غير أن أزمة البربر أثارت تساؤلات أساسية حول طبيعة الولايات المتحدة وهويتها وفرص بقائها؛ فهل تستطيع الولايات الأمريكية البقاء إذا حاولت مواجهة هذا الخطر كل منها على حدة، أم عليها أن تتحد معًا في دفاع مشترك فعال؟ وهل يحذو الأمريكيون حذو أوروبا في دفع رشوة للقراصنة، أم يتمردون على هذا الأسلوب ويبادرون بالتصدي لهم؟ ومع أن الإجابة على تلك التساؤلات قد تبدو اليوم واضحة، فإنها لم تكن كذلك في أواخر القرن الثامن عشر. «لن يكون من السهل دعوة جميع الولايات للعمل معًا كأمة واحدة، فأمريكا عاجزة عن الرد.» هكذا قال لورد شيفيلد ساخرًا.[٧]

براءة أم استقلال؟

كان على الأمريكيين أولًا قبل أن يتمكنوا من إثبات خطأ شيفيلد، أن يخوضوا في مناقشات مطولة ومضنية حول جوهر دستور بلادهم وشخصيتها. وكان من بين أكثر المشاركين حماسًا في هذا الجدال توماس جيفرسون Thomas Jefferson، الحاكم السابق لفيرجينيا وواحد من أهم من أسهموا في وضع إعلان الاستقلال. كان جيفرسون أحد ملاك الأراضي الذين يعيشون في الأقاليم، ولم يذهب قط أبعد من باريس، ولم يشارك في أية حرب، ومع ذلك أصر توماس جيفرسون على أنه يفهم الشرق الأوسط والحاجة إلى مواجهته بالقوة.

كان توماس جيفرسون مزيجًا من المتناقضات، شأنه شأن بلاده التي كانت تناهض السياسة الأوروبية لكنها متعطشة إلى التجارة الخارجية، وتتوق إلى الوحدة القومية لكنها تسعى إلى حماية استقلال الولايات، وتلتزم بحقوق الإنسان لكنها تنكر أحقية السود وأهل البلاد الأصليين في التمتع بهذه الحقوق. كان جيفرسون مسرفًا في التأنق أحيانًا ورث المظهر أحيانًا أخرى، ثرثارًا تارة وصموتًا تارة أخرى، وكان يدعي أنه رجل من عامة الشعب وهو يعيش بمعزل عنهم في ضيعة مونتيتشيللو الفخمة، وكان من بين المتناقضات العديدة التي حيرت كتاب سيرته الصراع بين الجانب المتخاذل في شخصيته والجانب المنادي بالمساواة، وبين تمسكه بالنظام الجمهوري واعتناقه فلسفة أبيقور، وبين حبه للسلام وحماسه الشديد للثورة الفرنسية الدموية. كان جيفرسون كما كتب المؤرخ جوزيف إليس Joseph Ellis «يجمع بين العمق الشديد والسطحية المتناهية، بين

العلم الغزير والسذاجة غير العادية، بين البصيرة الثاقبة في قراءته للآخرين والقدرة المخيفة على خداع الذات.»

كان تناقض جيفرسون أبرز ما يكون في مواقفه تجاه القراصنة البربر، فقد كان هو شخصيًّا يمتلك عبيدًا سودًا من أصول أفريقية، وكان يستغل واحدة منهم — هي سالي هيمنجز Sally Hemmings — جنسيًّا، لكنه لم يستطع أبدًا تقبل فكرة امتلاك الأفارقة لعبيد بيض، أو انتهاكهم حرمة النساء البيض، وجيفرسون الذي حذر من بناء سفن حربية قد «تغرقنا نحن» هو نفسه الذي قال في وقت آخر: «علينا أن نبدأ ببناء قوة بحرية، إذا أردنا لتجارتنا أن تستمر.»

ولكن ظل موقف جيفرسون ثابتًا لا يتزحزح في أمر واحد؛ فقد كان يؤمن أن الأمريكيين المعتزين بكرامتهم، الحريصين على أموالهم، يفضلون «حشد السفن والرجال لمحاربة القراصنة بالقوة على جمع الأموال لرشوتهم». وقد تحولت هذه النزعة الفريدة بالطبع إلى «موقف ثابت ومستقل» كان جيفرسون يأمل أن تتسم به السياسة الخارجية الأمريكية، موقف يقوم على رفض الرضوخ للابتزاز، فردع البربر بدلًا من مهادنتهم سيحمي الاقتصاد الأمريكي ويبعث برسالة واضحة إلى أي قوى أخرى قد تناصب أمريكا العداء. قال جيفرسون: «سننال بهذا الموقف احترام أوروبا، والاحترام يعني حماية المصالح.»[٨]

في خريف عام ١٧٨٤ كان جيفرسون يشغل منصب «مبعوث» أمريكا لدى فرنسا (كان للقب السفير وقع ملكي في آذان الأمريكيين الثوريين) وممثلها في عديد من القصور الملكية الأوروبية. وقد أوصى أولًا بأن تتحد الولايات في مواجهة البربر مع أسبانيا والبرتغال ونابولي والدنمارك والسويد وفرنسا، وكانت الأساطيل البحرية المشتركة لتلك الدول ستحتفظ بوجود دائم على سواحل شمال أفريقيا، مما يجبر أهلها على التوقف عن القرصنة والاشتغال بمهن سلمية بدلًا منها، كالزراعة مثلًا كما اقترح جيفرسون. ولكن بسبب عدم ثقته في رد فعل أوروبا على هذه المبادرة القادمة من الولايات المتحدة حديثة النشأة، طلب جيفرسون عون الماركيز دي لافاييت Marquis de Lafayette، النبيل الفرنسي الذي ساعد الثورة الأمريكية. قام لافاييت بالترويج لتلك المبادرة على أفضل وجه، ولكن الاستجابات كان معظمها سلبيًّا. وفي حين أبدى عدد من الممالك اهتمامًا بالمبدأ، فإنها رفضت أن تُسهم بسفنها في أي تحالف واستمرت في دفع الإتاوة للقراصنة. أما الفرنسيون فرفضوا فكرة التحالف في حد ذاتها.[٩]

كانت استجابة الولايات الأمريكية للاقتراح أكثر إحباطًا بالنسبة لجيفرسون؛ فقد رفض الكونجرس بكل عناد تخصيص المليوني دولار اللازمة — وفقًا لحسابات

جيفرسون — لبناء أسطول يحمل ١٥٠ مدفعًا، وخصص الأعضاء بدلًا من ذلك ٧٠ ألف دولار لشراء ما أسماه الوزير جاي «نفوذ ... القصور الملكية، التي ينتشر بها الفساد والمحسوبية». وانهارت آمال جيفرسون، فصفات «الشرف والحرص» التي كان يظن أنها ستمنع الأمريكيين من الخضوع للبربر، على غرار الأوروبيين، أثبتت أنها دوافع غير كافية. وكان يبدو أن الأمر يحتاج إلى مزيد من أعمال السلب والنهب حتى يقتنع أهل بلاده بضرورة توحيد أمتهم والدفاع عن أنفسهم، وعلق جيفرسون قائلًا: «لا بد أن ترى الولايات العصا، بل ربما يجب استخدامها مع البعض منهم.» وفي غضون ذلك لم يكن بمقدور جيفرسون سوى مواصلة تقديم الرشاوى للجزائريين ولكن بمنتهى التقزز.[١٠]

ولتنفيذ تلك الصفقة الحساسة وقع اختيار الكونجرس على جون لامب John Lamb، وهو رجل أعمال من كونيتيكت ليست لديه أية خبرة دبلوماسية، لكنه عمل من قبل في تجارة البغال في منطقة البحر المتوسط. وكان جيفرسون قلقًا بشأنه لأن «سلوكه ومظهره لا ينبآن بخير.» لكنه عزّى نفسه فيما بعد بالأمل في كون لامب «رجلًا عاقلًا لديه بعض المواهب التي قد تساعد في التفاوض»، لكن سرعان ما ظهر افتقار لامب إلى الكفاءة في اللحظة التي وطأت فيها قدماه أرض الجزائر في فبراير/شباط ١٧٨٥. فقد ضلله القنصل الفرنسي جون بابتيست دي كيرسي John-Baptiste de Kercy الذي كان يساند الولايات المتحدة ويشجبها سرًّا أمام الداي حسن. وفشل لامب في ضمان الإفراج عن أسير أمريكي واحد، وتلقى بدلًا من ذلك مطالبات بفدى إضافية، من بينها صورة للجنرال واشنطن، الذي اعترف الداي بإعجابه به. أما قبطان السفينة دوفين الأسير ريتشارد أوبراين Richard O'Brien، الذي كان شاهدًا على ذلك الخزي، فقد قال: «أتمنى ألا أرى الكابتن لامب في بلاد البربر أبدًا مرة أخرى إلا لشراء البغال والجياد.»[١١]

بذلك انتهت أول مبادرة دبلوماسية لأمريكا في الشرق الأوسط بالفشل، ولكن هذا الفشل في الجزائر لم يثبط الولايات المتحدة عن السعي وراء عقد اتفاقات مع دول البربر الأخرى، بل الواقع أنه حين كان لامب يهين نفسه ويذلها أمام الداي، كان أمريكي آخر يحاول التفاوض مع طرابلس، المدينة الرئيسية في ليبيا الحديثة. وحانت الفرصة عندما عرض الممثل الشخصي لباشا طرابلس — وهو واحد من النبلاء يدعى عبد الرحمن الأجار — أن يستضيف جون آدامز John Adams، مبعوث الولايات المتحدة لدى بريطانيا، في منزله بلندن، تردد آدامز في قبول الدعوة خوفًا من أن تدور المناقشة فقط عن الإتاوة، ولكن الأنباء عن تصاعد المخاطر التي تهدد التجارة الأمريكية في

البحر المتوسط أقنعته بالحاجة إلى عقد اتفاق سلام على الأقل مع دولة واحدة في شمال أفريقيا.

بدا عبد الرحمن باشا لأول وهلة عجيبًا وهمجيًّا في أعين آدامز الناقدة، وبدت هيئته «مشئومة» توحي «بالطاعون والحرب». ولكن هذا النفور المبدئي زال عندما قام الباشا بالترحيب بضيفه بغليون وفنجان صغير من القهوة المركزة. وبمزيج من الأسبانية والإيطالية والفرنسية سأل الباشا آدامز عن بلاده الجديدة، فأجاب المبعوث سعيدًا بوصف مفصل لحكومة بلاده وشعبها وطقسها وأراضيها. علق عبد الرحمن باشا قائلًا إن هذا «شيء عظيم»، لكنه أدهش آدامز عندما واصل دون توقف واصفًا الولايات المتحدة بأنها «عدو طرابلس»، وقال الباشا إن دول البربر «تسيطر على البحر المتوسط، ولا تستطيع دولة أن تبحر فيه دون عقد اتفاقية سلام معها». وفوق هذا وذاك، فإن ثمن هذا السلام هو ٣٠٠٠٠ جنيه، إضافة إلى ٣٠٠٠ جنيه للباشا شخصيًّا، وكان مثل هذا المبلغ ضروريًّا لإرضاء تونس، حسب تقديرات عبد الرحمن، وضعفه للمغرب والجزائر، وكان مجموع تلك المبالغ يصل إلى نحو مليون دولار، وهو ما يمثل تقريبًا عُشر ميزانية أمريكا السنوية.[١٢]

كتب آدامز مذهولًا: «مجرد القراءة عما جرى في تلك المقابلة يعتبر جرحًا في كرامة الكونجرس لا يمكن شفاؤه، وقد يكون أكثر لياقة أن نكتبه ... لمسرح نيويورك.» ولأن آدامز كان مشهورًا بالغرور، فقد كان هادرًا في غضبه بسبب صفاقة عبد الرحمن باشا الذي يمثل دولة قوية، لكنها بدائية، خاصة إذا قورنت بالولايات المتحدة المستنيرة. وحزن آدامز بسبب أن «المسيحية جعلت كل البحارة جبناء حسب معايير المسلمين»، كما أبدى حزنه أيضًا على أنه سيجري إرضاء «طغاة بلا مشاعر لا يهتمون بحياة رعاياهم أكثر مما يهتمون بالديدان التي تزحف على شجرة تفاح». وشارك آدامز جيفرسون اعتقاده بأن أفضل السبل للحفاظ على كرامة أمريكا هو قتال القراصنة، لكنه ظل يتشكك في الجدوى الاقتصادية للحرب، وعندما وضع آدامز في حساباته الخسائر التي ستتكبدها التجارة البحرية للولايات المتحدة، وارتفاع أسعار التأمين، وفداحة الدين الأمريكي، خلص إلى أنه من الآمن أن تقدم أمريكا «هدية واحدة قيمتها مائتي ألف جنيه» بدلًا من المخاطرة بخسارة «مليون جنيه سنويًّا في التجارة»، وأكد آدامز «لن نحارب البربر إلا إذا قررنا أن نحاربهم إلى الأبد» وحتى القضاء عليهم، ولكنه خشي من أن تكون محاربة القراصنة أمرًا «شديدًا لا يتحمله شعبنا».[١٣]

اعترف جيفرسون الناطق بلسان الشعب بأن لديه وعيًا «بالنزعة» الأمريكية أكبر من آدامز «المنعزل»، لذا ظل على ثقته بأن الشعب الأمريكي سيحارب شمال أفريقيا

إذا أتيحت له الوسائل الكافية وترك له الخيار. غير أن جيفرسون — كرجل دولة — لم يستبعد إمكانية الحل الدبلوماسي لمشكلات القرصنة ضد أمريكا، إذا أتيحت الفرصة لذلك، ومن ثم انضم جيفرسون في مارس/آذار ١٧٨٥ إلى آدامز في لندن في محاولة أخيرة لمنع نشوب «حرب عالمية مروعة» وللتوصل إلى اتفاق مع طرابلس.

وأمام عبد الرحمن باشا أعاد الأمريكيان مرة أخرى التأكيد على مشاعر الود التي تكنها الولايات المتحدة لكل دول العالم ومنها طرابلس، وقالا إن الشعب الأمريكي يحاول جاهدًا تجنب إراقة الدماء، وأنه مستعد من أجل هذا للدخول في اتفاقية صداقة دائمة مع طرابلس بشروط غير مجحفة. كان يبدو أن عبد الرحمن باشا ينصت باهتمام لهذين المبعوثين. ولكن عندما جاء دوره في الحديث، كرر فقط مطالبته بالمليون دولار. ثم عبر عن مبدأ سيصبح يومًا ما مألوفًا للأمريكيين، لكنه أثار ذهول هؤلاء الأمريكيين الأوائل، إذ قال:

> مكتوب في القرآن أن كل الأمم التي لا تعترف بهيمنة المسلمين تعتبر آثمة، وأنه من حق المسلمين وواجبهم أن يقاتلوا من تطاله أيديهم منهم، وأن يجعلوا كل أسراهم عبيدًا، وأن من يقتل من المسلمين في تلك الحرب فمصيره الجنة.

كان آدامز قد سمع ما يكفي، فقد عرف أن الشيء الوحيد الذي يقود أهل شمال أفريقيا هو الطمع، وأن التفاوض لا يؤدي إلا إلى «إثارة شهية هؤلاء البربر» ويجلب الخزي على الولايات المتحدة. ولكن بسبب عدم ثقته بمدى استعداد أمريكا للقتال ظل آدامز يرى أن الرشوة هي الحل الوحيد أمام بلاده، وخلص جيفرسون إلى نتيجة مفادها «أنه لو أُرْسِل ملاك في هذه المهمة لما استطاع أن يفعل أي شيء» لإرضاء أهل طرابلس، لذلك عارض أية مساع أخرى لإغرائهم بالمال، لكن جيفرسون دأب أيضًا على تأكيد أن الأمريكيين سيحملون السلاح للدفاع عن كرامتهم وسعادتهم، وأن السلام مع البربر لن يكون ممكنًا إلا «عن طريق الحرب».[١٤]

أراد الكونجرس — الذي كان لا يزال مترنحًا من أثر الثورة — أن يتجنب الحرب، فأصدر في يونيو/حزيران ١٧٨٦ أوامره لجيفرسون وآدامز وفرانكلين بالتفاوض على اتفاق سلام مع المغرب. ادعى حاكم تلك الإمبراطورية، سيدي محمد بن عبد الله، أنه أول ملك يعترف باستقلال الولايات المتحدة، وأول زعيم مسلم يسعى إلى معاهدة رسمية مع تلك الجمهورية الناشئة، ولكن الكونجرس تباطأ ونجح في إثارة حفيظة الإمبراطور، وردًّا على ذلك بدأ المغاربة في الاستيلاء على السفن الأمريكية، بدءًا ببيتسي في أكتوبر/تشرين الأول ١٧٨٤. وقد لفت ذلك انتباه الأمريكيين، فشد فرانكلين وجيفرسون

وآدامز الرحال «مسلحين فقط ببراءتهم وبغصن زيتون» في محاولة لامتصاص غضب الإمبراطور. وفي مقابل هدية قيمتها ٢٠٠٠٠ دولار ضمن المفاوضون إطلاق سراح بتسي واتفاقية سلام وصداقة وتبادل إشارات السفن، وبذلك بدأ أطول عقد ممتد في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، وهو أيضًا أول عقد يحمل كتابة عربية وتاريخًا هجريًّا (شهر رمضان من عام ١٢٠٠ للهجرة)، وأصبحت القنصلية الأمريكية في طنجة — التي أقيمت بمقتضى هذه الاتفاقية — بذلك أقدم مبنى دبلوماسي أمريكي والأثر الوطني الوحيد لأمريكا بالخارج.[١٥]

ومع أن جيفرسون كان أحد المشاركين في إبرام الاتفاقية مع المغرب، فقد كان يخشي أن تظل الاتفاقية بلا مغزى، ما دامت أمريكا تنقصها «الخزانة العامة والقوة العامة» الضروريتان لضمان الالتزام ببنود الاتفاقية، لذلك أوصى بوقف أية مفاوضات أخرى مع شمال أفريقيا حتى تتخذ الولايات المتحدة «خطوات ... قد تصحح فكرتهم ... عن عجز الحكومة الفيدرالية». وفي تلك الأثناء أسرعت دول البربر الأخرى في تقليد أسلوب المغرب في انتزاع التنازلات الأمريكية، فما إن أفرج عن بيتسي إلا وكانت قد استهدفت مرة أخرى، هذه المرة من تونس، وجرى تغيير اسمها رسميًّا إلى ماشودا Mashuda.

هذه المخازي لم تؤرق جيفرسون فقط، بل أرقت جورج واشنطن أيضًا، وهو أكثر أمريكي نال الاحترام عبر الزمن، كافح واشنطن للتغلب على ضعف بلاده وقلة حيلتها عام ١٧٧٦، وأحس «بأعمق مشاعر الخزي» وهو يرى أمريكا وقد «أصبحت تدفع الجزية لتلك العصابات، التي لا يتكلف محوها من وجه الأرض أكثر من نصف المبلغ الذي تلقته كإتاوة». وكان واشنطن يعتقد — على غرار جيفرسون — أن الشعب الأمريكي يفضل مواجهة البربر عن الرضوخ للابتزاز، لكن لا تزال تنقصه سفن حربية للقتال، وقال لرفيق السلاح السابق لافاييت: «إني أتضرع إلى السماء أن يكون لنا أسطول بحري لتأديب أعداء الإنسانية هؤلاء، أو سحقهم تمامًا.»

مع ذلك ظلت الحقيقة الواقعة هي أن الولايات المتحدة لا تمتلك أسطولًا حربيًّا، ولا حتى وثيقة دستورية لتكوين أسطول حربي، فكتب محرر جريدة سنتينل Sentinel بنجامين راسل Benjamin Russell لجون آدامز: «بدون نظام حكم قومي سنصبح عما قريب نهبًا لكل دول الأرض.» وكتب الكابتن أوبراين بمناسبة مرور عامين على سجنه في سجون جزائرية مع واحد وعشرين من طاقم السفينتين دوفين وماريا: «فاقت آلامنا كل ما يمكن أن تتخيله.» وساد شعور عام بالغضب والمهانة، وعبر ديفيد همفريز David Humphreys، مساعد الجنرال واشنطن أثناء الحرب، والدبلوماسي والشاعر المخضرم،

عن ذلك الشعور بأبيات شعر قال فيها:

«انظر أي مستقبل مظلم يحطم فرحتنا
وأية صفاقة وجرأة تدمر تجارتنا
يا إلهي، العصابات التي تملأ أمواج بحارك
قد استولت على سفننا، وجعلت من رجالنا الأحرار عبيدًا!»[١٦]

وبدافع من صورة البحارة المسجونين في شمال أفريقيا والسفن الأمريكية المهددة بالخطر، اجتمع مندوبون من ١٢ ولاية من الولايات الثلاثة عشر في فيلادلفيا في مايو/أيار ١٧٨٧، وكان الغرض من هذا الاجتماع هو التفكير في إحلال ميثاق وطني ذي صيغة أكثر قومية محل البنود الكونفيدرالية المعمول بها، وذلك لتدارك نقاط الضعف التي أدت إلى إذلال الولايات المتحدة أمام البربر، وكان الرئيس الشرفي لهذا المؤتمر الدستوري هو جورج واشنطن، الذي دعا ممثلي الولايات إلى الابتعاد عن «أي حديث عن عقاب الجزائريين حتى تتُبلور حكمة الاتحاد وقوته ويجري تطبيقهما بصورة أفضل». لم يكن من السهل تجاهل هذا المطلب من بطل الثورة، فتجنب المشاركون في المؤتمر أية إشارة إلى البربر، ولكن بصفتهم مواطنين في دولة تعتمد على التجارة، لم يتمكنوا تمامًا من تجاهل مسألة تكوين أسطول بحري لحماية تلك التجارة. وتحدث جيمس ماديسون James Madison — الأرستقراطي الفيرجيني ضئيل الجسد الذي كان المجلس يعتبره أكثر المشاركين ديناميكية — بالنيابة عن الكثيرين عندما كرر الحديث عن مخاوفه من وجود أسطول بحري قوي، لكنه اعترف بحاجة أمريكا الماسة لقوة بحرية، قائلًا: «الضعف يجلب الذل، وأفضل طريقة لتجنب الخطر هو أن تكون لدينا المقدرة على مواجهته.»[١٧]

ومع محاولات التهوين من شأن العلاقة بين الشرق الأوسط والاتحاد الأمريكي أثناء المؤتمر الدستوري، فإن هذه العلاقة ظهرت بوضوح في المناقشات الساخنة التي جرت على مستوى الولايات حول إقرار الدستور المقترح. وذكر القس توماس ثاتشر Thomas Thacher أن «استعباد بحارتنا ... في الجزائر يكفي لإقناع أكثر المتشككين بيننا بحاجتنا إلى حكومة عامة». وقال ناثانيل سارجنت Nathaniel Sargeant إنه من «السخف» التفكير في أن الولايات المتحدة يمكنها أن تستمر تحت البنود غير الفاعلة لاتفاقية الاتحاد الكونفيدرالي، وأن تستمر في الدفاع عن نفسها ضد «قراصنة أعالي البحار.» وبدأ دعم الدستور كإطار لحماية التجارة الأمريكية عبر البلاد كلها، وليس فقط في نيو إنجلاند البحرية. وتساءل هيو ويليامسون Hugh Williamson من نورث كارولينا، وهو طبيب

وعالم فلك شهير: «ما الذي يمنع القراصنة الجزائريين من الرسو على سواحلنا وأسر مواطنينا واسترقاقهم؟» أما جورج نيكولاس George Nikcholas، المحامي من كنتاكي، فتساءل: «ألا يمكن أن يستولي الجزائريون على سفننا؟ ألا يمكنهم ... نهب سفننا وتدمير تجارتنا دون مشقة؟» وكانت الإجابة الوحيدة من وجهة نظريهما لمنع حدوث ذلك هي الاتحاد.[١٨]

لكن هذا المنطق القوي لم يبدد مخاوف هؤلاء الذين كانوا لا يزالون يخشون توسع السلطة المركزية، لذا أصبحت كثير من المناقشات طويلة ومشحونة بالعداء، وفي دفاع مستميت عن الدستور انضم ماديسون إلى كل من جون جاي وألكسندر هاملتون Alexander Hamilton من نيويورك في كتابة سلسلة من المقالات سميت فيما بعد «الأوراق الفيدرالية» The Federalist Papers، وكانت هذه أيضًا تؤكد على الرابطة الأساسية بين السفن التجارية والسفن الحربية. وكتب هاملتون صاحب العقلية التجارية الواقعية: «إذا أردنا أن نكون شعبًا يعمل بالتجارة ... فعلينا أن نسعى إلى امتلاك أسطول بحري في أقرب فرصة.» (الأوراق الفيدرالية، المقالة رقم ٢٤). وحذر من أنه بدون «أسطول بحري متحد ... ذي مكانة محترمة ... فإن العبقرية التجارية والبحرية الأمريكية ستضيع تمامًا». (المقالة رقم ١١). وفي إشارة خاصة إلى تهديدات شمال أفريقيا أكد ماديسون (في المقالة رقم ٤١) أن الاتحاد وحده هو الذي يستطيع أن يحفظ «القوة البحرية» للأمة من «جشع القراصنة والبربر.» وتكشف الرسائل الخاصة لجاي منهجًا أكثر شراسة، إذ قال: «كلما أسيئت معاملتنا في الخارج، ازداد اتحادنا وتآزرنا في الداخل.» بل إنه رحب بهجمات القراصنة التي ستضطر الولايات إلى التكاتف ضد «مخاطر القراصنة الجزائريين وقراصنة تونس وطرابلس».[١٩]

وكانت هناك محاولة أكثر جرأة، وإن نسيها الكثيرون، لجعل الشرق الأوسط يدافع عن الدستور، وكان صاحبها هو بيتر ماركو Peter Markoe، الذي كان يطلق عليه «بيتر الشاعر»؛ ولد بيتر في سان كروا وتلقى تعليمه في أكسفورد، وكان يشتهر بكونه واحد من أبرز شعراء فيلادلفيا وكتابها الصحفيين. وفي بداية مناقشات إقرار الدستور عام ١٧٨٧ نشر رواية هزلية عنوانها «الجاسوس الجزائري في بنسلفانيا» The Algerine Spy in Pennsylvania، وفيها يقوم عميل جزائري اسمه محمد بالتجسس على الدفاعات الأمريكية، ومن خلال ذلك يمتدح ماركو الحريات الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة، لكنه يسخر من تفكك الولايات الأمريكية، إذ يقول: «البلاد ينخر فيها التفكك والانشقاق، ويمكن نهبها بلا أدنى مشقة، وأسر شبابها وفتياتها.» وللإسراع بتدمير أمريكا، جعل ماركو محمدًا يوصي بالاستيلاء على رود أيلاند Rhode Island — الولاية

الوحيدة التي قاطعت مؤتمر الدستور — وتحويلها إلى قاعدة لعمليات القرصنة الجزائرية.

ساعدت المنشورات من أمثال «الأوراق الفيدرالية» و«الجاسوس الجزائري» على ترجيح كفة الفيدراليين، ومكن الدستور — الذي أُقر رسميًّا في ٤ مارس/آذار ١٧٨٩ — الكونجرس من إعلان الحرب «ومن تكوين أسطول بحري والمحافظة عليه». ولعب تهديد قادم من الشرق الأوسط دورًا ملموسًا في تكوين ولايات متحدة فعليًّا، أي أمة متماسكة متكاتفة قادرة على الدفاع ليس عن حدودها فحسب، بل أيضًا عن مصالحها الاقتصادية الحيوية بالخارج، «وهكذا وبطريقة غير مباشرة كان الداي الجزائري العنيف واحدًا من الآباء المؤسسين للدستور الأمريكي»، حسبما كتب مؤرخ الدبلوماسية الأمريكية توماس بيلي Thomas Bailey. وكان موضوع استخدام الأمريكيين لقواهم الاتحادية للقتال من عدمه موضوعًا لا يزال محل تساؤل.[٢٠] فقد استمرت جماعات في التعبير عن رفضها لفكرة إنشاء أسطول بحري خشية الدخول في مواجهات أجنبية، وتردد الكثيرون أيضًا بشأن حمل السلاح تحت أي ظرف، مفضلين مبدأ «البراءة وغصن الزيتون» أمام البربر على أي موقف يتسم بالاستقلال والكرامة.

العجز والغضب

كان توماس جيفرسون يذرع غرفة مكتبه في برودواي بنيويورك جيئة وذهابًا، محاولًا أن يجد حلًّا لرفض أمريكا استخدام قوتها، فبعد مغادرته باريس في نهاية عام ١٧٨٩، قَبِلَ جيفرسون منصب وزير الخارجية، وهو منصب منحه راتبًا سنويًّا يقدر بثلاثة آلاف وخمسمائة دولار، وخمسة من المساعدين، وجعله المسئول الأول عن حل أزمة البربر. لم تؤثر هذه الترقية تأثيرًا يذكر في رأي جيفرسون بشأن القراصنة، أو «كلاب البحر» كما كان يسميهم، أو «عصابة وضيعة من اللصوص». كان جيفرسون مثالًا للأمريكيين الذين كانوا ينظرون للمنطقة فيما بعد باعتبارها مرتعًا للطغيان والفساد والتخلف، أي صورة النقيض لما يعيشون فيه من ديمقراطية وثقافة وطهارة. وكانت عصابة من المجاهدين المسلمين المصرين على استرقاق البحارة الأمريكيين الأبرياء تستحق في نظره طلقات المدافع لا أجولة الذهب، ولكن بسبب معارضة الرأي العام الأمريكي لاستخدام القوة، لم يكن أمام جيفرسون خيار سوى الاستمرار في المفاوضات مع شمال أفريقيا من أجل إطلاق سراح الأسرى.

وعن طريق وساطة بعض الرهبان الفرنسيين الأعضاء في جماعة دينية هدفها افتداء العبيد المسيحيين، عرض جيفرسون على الجزائريين فدية مخفضة للغاية، بالإضافة

إلى هدايا متنوعة، ولكن الداي رفض هذه المبادرات، وعندما حظرت سلطات الثورة الفرنسية أنشطة جماعة الرهبان المسيحيين، فقد جيفرسون وساطتهم. ومرت شهور تلقى فيها خطابات مفعمة بالألم من السجناء الأمريكيين الذين كان العديد منهم مرضى يوشكون على الموت بالطاعون. وبسبب معاناته من «القلق المستمر على أسرانا» شعر الوزير أن السياسة الأمريكية قد وصلت إلى طريق مسدود، فهي تملك وسائل دستورية لمحاربة البربر، لكنها لا تزال غير راغبة في استخدامها، وبذلك كانت «معلقة بين العجز والغضب».

وأخيرًا في ديسمبر/كانون الأول ١٧٩٠، أوصى جيفرسون — بعد أن أصابه الإحباط — بأن تخوض أمريكا الحرب، وبرر ذلك للكونجرس قائلًا: «تحرير مواطنينا مرتبط بشدة بتحرير تجارتنا في البحر المتوسط، والمعاناة التي يمر بها كلاهما ترجع إلى نفس السبب، والخطوات التي ستتخذ من أجل حل إحدى المشكلتين قد...تتضمن حل المشكلة الأخرى.» كان جيفرسون قد دافع في السابق عن حق الكونجرس في تقرير السياسة الخارجية، مشبهًا الامتيازات المقصورة على الرئيس في هذا المجال بسلطات الباشا الجزائري.، لكنه في هذا الموقف ندم على ذلك الدعم، وكان مجلس الشيوخ قد رفض للمرة الثانية دعوة جيفرسون للحرب، لكنه خصص مبلغ ١٤٠٠٠٠ دولار لدفع الإتاوة والفديات، أما مهمة تقديم هذه الرشوة فوقعت عل عاتق وزير الخارجية.[٢١]

رضخ جيفرسون على مضض، لكنه اختار مبعوثه رجلًا يعرف أنه لن يشتري قط السلام مع البربر، كان هذا الرجل قبطان السفينة بتسي وأول ضابط أمريكي يرفع علم الثورة، إنه جون بول جونز الذي اشتهر بأنه قبطان ماهر، وإن كان متقلب المزاج. وتقديرًا لخدماته للولايات المتحدة أثناء حرب الاستقلال ساعده جيفرسون في الانضمام إلى البحرية الروسية، وحقق جونز انتصارات رائعة على بحرية الأتراك العثمانيين، ونشأت لديه كراهية عميقة لحكام الشرق الأوسط، وكان يؤمن بأن إعلان الحرب على القراصنة هو السبيل الوحيد ليصبح الأمريكيون «شعبًا عظيمًا يستحق الحرية». كانت خطة جيفرسون تقضي بإرسال جونز إلى الجزائر ومعه ٢٥٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضئيل كان الداي سيرفضه بالتأكيد، وعندها يغضب الكونجرس ويقرر تخصيص اعتمادات مالية كافية لتكوين حامية بحرية تتمركز دائمًا في البحر المتوسط، كان تفكير جيفرسون يتجه إلى أن «جون بول جونز ومعه ستة سفن حربية سيدمرون تجارة القراصنة تدميرًا شاملًا ويمزقونهم إربًا»، فأرسل أوامره إلى فندق باريس حيث يقيم جونز، لكنها وصلت بعد فوات الأوان، فقد مرض القبطان بمرض غامض وفارق الحياة عن عمر يناهز الخامسة والأربعين.[٢٢]

وقع اختيار جيفرسون التالي على توماس باركلي Thomas Barclay مبعوثًا له، وكان أحد من شاركوا في المفاوضات مع المغرب، وقد وصل حتى لشبونة قبل أن يقع هو الآخر فريسة للمرض. أما المبعوث الثالث ديفيد همفريز David Humphreys فكان هو نفس الشاعر المحارب الذي قال: «يا إلهي، العصابات التي تعج بها بحارك، قد استولت على سفننا، وجعلت أحرارنا عبيدًا!» وصل همفريز إلى جبل طارق، ليفاجأ بأن الجزائريين قد استولوا على ١١ سفينة أمريكة، وأسروا ١١٩ بحارًا، فلم يبد منطقيًّا أن يطالب بحرية طاقم بحارة دوفين وماريا والجزائر مستمرة في أسر آخرين، لذلك عاد همفريز أدراجه إلى الوطن.

وبعد خمسة عشر عامًا من إعلان الاستقلال، كانت الولايات المتحدة لا تزال تواجه تهديدات كبيرة من القراصنة البربر، وكان بعض التجار الأمريكيين قد تدنَّوا إلى تزوير بطاقات المرور التي كان البربر يصدرونها للدول التي تدفع لهم إتاوة، وهو ما كان يكفل الحماية لسفنهم، واضطر آخرون إلى تأجير بوارج حربية هولندية أو أسبانية بأسعار باهظة لمرافقتهم عبر البحر المتوسط. وكان الخطر عظيمًا لدرجة أن وزير الخزانة ألكسندر هاملتون تساءل «عما إذا كان من الأجدى — نظرًا للموقف مع الجزائريين — استدعاء سفينة أجنبية لنقل جون جاي إلى بريطانيا».[٢٣]

غير أن الرأي العام حول موضوع البربر كان يشهد تحولًا، وكان الأمريكيون قد سئموا تهديدات الاختطاف والتكاليف الباهظة لتأمين شحناتهم، وفوق هذا وذاك من إهدار كرامتهم، وأقسم جورج واشنطن — بوصفه الآن رئيس الولايات المتحدة — أن يستخدم كل ما في وسعه من أجل «تحرير هؤلاء الأسرى تعساء الحظ» في الجزائر، وكانت تثير قلقه أيضًا الحرب الأخيرة في أوروبا — فرنسا الثورية ضد بريطانيا وغيرها من الدول المحافظة — بالإضافة إلى وجود سفن حربية أجنبية بالقرب من السواحل الأمريكية، لذلك صرح أمام الكونجرس في ديسمبر/كانون الأول ١٧٩٣ قائلًا: «إذا أردنا تجنب أية إهانة، فعلينا أن نكون قادرين على الرد عليها.» اتفق الكونجرس مع الرئيس، وقرر أخيرًا فتح باب المناقشة حول تكوين أسطول بحري.[٢٤]

لقى الاقتراح معارضة من بعض النواب الذين كانوا لا يزالون على رأيهم بأن بناء السفن الحربية مكلف للغاية، وأنها — بعد البناء — تشكل تهديدًا للسلام والحرية، وقال إبراهام بولدوين Abraham Baldwin نائب جورجيا في هذا الشأن: «الرشوة وحدها هي القادرة على شراء الأمان من الجزائريين.» في حين اعترف جون نيكولاس John Nicholas نائب فيرجينيا قائلًا: «إننا لا نقوى على مواجهة الجزائريين في البحار.» وحذر إبراهام كلارك Abraham Clark نائب نيوجيرسي وهو يستعرض الحاجة إلى وزير

للبحرية وعدد كبير من الموظفين بالوزارة من أن «القوى الأوروبية مجتمعة ستجد في الأسطول الأمريكي ذريعة للحرب.» ولتقليل المخاطر والنفقات الأمريكية، اقترح كلارك أن «تُستأجر البحرية البرتغالية لمحاربة القراصنة».

أثارت هذه «الخطوات الجبانة» اشمئزاز جون سميث John Smith نائب ميريلاند، كما أنها لم تكن تتفق مع «معايير الجمهوريات السابقة في جميع العصور السابقة.» وذكر شخص آخر من ميريلاند هو ويليام فانس موراي William Vans Murray أن القراصنة «في صراع مع الولايات المتحدة منذ حرب الاستقلال»، وأنهم لم يتركوا للأمريكيين خيارًا سوى الحرب. أما فيشر آيمز Fisher Ames من ماساتشوستس وكان من أشد أنصار التجارة الحرة فقد بدا متشائمًا للغاية عندما قال: «إن تجارتنا على وشك أن تنمحي تمامًا، وإن لم نجهز جيشًا فيمكننا أن نتوقع قريبًا جدًّا وجود الجزائريين على أعتاب السواحل الأمريكية.»

وبالإضافة إلى الاعتبارات الاستراتيجية والمالية اتخذ الجدال حول الأسطول البحري بعدًا دستوريًّا، مما وضع أنصار تكوين حكومة مركزية قوية على المحك في مواجهة معارضيها الكثيرين. وفي تغيير مفاجئ للسياسة سمح جيفرسون لمخاوفه من السلطة الفيدرالية أن تتغلب على رغبته طويلة الأمد في مواجهة البربر عسكريًّا، وعارض بناء الأسطول. أما زميله وأشد المعجبين به جيمس ماديسون فتساءل عما إذا كانت البلاد تمتلك ما يكفي من الأخشاب للقيام بهذا المشروع. وفي المقابل أيد الزعيم الفيدرالي جون آدامز الخطة، على غير المتوقع؛ فلطالما شكك آدامز في مدى استعداد الشعب الأمريكي لمحاربة القراصنة. ولم يكن العنصر الحاسم في النهاية اقتصاديًّا ولا سياسيًّا، بل نفسيًّا. فأغلبية أعضاء الكونجرس — بصرف النظر عن مشاعرهم نحو الفيدرالية — لم يعودوا يتحملون الخضوع للبربر. وجرى إقرار القانون بأغلبية بسيطة؛ خمسون صوتًا ضد تسعة وثلاثين، وبشرط أن يتوقف بناء السفن فور تحقيق السلام مع الجزائريين.

في ٢٧ مارس/آذار ١٧٩٤ أقرت واشنطن قانونًا يجيز تخصيص ٦٨٨٨٨٨,٨٢ دولارًا لبناء ست بوارج حربية «تكفي لحماية تجارة الولايات المتحدة من القراصنة الجزائريين». وكانت السفن ستتمتع بالقوة والمرونة عن طريق أقصى حد للتسليح بوجود ٤٤ مدفعًا، أي أقل من نصف العدد الموجود على السفن الحربية الأوروبية، بما يعنى أنها ستكون في حالة مثالية لقتال القراصنة. وبذلك ولدت البحرية الأمريكية ولادة متعسرة لكنها مشرفة، ولم يكن الهدف من ورائها السيطرة على البحار، بل تحريرها.[٢٥]

غير أن إنشاء الأسطول كان يسير ببطء شديد، فقد تأجل مشروع بناء البوارج بسبب نزاعات على العقود بين الولايات، وسرعان ما تجاوز حدود ميزانيته. وبدا أن القادة الأمريكيين الصائحين «الملايين من أجل الدفاع ولا سنت واحد من أجل الإتاوة» ردًّا على المطالبات الفرنسية لدفع إتاوة حماية، بدا كأنهم لا يزالون على استعداد للتفكير في طريقة ما لدفع إتاوات لشمال أفريقيا. وفي تلك الأثناء كانت رسائل المساجين والأسرى تتوالى على الولايات المتحدة، وبدأت في الظهور في الصحف. فكتب صامويل كالدر Samuel Calder، قبطان السفينة «جاي» أنه جيء به إلى الجزائر مكبلًا وعاريًا وجائعًا»، وكتب صارخًا: «الموت سيكون راحة لي ومرحبًا به أكثر بكثير من استمرار الوضع الحالي.» وتساءل قبطان آخر هو ويليام بنروز: «ماذا ينتظر رجالنا بحق السماء؟» وحذر من أن الموت الوشيك لرجال طاقمه سيبقى على الدوام «وصمة عار في جبين الولايات المتحدة ونقطة سوداء في تاريخها».

واضطرت الحكومة — بوازع من ضميرها المتألم — أن تفتش عن أموال للتعويض. فوعد الهولنديون ببعض القروض، ثم نكثوا بوعدهم. ثم بدأت الكنيسة والجمعيات الخيرية في جمع تبرعات بالمبالغ المطلوبة. وأخيرًا في صيف عام ١٧٩٥ أُصدر أمر لديفيد همفريز بمعاودة محاولة «استرضاء الداي ودفع الإتاوة» وعقد اتفاق سلام مع الجزائر.

كان همفريز أنيقًا ذا ملامح جذابة، وكان يبدو مناسبًا تمامًا للبلاط البرتغالي الذي يتسم بالفخامة، حيث كان يعمل مبعوثًا للولايات المتحدة، لكنه سرعان ما اكتشف أن الدبلوماسية في الغرب تختلف كثيرًا عن نظيرتها في الشرق الأوسط. كان الداي حسن فظًّا ووقحًا ومتقلب المزاج، وقال له: «إذا عقدت سلامًا مع الجميع فماذا أفعل بقراصنتي؟ إنهم بالتأكيد سيقطعون رأسي.» ولكن الخوف من الموت لم يثن الداي عن المطالبة بفدية خرافية قدرها مليوني دولار مقابل إطلاق سراح الأسري، وأصر أيضًا على الحصول على سفينتين من الولايات المتحدة تحمل كل منها ٣٦ مدفعًا. وبدا أنه لا جدوى من الاستمرار في المفاوضات.[٢٦]

كان همفريز — على الرغم من مظهره الرقيق — مفاوضًا بارعًا؛ فقد تمكن من تخفيض طلبات الداي حسن، وتمكن في ٥ سبتمبر/أيلول ١٧٩٥ من الحصول على توقيعه على اتفاقية صداقة، لكن الاتفاقية لم تكن بحال من الأحوال نصرًا لأمريكا، فحسب شروطها كانت الولايات المتحدة لا تزال مطالبة بمنح الجزائر سفينة، بالإضافة إلى مجموعة من الهدايا «٢٥ صندوقًا من أربعة أنواع مختلفة من الشاي ... وستة قناطير من السكر المكرر ... وبعض الخناجر الأنيقة، بالإضافة إلى صندوق من المقصات ... وبعض الشيلان المطرزة بالزهور»، وكانت قيمتها الإجمالية أكثر من ٦٥٠٠٠٠ دولار.

مع ذلك رفض الداي حسن الإفراج عن المختطفين المسجونين حتى يتلقى ما طلبه مقدمًا. وللحصول على المال لجأت الحكومة الأمريكية إلى جويل بارلو Joel Barlow، وهو شاعر من أصدقاء همفريز كان يعيش في باريس، استخدم بارلو اتصالاته الأوروبية، لكنه فشل في جمع المبلغ المطلوب لإرضاء الداي. وثار الداي على بارلو ذي الأنف العريض والحاجبين المتسعين عندما عاد إليه خاوي الوفاض، قائلًا: «أنت كاذب وحكومتك كاذبة. سأكبلك بالأغلال، وأعلن الحرب.» وفي آخر لحظة وجد بارلو رجل أعمال يهوديًّا في الجزائر وافق على إقراض الولايات المتحدة المبلغ المطلوب وسفينة لنقل الأسرى المختطفين.

وشهد بارلو في فبراير/شباط ١٧٩٧ بعد تسليم الأسرى الثمانية والثمانين في فيلادلفيا أن «رجالنا قد تصرفوا عامة بدرجة من الصبر والتهذيب جعلت حالتهم أفضل من حالة العبيد». ونزل كثير من أهالي المدينة إلى الميناء لتحية البحارة المحررين، غامرين إياهم بالورود ومقدمين لهم الكعك والمشروبات. وقال جون فوس John Foss، أحد هؤلاء الأسرى، معبرًا عن شكره: «لم تقم أية دولة مسيحية بشيء كهذا لمواطنيها الذين يجدون أنفسهم في موقف مثل موقفنا. فقد قدمت الولايات المتحدة مثالًا للإنسانية لكل حكومات العالم.» وكان الداي سعيدًا أيضا، وتبرع بالمساعدة في الوصول إلى اتفاقات مماثلة بين الولايات المتحدة وكل من تونس وطرابلس.

كانت المدينتان على استعداد للاتفاق، وسرعان ما حذتا حذو الجزائر في مهاجمة الأمريكيين أولًا، ثم التفاوض معهم من منطلق قوة. ولم يضيع حاكم طرابلس مراد رئيس — وهو مرتد من أصل اسكتلندي كان يعرف في السابق باسم بيتر ليسلي Peter Leslie — وقتًا فقام بنهب ثلاث سفن أمريكية. في حين هاجم القراصنة التونسيون السفينة «إليزا» الآتية من بوسطن. ولأن الولايات المتحدة لم تكن تملك سفنًا حربية، فلم تتمكن من الرد بالقوة على تلك الهجمات، وإنما تمكنت فقط من إرسال بارلو إلى شمال أفريقيا من أجل جولة أخرى من المفاوضات، وتمكن بارلو في النهاية من عقد اتفاقات مع كل من تونس وطرابلس، بتكلفة إجمالية ١٦٠٠٠٠ دولار.

كانت الحكومة توجه الآن ما يقرب من ٢٠٪ من دخلها السنوي لدول البربر، تدفعها في شكل ذهب أو أحجار كريمة، أو — وهو الأغرب — في شكل مدافع أو ذخيرة أو سفن حربية، أي أدوات القرصنة ذاتها، وكانت المبالغ من الضخامة بحيث بدأت الدول الأوروبية في الشكوى من أن الولايات المتحدة تبالغ في تدليل القراصنة، وتتسبب في رفع مبالغ الفدية، وسأل بارلو جيفرسون باشمئزاز: «إلى أي مدى سيستمر هذا النظام البربري، وإلى أين سينتهي؟» وتنبأ الدبلوماسي بأنها مسألة وقت فقط قبل أن

ترفع دول القراصنة الإتاوات وتجدد حروبها ضد أمريكا، ولكن بدلًا من الاستماع إلى تحذيرات بارلو أعلن الكونجرس أن السلام مع شمال أفريقيا قد تحقق وخفض ميزانية بناء السفن الحربية.[٢٧]

ولكن خارج المجلس التشريعي كان العديد من الأمريكيين قد سئموا سياسة بلادهم القائمة على ذم القراصنة بالكلمات واسترضائهم بالرشاوى. وظهر تصاعد حدة النقد بشكل أساسي على الفنون، ففي عام ١٧٩٧ نشر رويال تايلر Royall Tyler — وهو محام محترم من نيو إنجلاند يهوى كتابة القصص الروائية — رواية الأسير الجزائري The Algerine Captive، وهي مذكرات خيالية لجراح على متن سفينة اسمه أبدايك أندرهيل Updike Underhill، أسره القراصنة واستعبدوه، يتحمل أندرهيل «الجوع والمرض والتعب والإهانة والجَلد، والجروح وغيرها من ألوان التعذيب الوحشي»، لكن كل هذا لم يثنه عن ذم أولئك الذين يعقدون «اتفاقات مهينة مع القراصنة»، وأولئك الذين يمدونهم بالأسلحة لانتزاع مزيد من التنازلات المهينة، وأنهى تايلر روايته بصرخة تحذير — جديرة بضمها إلى «الأوراق الفيدرالية» The Federlalist Papres — مذكرًا الأمريكيين «بضرورة توحيد قوانا الفيدرالية لفرض احترامنا المستحق على الأمم الأخرى» وأن يكون «هدفنا الأول هو الاتحاد فيما بيننا».

انضم كتاب آخرون إلى تايلر في عدم فهم الأسباب التي تدعو الولايات المتحدة إلى الرضوخ لما تمليه عليها شمال أفريقيا، وهي القوية الآن بدستورها وبأسطولها البحري الذي يفترض أنها تقوم ببنائه، واعترضت سوزانا روسون Susanna Rowson، أشهر كاتبة مسرحية في الولايات المتحدة ومؤلفة مسرحية «عبيد في الجزائر، أو الصراع من أجل الحرية» Slaves in Algiers; or, The Struggle for Freedom، قائلة: «ماذا؟ نرضخ باستسلام؟ ونقدم أنفسنا عبيدًا لعصابة من الأوغاد من القراصنة الكفرة الأفظاظ؟» ووجه شاعر مجهول سؤالًا مشابهًا، وهو أحد المشاركين في معركة بنكر هيل the Battle of Bunker Hill وأحد الأسرى في الجزائر، مقدمًا الإجابة أيضًا، فقال:

هل ما تزال كولومبيا تخشى أن يكون لها
ابن حر ومواطن وطني؟
إذن وجهوا عدوانيتكم نحو سواحل البربر
حرروا أبناءكم، وأذلوا قوة الأفارقة.[٢٨]

وكاد الإحباط يصيب تايلر وروسون والمؤلف المجهول. فقد استمر الرئيس جون آدامز — الذي كان لا يزال متشككًا في استعداد الشعب الأمريكي لمقاومة البربر — في

دفع الإتاوة لدول شمال أفريقيا، بل عين بها ممثلين دائمين للولايات المتحدة. وكأنما ليؤكد المكانة المتدنية للولايات المتحدة أصبح الأسير المحرر ريتشارد أوبراين Richard O'Brien قنصلًا في الجزائر، وأُرسل جيمس كاثكارت James Cathcart إلى طرابلس. وعلى العكس من ذلك لم يعط هذا المنصب في تونس لسجين سابق، بل لموظف حكومي لم تطأ قدماه من قبل أرض الشرق الأوسط، ولم يتخذ أبدًا موقفًا من القراصنة هو ويليام إيتون William Eaton، الشاب الذي يتسم بالصراحة والشجاعة، لكنه مع ذلك أصبح من ألد أعداء البربر.

استلم القناصل مناصبهم في مارس/آذار ١٧٩٩ عقب قيام أمريكا أخيرًا بتدشين ثلاث من البوارج الست التي وافق الكونجرس على بنائها، كانت تلك السفن تحمل في المجمل ١٢٤ مدفعًا، وتحميها كتائب من سلاح البحرية الذي أنشئ حديثًا، وبذلك كانت السفن «يونيتد ستيتس» United States و«كونستيتيوشن» Constitution و«كونستيليشن» Constellation تمثل قوة صغيرة لكنها فعالة. بدأت البحرية الشابة في إثبات ذاتها بجدارة من خلال ما يشبه حربًا غير معلنة مع فرنسا في البحر الكاريبي، حيث حاولت البوارج الحربية لنابليون أن تسد الطريق على تجارة أمريكا مع بريطانيا، اكتسبت أمريكا الثقة بعد الانتصارات التي حققتها قرب سواحلها، وأصبحت مهيأة لمواجهة تحديات أكبر وأكثر تعقيدًا في الخارج.

على الرغم من هذه الثقة كانت الأمة لا تزال مترددة بشأن استخدام قوتها الجديدة ضد شمال أفريقيا، وقد كتب كاثكارت في إحدى رسائله من طرابلس قائلًا: «يقول هؤلاء البربر إنهم كثيرًا ما سمعوا عن السفن الحربية الأمريكية، لكنهم لم يروا أيًّا منها. والنتيجة التي يستخلصونها من ذلك هي إما أننا لا نملكها، أو أننا نفضل دفع إتاوات كبيرة على أن نرسلها إلى البحر المتوسط.» فهل يستمر الأمريكيون في دفع الإتاوة — تأسيًا بأوروبا — ويتحملون العار، أم يصبحون — كما كان يتمنى همفريز — «واضعوا نظام لاستئصال شأفة القراصنة؟»[٢٩]

كان انشغال أمريكا بالشرق الأوسط حتى الآن يدور بصورة أساسية حول تساؤلات عن القوة الاقتصادية والعسكرية. ولكن الشرق الأوسط لم يجذب كل الأمريكيين لأسباب تجارية أو استراتيجية؛ فقد انجذب آخرون بسبب رؤيتهم الرومانسية للمنطقة، ومن أجل رغبتهم في المغامرة والبحث عن حدود جديدة. كان أول هؤلاء الأمريكيين هو جون ليديارد، الرحالة العالمي والمغامر الذي قدمنا له في التمهيد. فلمدة خمسة أشهر كاملة من عام ١٧٨٨ كتب ليديارد تقارير مليئة بالحيوية عن تجاربه في مصر، قلب العالم العربي. كان وصفه يملأ أذهان الكثيرين من الأمريكيين بصور غريبة وواضحة

عن الشرق الأوسط، ومنهم صديق ليديارد الحميم — ورئيسه فيما بعد — توماس جيفرسون. ففي السابق كان جيفرسون، مثل الغالبية العظمى من أبناء جلدته، يرى في المنطقة معقلًا للقراصنة الكفرة البغيضين، بالإضافة إلى كونها معقلًا للعجائب. فقد كان الشرق الأوسط لجيفرسون ومعاصريه ليس مجرد معقل للقوة فحسب، بل مسرحًا للخرافات والأساطير الجذابة للغاية.

الفصل الثاني

الشرق الغامض والعداء

إن مصطلح «الشرق الأوسط» ابتكره أدميرال أمريكي عام ١٩٠٢، وقبل ذلك كان الأمريكيون والأوروبيون يتحدثون عن المنطقة مشيرين إليها بكلمة «الشرق»، وكان هذا المصطلح يشير، دون تحديد دقيق، إلى مساحة الأرض الممتدة ما بين المغرب ومصر، ثم تنحني عبر الجزيرة العربية نحو الشام قبل أن تصل في النهاية إلى تركيا. ولكن هذا التقسيم لم يقم تمامًا على جغرافية المكان؛ فالدار البيضاء مثلًا تقع إلى غرب مدريد ومارسيليا وروما، لذلك يمكننا القول إن مصطلح الشرق كان يصف إقليمًا تجمعه حضارة مميزة، وأساليب حكم وهياكل اجتماعية وأنماط من العمارة والملبس. وكان سكان تلك المنطقة معروفين للغربيين بمسميات عدة؛ العرب، وأهل الشام، والجزائريين، والبربر، والأتراك. وكان الاعتقاد السائد أنهم معادون للغرب ويتحدثون لغة ذات وقع غريب على الأذن الأمريكية. أما ما كان يميز الشرق أكثر من مواصفاته السياسية والفنية أو اللغوية فكان هذا الدين المسمى الإسلام. كان الأمريكيون في القرن الثامن عشر ينظرون إلى أتباع تلك العقيدة باعتبارهم «الآخر» المختلف عنهم تمامًا. كانوا من وجهة نظرهم كتلة غريبة غير متناسقة، وينحدرون من حضارة عظيمة انهارت منذ زمن طويل، إلى جانب أنهم بدائيون، يتميزون بالعنف والقسوة.

سراب خادع

انتقلت الصور السلبية عن الشرق من العالم القديم إلى العالم الجديد في أذهان المهاجرين الأوروبيين الأوائل. سافر جورج ساندیز George Sandys — الذي صار فيما بعد وزير المالية في مستعمرة فيرجينيا — إلى الشرق الأوسط لأول مرة عام ١٦١٠، ووصفه بأنه منطقة مليئة بالوحشية والقذارة، وقال: «أعتقد أنه لا يوجد مكان كهذا في العالم يعد من يراه بالكثير، ولكنه يخيب توقعات زائريه.» شارك حاكم فيرجينيا جون سميث ساندیز في رأيه، وكان الأول قد حارب قبل ذلك كمرتزق ضد العثمانيين، وكان درعه يحمل

رسمًا يمثل رؤوس الأعداء التي حصدها. وقد وصلت فكرة تفوق الغرب على الشرق مع المهاجرين إلي بليموث إلى جانب أفكار مبدئية عن الديمقراطية والعدل الاجتماعي. وكانت هناك صخرة قرب المستعمرة، قيل إنه كتب عليها: «تنهار الأمم الشرقية وينتهي مجدها، وتقوم الإمبراطورية حيث تغرب الشمس».

ومع أن الولايات المتحدة كانت تفخر في بداياتها بالتسامح الديني، فإن هذا التسامح نادرًا ما كان يمتد إلى الإسلام، الذي لم يكن يعتبر دينًا على الإطلاق، وكان كثير من رجال الدين البارزين، من أمثال كوتون ماثير Cotton Mather وجوناثان إدواردز Jonathan Edwards، ينددون بالإسلام باعتباره عقيدة باطلة وفاسدة أخلاقيًّا، وكان صامويل لانجدون Samuel Langdon، رئيس جامعة هارفارد، يرى أن محمدًا من الأنبياء الكذبة، بل الأسوأ «أنه رسول الشيطان». ازداد هذا الانطباع السلبي عن الإسلام رسوخًا عن طريق الترجمات المغرضة للقرآن، فكانت ترجمة ألكسندر روس Alexander Ross المنشورة عام ١٦٤٩ تهدف إلى كشف «المتناقضات والتجديف والكلام الفاحش والقصص الخيالية المضحكة» في ذلك الكتاب، بحيث يمكن للمسيحي «أن يعرف أعداءه معرفة أفضل، فيتمكن من التغلب عليهم»، وبالمثل كانت الترجمة التي وضعها المحامي جورج سيلز George Sales عام ١٧٣٤ تهدف إلى تمكين البروتستانت من «مهاجمة القرآن بنجاح» وتأْمُل في «أن يكون القدر قد احتفظ لهم بمجد القضاء على الإسلام». كان أكثر كتب الحقبة الاستعمارية شعبية عن محمد هو الكتاب الذي ألفه همفري بريدو Humphrey Prideaux عام ١٦٩٧، وكان الغرض منه واضحًا في عنوانه: «فضح حقيقة المحتال» The True Nature of the Imposture Fully Displayed.[١]

انعكس هذا المزيج من الحقائق والمعلومات المضللة عن الشرق الأوسط الذي تعرض له الأمريكيون إبان الاستعمار على أول قصة قصيرة كتبت في العالم الجديد، وهي كوميديا ساخرة بعنوان «رحلة حج بابا بومبو إلى مكة» Father Bombo's Pilgimage to Mecca، كتبت هذه القصة عام ١٧٧٠ بقلم فيليب فرينو Philip Freneau وهيو هنري براكنبريدج Hugh Henry Brakenridge، وهما زميلا دراسة لجيمس ماديسون James Madison بجامعة برينستون. تصف هذه القصة كيفية ظهور النبي محمد أمام طالب غشاش اسمه بومبو، فيأمره أن «يغير ديانته ويتحول إلى الإسلام، ويصبح مسلمًا حقيقيًّا»، فيرتدي بومبو زيًّا إسلاميًّا، ويذهب في رحلة لمدة ستة أسابيع إلى الحرم المكي الذي دفن فيه النبي، وهناك يغسل الحاج يديه وقدميه، ويخلع بقية ملابسه، ويقول: «سجدت على الصعيد الخالي، عاريًا، موليًّا وجهي ناحية الشرق، أستجدي النبي أن يغفر لي خطاياي.» ويبدو واضحًا في النص أن براكنريدج وفرينو كان عندهما بعض المعرفة

بالطقوس الإسلامية، لكنهما أخطآ في تصوير محمد فشبهاه بيسوع المسيح الذي ما زال يظهر أحيانا للتائبين ويمنحهم الخلاص مع أنه مدفون في ضريح مقدس، ويستجيب محمد بالفعل لدعاء بومبو وصلواته فيغفر له خطاياه، بحيث يمكنه في النهاية من العودة إلى نيوجيرسي.

وصلت الصور السلبية عن الشرق الأوسط أيضًا عن طريق مذكرات الدبلوماسيين والرحالة الأوروبيين، التي نشر منها أكثر من مائة مذكرة بنهاية القرن الثامن عشر، ومع أن معظم هذه الكتب وضعت بالفرنسية، فإن بعضها، ومنها كتاب جيمس بروس «رحلات لاكتشاف منبع النيل» Travels to Discover the Source of the Nile، كانت متاحة للقارئ الإنجليزي، وكانت هذه الكتب ترسم صورة للشرق الأوسط على أنه مكان غريب، رومانسي وخطير في آن واحد، وتصف نساءه بأنهن لعوبات، ورجاله بأنهم متحررون ونبلاء. ومع ذلك كان كتَّاب آخرون مثل الجغرافي ليو أفريكانوس Africanus Leo في القرن السادس عشر، وهو مسلم تحول إلى الكاثوليكية، يصف شعوب المنطقة بأنها «همجيون، وغارقون في الغنائم والأسلاب، يفقئون أعين سجنائهم المسيحيين ويقطعون أيديهم وأرجلهم». أما الانطباعات الأكثر عدلًا عن الشرق فجاءت من الرحالين الفرنسيين سافاري Savary وفولني Volney، وبأقلام الكتاب الكلاسيكيين هيرودوت Herodotus وثوسيديدس Thucydides وهوميروس Homer. ومع ذلك فباستثناء اللمحات التي يمكن اقتناصها من التجار الذين كانوا يتاجرون في المنطقة أو من العبيد المتحدثين بالعربية، فإن الأمريكيين في عصر ليديارد لم يكن لديهم إلا قدر ضئيل جدًّا من المعلومات عن الشرق الأوسط، وكانت المعلومات القليلة التي يملكونها مضللة، إلى جانب أنها كانت غير موضوعية بصورة مخزية.[٢]

ترك هذا الافتقار الشديد إلى أي معرفة حقيقية بالشرق الأوسط فراغًا كان من السهل جدًّا ملؤه بإشاعات عن المنطقة، لا تدور فقط حول عدائها المزعوم للغرب وكل ما يمت له بصلة، وإنما تتحدث أيضًا عن عجائبه المبهرة التي لا حد لها. وكانت صورة المنطقة باعتبارها مركزًا للمتع الحسية والبصرية مستقاة من مصادر عديدة، وكان أكثرها ثراءً متوفرًا على أرفف كتب أمريكا قبل الاستقلال، وكان الإنجيل — وهو نص كان يعرفه كل الأمريكيين الأوائل تقريبًا معرفة وثيقة، وينظرون إليه باعتباره حقيقة راسخة — هو المصدر الرئيسي للخيالات عن الشرق الأوسط، وكان العهدان القديم والجديد يقدمان صورة شاملة للأهرامات والمعابد والحدائق المعلقة والواحات والصحاري، وكانت المقاطع التي تصف هذه العجائب تثير عند قراءتها في كنائس بنسلفانيا بأجوائها الكئيبة أو في المنازل التي تعصف بها الرياح في المناطق الحدودية؛

أحلامًا عن الشرق الأوسط حتى بداخل أكثر المسيحيين تشددًا، فكان الكثيرون يحلمون برؤية هذه العجائب بأنفسهم.

في المرتبة التالية للإنجيل، كان كتاب «ألف ليلة وليلة» من أكثر الكتب شيوعًا بين الأمريكيين الأوائل، وكان أيضًا مصدرًا خصبًا لما يحيط بالشرق الأوسط من أوهام. يتألف الكتاب من مجموعة من القصص الرومانسية الفارسية في العصور الوسطى، وظهرت أول ترجمة إنجليزية له في عام ١٧٠٨، وحققت شعبية كبيرة في الإمبراطورية البريطانية لاسيما المستعمرات الأمريكية، ولم يكن من الصعب معرفة أسباب ذلك؛ فمغامرات علي بابا والسندباد وعلاء الدين ومعاناة شهرزاد وهي تحكي القصص خوفًا على حياتها كانت تنقل الأمريكيين من حياتهم الشاقة إلى عالم مثير من الكنوز المخبأة والبسط الطائرة والجواري الحسان المختبئات خلف نقاب يزيدهن إثارة، ويمكن للمرء أن يتخيل النشوة الحسية التي تثيرها مثل تلك الكتابات في رجال دين نيو إنجلاند أو رجال الدولة الصارمين عند قراءة مقطع كالمقطع الآتي من مقدمة الكتاب:

> وفجأة انفتح باب سري لقصر السلطان، وخرجت منه عشرون امرأة، تتوسطهم السلطانة ... خلعت النساء نقبهن وأرديتهن الطويلة، ليتمتعن بحرية أكبر، أمام عشرة من الخدم السود ... وأخذ كل منهم عشيقته. أما السلطانة فلم تقف طويلًا وحدها، بل صفقت بيديها ... وفورًا ظهر لها عبد أسود ... جرى ناحيتها مسرعًا، واستمرت هذه الجماعة في ممارسة الحب حتى منتصف الليل، وبعد أن اغتسلوا جميعًا في بحيرة كبيرة ... ارتدوا ملابسهم ودلفوا مرة أخرى إلى داخل القصر.[٣]

أضفت عجائب الكتاب المقدس والمثيرات الحسية على الشرق الأوسط جوًّا كالأحلام، ولكن هل كان ذلك يكفي لجذب الغربيين إلى زيارة المنطقة والمخاطرة بمواجهة سماتها الأخرى الأقل إثارة وجاذبية؟ كانت إجابة غالبية الأمريكيين أكثر من الأوروبيين مباشرة للغاية: الشرق الأوسط يمثل لهم فرصة للتحرك. وباعتبار الأمريكيين مواطني دولة مشهورة باحترام الفردية والنشاط، وشعبًا محبًّا للحركة بحيث جعل حتى كراسيه «هزازة» — كما لاحظ أحد الأجانب — فإنهم كانوا يعشقون الحركة ويتوقون للمغامرة. لذلك كان هناك آلاف المغامرين الأمريكيين التواقين إلى البحث عن مساحات واسعة ومناطق جديدة. ولم تكن المساحات الشاسعة لقارة أمريكا الشمالية كافية لبعضهم لإشباع حبهم للمغامرة والترحال، فكانوا لا ينظرون فقط إلى البرية غرب نهر أوهايو وما وراء المسيسبي، ولكنهم كانوا يتطلعون أيضًا إلى الاتجاه المضاد، نحو الشرق؛

فالشرق كان يعني لهم أكثر من الخيال؛ فقد كان أفقًا بلا حدود، ينتظر الاستكشاف والمغامرة. وأما الأمريكيون من أمثال جون ليديارد المغامر الرومانسي، فكان الشرق الأوسط يمثل الحدود النهائية المنشودة عندهم.[٤]

أمريكي من كونيتيكت في مصر

وصل ليديارد إلى تلك الحدود في الأسبوع الأول من يوليو/تموز ١٧٨٨، عندما رست سفينته في الإسكندرية بمصر، كان ميناء متربًا شديد الازدحام، يتكدس فيه ستة آلاف نسمة، كانت المدينة خامدة لكن تعمها الفوضى في نفس الوقت، ولم تكن تحمل أثرًا لمجدها الغابر، ولم تكن تحمل ملامح أساطير الشرق الأوسط التي كانت تملأ خيال ليديارد، ولذلك كتب في بداية خطاب إلى جيفرسون: «يبدو منظر الإسكندرية عامة أكثر بؤسًا مما كنت أتخيل»، وكانت المآسي التي يعاني منها سكانها أكثر من أن يحصيها؛ «الفقر والسطو والقتل والشغب والتعصب الأعمى والاضطهاد والأوبئة القاتلة».

كان الانهيار الذي شهده ليديارد عرضًا من الأعراض التي أصابت الإمبراطورية العثمانية، التي كانت مصر لا تزال جزءًا منها في أواخر القرن الثامن عشر، وكثيرًا ما كان الغربيون يطلقون عليها تركيا أو الباب العالي (نسبة لباب قصر كبير الوزراء)، نشأت هذه الإمبراطورية في القرن الرابع عشر وتوسعت بانتظام لتسيطر على الشرق الأوسط بأكمله، إلى جانب أجزاء كبيرة من آسيا الوسطى وشرق أوروبا، وكان الجيش العثماني القوي قد قام بغزوات متكررة ضد أوروبا المسيحية انتهت بحصار فيينا عام ١٦٨٣، ولكن هذا الهجوم كان نقطة القمة للإمبراطورية التي بدأت بعدها في الانهيار، وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر أفل نجم العثمانيين ولم يعودوا أشباحًا تخيف الغرب كما كانوا من قبل، فأهل فيينا الذين كانوا يصابون بالرعب لمجرد ذكر «جماعات البربر» و«الأتراك المتوحشون» عندما وقفوا على أبواب مدينتهم، أصبحوا اليوم يتمتعون بأحدث صيحات الملابس التركية، ويرتادون المسرح لمشاهدة «اختطاف من جناح الحريم» The Abduction from Seraglio، وهي أوبرا كوميدية من تلحين موتسارت تدور حول عملية إنقاذ امرأة أسبانية من جناح حريم عثماني.

كان انهيار الإمبراطورية أوضح ما يكون في الأقاليم الناطقة بالعربية، وهذه الدول التي كانت يومًا ما ممالك ثرية ومتنورة ومهد رواد عالَمِيِّين في العلوم والرياضيات؛ قد أصبحت في نهاية القرن الثامن عشر مجرد مناطق متخلفة شبه إقطاعية، ولم يصب التغيير حياة القطاع العريض من السكان إلا قليلًا منذ العصور الوسطى، فلم تكن هناك مطابع ولا ساعات ولا مؤسسات علمية حديثة. كانت الطرق الممهدة نادرة،

وبسبب عدم وجود سلطة مركزية قوية كان المسافرون معرضين لمخاطر كثيرة، ولم يجرؤ على اقتحام هذه المنطقة الخطرة إلا قليل من الأوروبيين، وكان وجودهم ينحصر في المدن الساحلية، حيث كانوا يعيشون تحت حماية قنصلياتهم. أما السكان المحليون فلم تكن لديهم هذه الميزة، فبعد ضعف السيطرة العثمانية، أصبح الفلاحون تحت رحمة حكام الأقاليم وعصابات اللصوص.

وكانت الأوضاع سيئة بصورة خاصة في مصر؛ فقد كان نحو ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة لا يملكون إلا ما يقيم أودهم، وكانت الأمراض والمجاعات تفتك بهم سنويًّا، وبدلًا من محاولة التغلب على تلك المآسي، كان حكام الدولة العثمانية يعيشون في صراع دائم على السلطة مع أسرة المماليك المحليين، كانوا يدمرون القرى ويدوسون بأقدامهم الفلاحين التعساء. وعام ١٧٨٨، عندما كان موتسارت على وشك تأليف أوبرا ثانية تقع أحداثها الخيالية في الشرق الأوسط، هي أوبرا «الناي السحري» The Magic Flute، وبعد قليل من وضع الولايات المتحدة لهرم على الجانب الخلفي لخاتمها الرسمي، كانت مصر — مهد الحضارة — قد وصلت إلي أدنى درجات الانحطاط.[٥]

كانت هذه هي مصر المتدهورة التي قابلها ليديارد في الإسكندرية، ومع ذلك فقد رفض ليديارد أن يصدق أن انهيار المدينة كان مثالًا على انهيار البلد كله، فرحل إلى القاهرة بحثًا عن الشرق الأوسط الأسطوري، استغرقت الرحلة خمسة أيام في النيل، وهي تجربة كان يتوق لها بشدة، لكنه هنا أيضًا أصيب بالإحباط، وتساءل: «هل هذا هو النهر العظيم ملك الأنهار، الذي تحول إلى واحدة من عجائب الدنيا؟!» لم يكن النهر في تقديره الشخصي يزيد عن نهر كونيتيكت إلا قليلًا.

وفي القاهرة قدم ليديارد خطاب اعتماده الملكي إلى سنيور روزيتي Signor Rosetti، قنصل فينيسيا القائم بمصالح بريطانيا في المدينة، وعلم ليديارد أنه كما يشير الغربيون إلى كل شعوب الشرق الأوسط بـ«الشرقيين»، فإن مسلمي الشرق الأوسط ينظرون إلى الأوربيين والأمريكيين باعتبارهم «فرنجة»، وهو لفظ أطلقوه عليهم منذ عهد الحملات الصليبية. ونصحه القنصل من أجل سلامته بألا يكثر من الظهور وأن يسافر مرتديًا الزي الوطني لأهل البلد، وكانت فكرة أن يخفي المسيحي هويته فقط لإرضاء المسلمين فكرة «مذلة ومهينة ومؤلمة للغاية» من وجهة نظر ليديارد، وقد شكا لجيفرسون من «العار الذي يلحق بأبناء أوروبا إذ يضطرون لتحمل تلك العجرفة على يد عصابات من المتعصبين الجهلة»، ومع ذلك فقد عمل ليديارد في النهاية بنصيحة القنصل، فاستبدل بسرواله الأوروبي الضيق وقبعته الغربية سروالًا شرقيًّا وعمامة، ونجح بذلك في قضاء ثلاثة أشهر مثمرة في استكشاف النيل دون مضايقات.

في جميع تلك الرحلات، أثبت ليديارد أنه مراقب دقيق لتضاريس مصر ومعالمها، فقد سجل ارتفاع الأهرامات ومدى الامتداد العمراني، وحاول التنبؤ بطول القوافل، وتعاطف ليديارد مع أحوال العامة، مقدرًا أنها «أدنى من أحوال أي مكان غير متمدن»، ودفعه فضوله أيضًا إلى ساحات المعارك بين جيوش المماليك والعثمانيين، التي لم تكن قد انتهت إلى نتيجة حاسمة في ذلك الوقت، وبسبب شعور القائد المملوكي بالإحباط لهذه النتيجة غير الحاسمة طلب من ليديارد أخيرًا أن يقود جيوشه، وعلق الأمريكي على ذلك قائلًا: «هذا أبعد ما يمكن أن يصل إليه أمريكي من كونيتيكت؛ أن يعرض عليه الاضطلاع بدور في الحرب الأهلية بمصر.»

لقد أحزن ليديارد كثيرًا مدى التدهور الذي وصلت إليه مصر، وألقى باللوم في ذلك على روسيا، بسبب إضعافها لتركيا، وربما كان ذلك بعضًا من بقايا نقمته على كاثرين «إمبراطورة روسيا»، لكنه ألقى باللوم أيضًا على المسلمين بسبب «إيمانهم بالخرافات ولكونهم مجموعة من عصابات الحرب»، وعلى الإسلام «الذي أضرهم أكثر من أي شيء آخر» أيضًا. وكان معجبًا من ناحية أخرى بقدرة المسلمين على المزج بين التقوى والتجارة، وأبدى إعجابه أيضًا بـ«ارتباطهم القوي بالحرية». وكانت صورة البدوي راكب الجمل الذي لا توقفه حكومة ولا حدود — وهي صورة مشابهة لصورة المغامر الاستعماري أولا، ثم راعي البقر الأمريكي فيما بعد — موضوعًا ونمطًا مكررًا في الكتابات الأمريكية عن الشرق الأوسط، ولها تأثير مستمر على سياسة الولايات المتحدة في المنطقة.

غير أن ليديارد لم يجد في الشرق الأوسط شيئًا من الخيال باستثناء أسطورة البدوي المحب للحرية، ولم يجد بالتأكيد شيئًا من حكايات ألف ليلة وليلة، وشكا لجيفرسون قائلًا: «لا شيء يستحق السخرية أكثر من الخرافات الشعرية والنثرية التي تحكى عن هذا البلد.» وقارن بين الأشجار اللامعة و«الهواء المحمل بالتراب والحرارة، والحشرات والناموس والعناكب والذباب والبرص والحمى والعمى المنتشر بشدة»، ومثل جيفرسون كان ليديارد ينظر إلى مجتمع الشرق الأوسط باعتباره مرآة تعكس ما يحدث في أمريكا، فمقابل الكراهية والظلام في الشرق الأوسط يوجد التنوير الأمريكي. فكتب: «مصر جميلة، ولكن على الورق فقط.»

في تلك الأثناء كان ليديارد يعد لرحلته إلى أفريقيا، فاستشار القائد المملوكي إسماعيل بك، الذي حذره من قطاع الطرق القادرين على التحول إلى حيوانات مفترسة، ونصحه أيضًا أن يسافر بمتاع قليل وألا يحمل مقتنيات ثمينة، ثم حجز له مكانًا في القافلة التالية المتجهة إلى مدينة سنار التي تبعد أكثر من ألف ميل إلى الجنوب. وفي خطابه

الأخير بتاريخ ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٧٨٨ نصح ليديارد جيفرسون بألا يأتي إلى مصر أبدًا، وأن يحرق كل كتابات سافاري Savary وثوسيديدس وهوميروس — التي تصور مباهج الشرق وعجائبه، ثم ودع صديقه بطريقته الدرامية المميزة قائلًا: «أنا ذاهب وحدي ... لا تنسني فأنا لن أنساك ... والحق أن عزائي الوحيد سيكمن في تفكيري فيك وتذكرك في لحظاتي الأخيرة، فعش سعيدًا.»[٦]

كان هذا بالفعل الوداع الأخير، فقد أصيب ليديارد بنوبة عصبية بسبب انزعاجه من تأخر رحيله أدت إلى إصابته بمرض الصفراء، ولعلاج تلك الحالة تناول ليديارد جرعات كبيرة من زيت الزاج (الاسم القديم لحمض الكبريتيك) ثم لجأ إلى تناول تركيز عال من الطرطير المقيئ (مادة سامة كانت تستعمل قديمًا كدواء مقيئ)، وبدأ بعدها في تقيؤ الدماء، ثم وُضع تحت رعاية «أشهر الأطباء في القاهرة»، وبعد أربع وعشرين ساعة توفي الرجل الذي كان قد أكد لوالدته قبل وفاته بقليل أنه «يتمتع بكامل الصحة والعافية»، وأنه «سحق العالم تحت قدميه وسخر من الخوف ولم يأبه للخطر».

دفن جون ليديارد في تلال الرمال على ضفاف نهر النيل في مقبرة متواضعة، لم يعد موقعها معروفًا اليوم، وترك وراءه مخطوطة لم تنشر بعنوان «تقديرًا للنساء»، وصف فيها الجنس الآخر بأنهن «لطيفات مهذبات كريمات عطوفات رقيقات»، لكنه لم يترك متاعًا شخصيًّا يذكر.[٧] إلا أن الإنجاز الذي حققه كان هائلًا، فقد كانت أول مرة يسافر فيها مواطن أمريكي إلى الشرق الأوسط ويكتب تقارير دقيقة عنه، وكانت حينئذ منطقة لا يعرفها الأمريكيون إلا عن طريق الإنجيل والقصص الخيالية.

وضح تأثير هذا المثال عام ١٧٩٢، عندما عدد هنري بوفوي Henry Beaufoy مآثر ليديارد في مجلة المرأة Ladies Magazine، وهي مجلة شهرية رائدة تصدر في فيلادلفيا. بدأ المقال بسلسلة من القصص العاطفية تدور حول موضوعات شرق أوسطية، قصص تشبه «ألف ليلة وليلة» عن المرأة في الشرق الأوسط التي «تصبح جريئة صعبة المراس عندما تسيطر عليها عاطفة الحب مع أنها رقيقة وخجولة بصفة عامة»، ولكن كانت هناك أيضًا دراسات مفيدة عن عادات المصريين والشراكسة والدروز، ووصفًا لمدن الشرق الأوسط يؤكد صحة انطباعات ليديارد، فقد كتب مسافر مجهول: «كل من يتعرف حديثًا على هذه المناطق ينبهر بتنوعها، وتختفي كل فكرة كونها بنفسه، لكنه يبقى غارقًا في الانبهار والدهشة.»

وبانتهاء القرن وبدء قرن جديد، سار أمريكيون آخرون على درب ليديارد، فرحلوا إلى الشرق الأوسط، كان أحد هؤلاء جويل روبرتس بوينسيت Joel Roberts Poinsett من تشارلستون، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للحربية، وهو أيضًا مكتشف الزهرة التي

لا تزال تحمل اسمه. وعندما نزل ضيفًا على الشاه الفارسي عام ١٨٠٦، جرى تكريمه والترفيه عنه بـ«فتيات جميلات راقصات مرتديات سراويل حمراء طويلة، ويغطي وجوههن النقاب». وشاهد أيضًا «بركة بترول» أو «أرض النار الأبدية» التي تنبأ بأنها ستستخدم يومًا ما كوقود. بعد ذلك باثني عشر عامًا نبتت في رأس جورج باريل George Barrell من بوسطن «فكرة الاستماع إلى الناي الشرقي وصوت عذب لشقراء شركسية» بعد قراءته قصصًا خيالية شرقية عديدة، لذلك شد الرحال إلى الأناضول، ولكنه اكتشف أن صوت الناي يشبه «موسيقى القرب عندما تؤدى على نحو سيئ» وأن الشركسيات الشقراوات يوجدن فقط في سوق الجواري. ومع ذلك فقد ظل باريل يحث الأمريكيين على التخلي عن «أفكارهم وتحيزاتهم المسبقة» السلبية عن الشرق، وأن يحذوا حذوه في السفر إلى هناك.

أبقت هذه الحكايات — حتى عندما كانت تزيل الغموض المحيط بالشرق الأوسط — على الخيالات المحيطة بالشرق الأوسط، وأغرت أعدادًا متزايدة من الرجال والنساء بالذهاب إلى سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين، وظل من بقي منهم في بلاده يحلم بالمنطقة، وصدر نحو ثلاثين كتابًا عن مصر في الولايات المتحدة في الربع الأول من القرن التاسع عشر وحده، وسميت أربع مدن أمريكية على الأقل القاهرة، وثلاث مدن بغداد والمدينة، وسميت مدينتان مكة وواحدة حلب وأخرى الجزائر. وبعد أن أزالت رحلات ليديارد الغموض المحيط بالشرق الأوسط، ظل الشرق الأوسط محط أنظار كثير من الأمريكيين، سواء المغامرين أو كبار السياسيين، ومنهم توماس جيفرسون.

كان جيفرسون يظن طيلة الوقت أن ليديارد سيعود من مصر ويبدأ بتنفيذ خطته للسفر عبر أمريكا على قدميه بحثًا عن الممر الشمالي الغربي، وانهارت تلك التوقعات في مارس/آذار ١٧٨٩ عندما قرأ جيفرسون خبر وفاة صديقه في إحدى صحف باريس، فأسرع بالكتابة إلى توم بين الذي كان قد انتقل إلى لندن طالبًا منه التأكد من ذلك بالتعاون مع الجمعية الأفريقية، وكتب له بين معزيًا: «... كان ليديارد عضوًا محبوبًا ومميزًا في الجمعية، وهي تنعاه بكل الأسى والأسف.» وأطرى سير جوزيف بانكس Joseph Banks، أحد أهم رعاة ليديارد في لندن، مواهب ليديارد كمؤلف ومفكر مستنير، قائلًا: «هذا الرجل، كان كله عقلًا.»[٨]

حقق جيفرسون في النهاية حلمه بشق طريق عبر أمريكا الشمالية، بمساعدة المستكشفين لويس وكلارك Lewis and Clarke، ولكن في الوقت الراهن كان اهتمامه برسم السياسة الخارجية لبلاده يفوق اهتمامه باستكشاف أجزائها الداخلية، وكانت علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط من بين أهم وأعقد الموضوعات التي كانت

تواجه الرئيس المستقبلي، وهنا ظهرت قيمة مشاهدات ليديارد، فقد مكنت جيفرسون من رؤية المنطقة بعيون أمريكية؛ ثاقبة النظر، وحررته من الخيالات، فتمكن جيفرسون كرئيس للولايات المتحدة من التعامل مع الشرق الأوسط على نحو يخلو من الأوهام والخيالات، ويركز فقط على القوة.

الفصل الثالث

بوتقة الهوية الأمريكية

كان ويليام بينبريدج William Bainbridge ابنًا لطبيب ناجح من نيويورك، وكان بحارًا في سن الخامسة عشر، ثم أصبح قبطانًا قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وكان زوجًا محبوبًا وأبًا لأربعة أبناء، يحترمه ضباطه وطاقم العاملين معه، وربما كانت تنتظره حياة عظيمة، لولا حظه التعس الذي كان يصاحبه دائمًا، ففي مواجهة مع سفينتين حربيتين أثناء «شبه الحرب» مع فرنسا مثلًا اضطر إلى التخلي عن قيادة السفينة ريتالييشن Retaliation دون إطلاق قذيفة واحدة.

ومرة أخرى تدخل سوء حظه في سبتمبر/أيلول ١٨٠٠، عندما تلقى أوامر بالإبحار بالسفينة جورج واشنطن باتجاه الشرق الأوسط. ظلت الولايات المتحدة لأكثر من ثلاث سنوات تقتطع جزءًا كبيرًا من دخلها القومي لتقدمه إتاوة إلى دول البربر، وكثيرًا ما كانت موانئ شمال أفريقيا تستضيف السفن الأمريكية التي تحمل الأخشاب والبهارات والأسلحة وغير ذلك، بهدف إثراء واسترضاء الحكام المحليين، وكانت حمولة جورج واشنطن قد بلغت قيمتها نحو ٥٠٠٠٠٠ دولار من البضائع الموجهة للجزائر كإتاوة.

من وجهة نظر بينبريدج كان تسليم هذه الإتاوة يعد من الخزي والعار، وضاعف من إحساسه بذلك أن جورج واشنطن كانت أول سفينة في الأسطول البحري الأمريكي تدخل البحر المتوسط، ومع ذلك فقد توقع بينبريدج — باعتباره ممثلًا لبلاده — أن يُظهر له الآخرون الاحترام، لكنه تلقى على العكس من ذلك وابلًا من الإهانات، إذ قال له الداي حسن: «أنتم تدفعون إتاوة تصبحون بها عبيدًا لي»، وعلى الرغم من استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية، فإنها كانت لا تزال تدفع إتاوة للسلطان، وهذه المرة أمر الداي حسن بينبريدج أن يحمل تلك الإتاوة إلى إسطنبول، وعندما رفض القبطان، ذكره الداي حسن بأن السفينة جورج واشنطن ترسو تحت مدافع المدينة تمامًا، وفي مرمى نيران السفينة كريسنت Crescent، وهي سفينة تحمل ٣٢ مدفعًا كان الرئيس آدامز قد منحها للجزائريين، ومن أجل «حفظ السلام ... ولمنع اختطاف السفينة وأسر

طاقمها وضباطها ... ولمنع نهب واستعباد مواطني الولايات المتحدة» رضخ بينبريدج لأوامر الداي.

وعلى وجه السرعة جرى شحن جورج واشنطن بـ ١٥٠ رأس ماشية، و٢٥ بقرة، و٥ جياد، و٤ ظباء و٤ نمور و٤ أسود، بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من النعامات والببغاوات، وإلى كل ذلك أضيف ما يوازى مليون دولار في شكل ذهب ومجوهرات وسلع، وصاحب كل ذلك السفير الجزائري وعائلته ونحو مائة من العبيد الأفارقة. لم يكن بينبريدج قد بلغ بعدُ الثلاثين من عمره، وكان قوي البنية ذا وجه ممتلئ وشعر مصفف بطريقة أنيقة، وكان معتزًّا بنفسه، لذا ثار ضد هذا التعسف والإجحاف، أما مشهد استبدال العلم الجزائري بالعلم الأمريكي فكان أكثر إيلامًا لبينبريدج من المشقة والرائحة الكريهة التي عمت السفينة، فقال: «هذا الخزي والعار يجعلانني أفكر في الكلمات الولايات المتحدة المستقلة»، ثم أقسم ألا يحمل قط أي إتاوة إلى الجزائر «إلا إذا سمحوا لي بتسليمها من فوهات مدافعنا».

استغرقت الرحلة إلى إسطنبول ثلاثة أسابيع، وكانت — كما كتب بينبريدج — «أسوأ ما يكون»، لكن أفراد طاقمه كانوا يجدون شيئًا من الراحة في تغيير اتجاه السفينة أثناء صلاة المسلمين، ويضحكون على المصلين في سجودهم وهم ينزلقون على سطح السفينة، ويجاهدون للمحافظة على توجههم ناحية القبلة، لكن هذا الضحك توقف عندما غادرت السفينة بحر إيجة ودخلت ممر الدردنيل المحصن تحصينًا قويًّا، وبسبب عدم وجود «فرمان» معهم يسمح لهم بالمرور، تفتق ذهن بينبريدج عن فكرة ذكية، إذ أمر بإطلاق ثماني طلقات كتحية مدفعية، ثم انتظر أن ترد القلعة التحية، وعندها في ظل الدخان والاضطراب السائد، مر بالسفينة عبر بحر مرمرة، نحو عاصمة الإمبراطورية، أو القسطنطينية، كما كان الغربيون لا يزالون يصرون على تسميتها أمامه، وبذلك أصبح بينبريدج أول عسكري أمريكي تقع عيناه على مركز حكم العثمانيين.[١]

كان ذلك مشهدًا رائعًا للغاية بكل المقاييس؛ فقد كان يحمل مزيجًا من القباب والمآذن والقلاع اللامعة، ولكن مع كل هذه العظمة الظاهرة فقد كانت البنية الأساسية تنخر فيها عقود كاملة من الفساد وسوء الحكم والإدارة، وكان السلطان الشاب سليم الثالث قد قام بمبادرات لوضع حد لهذا التدهور عن طريق قيامه بإصلاحات واسعة، ومحاولته تحديث جيشه، فطالب ضباطه بتعلم الفرنسية، وتشاور مع خبراء أوروبيين، من بينهم ضابط مدفعية بارع اسمه نابليون بونابرت. رد نابليون مجاملة سليم الثالث بغزو مصر في يوليو/تموز ١٧٩٨، ثم زحف على السواحل السورية في أكبر عملية غزو أوروبية للمنطقة منذ الحملات الصليبية. وفي ظل غارات الروس والنمساويين

والبريطانيين التي حاصرت الدولة العثمانية من كل جانب، واستغلال التجار الأوروبيين للامتيازات الأجنبية التي منحها لهم الباب العالي، لم تكن إسطنبول ترحب بالغربيين.

ومع ذلك فقد كان بينبريدج مواطنًا تابعًا للدولة الغربية الوحيدة التي يكن لها العثمانيون احترامًا، فقد كانوا يرون الولايات المتحدة مملكة على جزيرة منعزلة نجحت في التحرر من الحكم الأوروبي، ولم تطمع قط في أراضي العثمانيين. وكان العثمانيون قد شاهدوا العلم الأمريكي ذا الخطوط والنجوم مرة واحدة فقط على صارية سفينة فرنسية زائرة يوم الاحتفال بذكرى سقوط الباستيل عام ١٧٩٣، ولكن هذه النظرة الوحيدة دام أثرها طويلًا. والآن عندما شاهدوا نفس العلم على صارية السفينة جورج واشنطن، وهي تشق طريقها عبر نقطة سيراجليو، قيل إن السلطان شبّه نجوم ذلك العلم «بالأجرام السماوية» الموجودة على الراية التركية، واستخلص من ذلك أن الدولتين مرتبطتان فلكيًّا.[٢]

لذلك كان استقبال إسطنبول لبينبريدج وديًّا، بل أخويًّا، فاسْتُدْعِيَ إلى قصر قائد البحرية العثمانية وشقيق زوجة السلطان، وهناك أبهر القبطان مستمعيه بقصص في وصف بلاده. وبسبب هذا الانبهار وبتأثير هذا الانطباع الجيد، كتب قائد البحرية العثمانية إلى ويليام لوتون سميث William Loughton Smith — أول مبعوث أمريكي يوفد إلى الباب العالي — يصف له مدى سعادته لاستضافة القبطان الأمريكي وسفينته، ومعبرًا عن أمله في زيارات مماثلة في المستقبل، ثم أغدق على بينبريدج الهدايا، ووافق على طلبه بإلغاء حكم إعدام الضابط المسئول عن مضيق الدردنيل، الذي سمح للسفينة الأمريكية بالمرور، وقدمت تحية ملكية للسفينة جورج واشنطن عند خروجها من المضيق عائدة إلى موطنها محاطة بكل حفاوة.

ولكن الحفاوة التي قوبل بها بينبريدج في إسطنبول لم تخفف وطأة الإهانة التي تعرض لها في الجزائر، ولم يهدأ غضبه حتى بعد عودته إلى الولايات المتحدة وحصوله على وسام الشجاعة، وقال بينبريدج محنقًا: «آه لو أدرك الأمريكيون ضعف القراصنة، إذن لاختاروا الحرب بلا شك، فأنا واثق أنهم ما كانوا ليستمروا في دفع الإتاوة لهؤلاء الكفرة الدنيئين!»[٣]

محنة وانتصارات

لم يكن بينبريدج وحده يشعر بالغضب، فحسب قول وزير الخارجية جيمس ماديسون، «أثرت صفاقة الداي كثيرًا في مشاعر» الشعب الأمريكي، ورئيسه الجديد، توماس جيفرسون.

ففي الأعوام الخمسة عشر التي تعامل فيها جيفرسون مع هذه القضية، كان موقفه من دول البربر ثابتًا لا يتغير، فقال: «لا نهاية لمطالبهم، ولا أمان لوعودهم مطلقًا.» واستمر على إيمانه بأن القوة — وليست الإتاوة — هي الرد الذي يحفظ لأمريكا كرامتها ومالها، ثم أعلن أنه «عدو لكل تلك الرشاوى والإتاوات والمذلة»، وأقسم كرئيس ألا يرضخ للابتزاز بعد ذلك أبدًا، بل قرر «إرسال سفن أمريكية إلى سواحل شمال أفريقيا» وإرسال «البارود والرصاص اللازمين لتأديب الجزائريين».

ومع ذلك، ولأنه رجل المتناقضات على الدوام، فقد تولى جيفرسون منصب الرئاسة داعيًا إلى انعزال أمريكا عن الشئون الدولية، ومكررًا معارضته للمواجهات العسكرية، ثم أخرج عددًا من سفن الأسطول من الخدمة، وخفض أعداد الضباط العاملين عليها، والغريب أنه ظل يتطلع إلى تكوين تحالف دولي ضد البربر، والعمل «بالتناوب» مع القوى الأوروبية لتخليص البحر المتوسط من القراصنة.

ولكن الأوروبيين لم يتخلوا قط عن نفورهم المبدئي من فكرة التحالف التي طرحها جيفرسون، وفي تلك الآونة تضاعفت «إهانات شمال أفريقيا»، كما كان الرئيس يطلق عليها؛ فقد استولت طرابلس على السفينتين الأمريكيتين كاثرين Catherine وفرانكلين Franklin وطالبت بزيادة الإتاوة بمقدار١٠٠٠٠٠ دولار، وطالبت تونس أيضًا بالمزيد؛ أربعين مدفعًا و١٠٠٠٠ بندقية وسفينة تحمل ٣٦ مدفعًا، ولخص جيمس كاثكارت القنصل الأمريكي في تونس، الموقف بتأكيده على أن «شراء السلام مع طرابلس معناه الحرب مع تونس». وكان الخيار القائم أمام الولايات المتحدة آنذاك بسيطًا للغاية؛ فإما أن تتخلى تمامًا عن التجارة عبر البحر المتوسط، أو تستعد للحرب من جانب واحد.[٤]

واختار جيفرسون الحرب، ولكن هذا الاختيار واجهته عقبة قانونية كبيرة، فإن دستور الولايات المتحدة — الذي كان الرد على تهديدات البربر من بين أسباب وضعه — يجعل إعلان الحرب من حق الكونجرس فقط، وليس الرئيس، ولأنه لم يكن واثقًا من اتخاذ الكونجرس لمثل هذا القرار، قرر جيفرسون أن يتخطى المجلس التشريعي بإصدار أمر ببدء عملية إحكام للسيطرة، وهو ما يكاد يكون إعلانًا للحرب، وبناءً على ذلك صدرت أوامر للبحرية بتنفيذ الاتفاقيات القائمة مع شمال أفريقيا، ولكن مع الرد على أي اعتداء للقراصنة بـ«حرق سفنهم أو إغراقها أو تدميرها».

وقد أرسى جيفرسون سابقة للرؤساء الأمريكيين بالتفافه حول الكونجرس وتحايله عليه بالموافقة على القيام بعملية عسكرية في الشرق الأوسط، ولكن في حالته لم تكن هذه المناورة ضرورية، فبينما كان جيفرسون يتخذ قرار التحرك، اشتعل التوتر مع طرابلس، فقد حذر يوسف قرمنلي باشا القنصل الأمريكي كاثكارت بأن «التباطؤ في

دفع المستحقات التي تدينون بها لن يكون في مصلحتكم». وفي ١٤ مايو/أيار ١٨٠١ سارت جيوش قرمنلي نحو القنصلية الأمريكية، وحطمت سارية العلم، وهي طريقة طرابلس التقليدية في إعلان الحرب، وهكذا أُعلنت الحرب رسميًّا على الولايات المتحدة لأول مرة منذ حصولها على الاستقلال.[٥]

لم تنتظر الولايات المتحدة وقوع أي عدوان آخر من طرابلس، بل أرسلت فيلقًا إلى الشرق الأوسط على وجه السرعة، ووصلت البوارج إسيكس Essex وبريزيدنت President وفيلادلفيا Philadelphia مع القارب إنتربرايز Enterprise الذي يحمل اثني عشر مدفعًا إلى جبل طارق، حيث حاصرت السفينة ماشودا Mashuda — السفينة المنكوبة بتسي سابقًا — في الميناء، ثم عبرت البحر المتوسط لحصار ميناء طرابلس وإطلاق بضعة قذائف على المدينة «لإمتاع» قرمنلي، وفي أثناء تلك العمليات صادفت السفينة إنتربرايز السفينة طرابلس، وهي من سفن العدو تحمل أربعة عشر مدفعًا، وعندئذ لجأت إنتربرايز إلى حيلة كانت تعد في ذلك الوقت مقبولة في الحروب البحرية، فرفعت علم بريطانيا، واقتربت حتى أصبحت سفينة العدو في مرمى نيرانها، وفجأة رفعت العلم الأمريكي، وأمطرت السفينة طرابلس بوابل من الرصاص، فمزقت أشرعتها وقطعت حبال صواريها، ثم اقتحمت فرقة من طاقم إنتربرايز بقيادة القبطان ديفيد بورتر سفينة القراصنة وألقت حمولتها وأسلحة طاقمها في البحر، وجردوا قبطانها الريس محمد سوس من سيفه، وسمح للسفينة طرابلس بالعودة إلى ديارها، حيث جُلِدَ سوس علنًا، وأُلقيت عليه القاذورات، ومن بين طاقمه البالغ ثمانون بحارًا، جرح ثلاثون وقتل ثلاثون، ولم يصب أمريكي واحد.[٦]

كانت أول مواجهة أمريكية في الشرق الأوسط نصرًا ساحقًا للأمريكيين، لكنه كان نجاحًا قصير الأمد للغاية، لم يجد قباطنة طرابلس بأسطولهم وسفنهم ذات الغاطس قليل العمق مشقة في تجاوز الحصار في الميناء، وحتى السفينة ماشودا فرت من الحصار، وأذهل ذلك قائد الفيلق ريتشارد ديل Richard Dale، المحارب المحنك الذي أسر مرتين وأصيب ثلاث مرات في حرب الاستقلال، والذي أبحر تحت قيادة جون بول جونز. لعن ديل «أهل شمال أفريقيا جميعًا؛ الجزائريين والتوانسة وأهالي طرابلس»، ولم ير وسيلة لحماية التجارة الأمريكية غير الاحتفاظ بقوة أمريكية دائمة في البحر المتوسط، تتكون من أربع بوارج على الأقل، وإلا فلن يكون أمام الولايات المتحدة خيار سوى اللجوء مرة أخرى للرشوة.

صاح جيفرسون عصبي المزاج في مجلس وزرائه ووجهه يزداد احمرارًا: «هل نشتري السلام؟» وأدرك أن الانتصار لا يمكن أن يتحقق دون أسطول أكبر بكثير،

ولكن ذلك كان يتطلب إعلانًا للحرب، وهو دور الكونجرس الذي كان في نية الرئيس أن يتحاشاه من البداية، ولكن المدهش أن الكونجرس كان متجاوبًا، فقال نائب فيرجينيا جون ستراتون John Stratton: «أنا مقتنع تمامًا أن مواطنينا المشتغلين بالتجارة لهم نفس الحق في الحماية مثل المزارع الذي لا يغادر موطنه ويقيم بمزرعته.» وفي ٦ فبراير/شباط ١٨٠٢، أصدر الكونجرس قانونًا بحماية تجارة الولايات المتحدة وبحارتها ضد قراصنة طرابلس، وكان هذا القرار بمثابة إعلان فعلي للحرب.[٧]

زاد حجم الفيلق ليصبح خمس بوارج وسفينة، وجرى تدعيمه بفرقة من الجنود، وسُمح له باستخدام «كل قوته لإبقاء سفن العدو في موانئها، وأن يهاجم أي سفينة تحاول الفرار ويستولي عليها»، ولكن كانت هذه المحاولة محكومًا عليها بالفشل، تمامًا مثل المحاولة الأولى ضد طرابلس. لاحت نُذُر هذا الفشل في ليلة ٢٥ مايو/أيار، عندما غرق أحد عشر قاربًا محملًا بالقمح على ساحل طرابلس، وتمكن فريق بقيادة الضابط بورتر من إضرام النار في نصف القوارب وتشتيت طاقمها غير المدرب. وقال ضابط البحرية هنري وادزورث Henry Wadswoth، عم الشاعر لونجفيلو Longfellow: «لا بد أن أعترف أنه كان تدريبًا جيدًا.» ولكن الطرابلسيين تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، وأطلقوا نيرانًا كثيفة أصابت بورتر في فخذيه، وخلفت خمسة عشر قتيلًا من البحارة، وهكذا سقط أول ضحايا أمريكا في القتال بمنطقة الشرق الأوسط دون أن تحرز أمريكا نجاحًا يذكر.

وظلت سفن طرابلس تتجنب البوارج الأمريكية، أو تسرع نحو الشاطئ إذا أصبحت على مرأى منها بحثًا عن الأمان تحت مدافع المدينة. وكان إحباط الأمريكيين قد زاد بسبب قائدهم ريتشارد موريس Richard Morris، الذي كان يبدد شطرًا كبيرًا من وقته على موائد العشاء مع الضباط البريطانيين في جبل طارق، بصحبة زوجته وابنه، وبدلًا من حشد قواته للقيام بهجوم منظم، وصل موريس إلى شواطئ طرابلس وهو يلوح بعلم أبيض (رمزًا للاستسلام) و٥٠٠٠ دولار رشوة للباشا.

كان يوسف قرمنلي — الذي وصفه كاثكارت بأنه «رجل حثالة فاقد لأي إحساس بالشرف» — حاكمًا قاسي القلب، استولى على السلطة بقتل أحد أخويه ونفي الآخر، ولم يكن رضاؤه يشترى بثمن بخس، ولم يكن من السهل إخافته، وقد قال لموريس «إنني لا أخشى الحرب، فهي مهنتي». وكان الباشا قد توصل إلى أن الأمريكيين لا يختلفون عن الأوروبيين في شيء، وأنهم «سيتحدثون كثيرًا، ولن يفعلوا شيئًا، وسيأتون في النهاية خاضعين، طالبين السلام حسب شروطي أنا»، ولذلك طالب الولايات المتحدة بهدايا قيمتها ٢٠٠٠٠٠ دولار، بالإضافة إلى ٢٠٠٠٠ دولار تدفع سنويًا، وذهل موريس

من هذه المطالب الضخمة، وخشي أن يقبض عليه قرمنلي ويطالب بفدية مقابل إطلاق سراحه، فهرب إلى سفينته، ولكن البحرية الأمريكية حاكمته عسكريًّا بسبب «سلوكه السلبي العشوائي» وجردته من رتبته.[٨]

كان جيفرسون قد أقسم أن «يعتمد أمان تجارتنا على ... قوتنا وشجاعتنا في البحار»، لكن مثل هذه الوعود كانت تبدو جوفاء عام ١٨٠٣. شجع تحدي طرابلس للولايات المتحدة تونس والجزائر أيضًا، فرفعتا مطالبهما بالإتاوة، وأعلنت المغرب أيضًا الحرب فجأة على الولايات المتحدة. ونصح روفوس كينج Rufus King — مبعوث أمريكا إلى بريطانيا — حكومته قائلًا: «لا بد أن يكون أمننا في مواجهة البربر قائمًا على القوة وليس على المعاهدات؛ على السفن الحربية وليس على الهدايا والمساعدات.» ووافقه جيفرسون على ذلك بكل تأكيد، لكنه كان مثقلًا بالديون بسبب شراء ولاية لويزيانا من فرنسا، وكان الاحتفاظ ببارجتين فقط في البحر المتوسط يمثل عبئًا ماديًّا، ناهيك عن شن هجوم شامل.

كان الرئيس يتمتع بميزة واحدة هامة؛ وهي القائد الجديد لأسطوله إدوارد بريبل Edward Preble، كان بريبل ضابطًا بحريًّا صارمًا في الثانية والأربعين من عمره من مدينة مين Maine، وكان مهووسًا بالانضباط والنظافة، ولم تؤثر الأمراض العديدة التي أصيب بها في سفينة سجن بريطانية أثناء الثورة في مظهره القوي، أو شعره الأحمر النارى وأنفه المخلبي، أو رغبته في مواجهة القراصنة. قال بريبل «إن البربر شرذمة من الأوغاد الخبثاء المخادعين الخونة»، وأقسم «أن يضرب ... صاحب السمو البربري» الباشا «حتى نصل إلى وضع أكثر ملاءمة لوجهة نظرنا من الوضع الحالي».[٩]

كان ويليام بينبريدج يبحر تحت قيادة بريبل، وبينبريدج هو قبطان السفينة جورج واشنطن عاثر الحظ الذي تعافى من آثار الخزي الذي تعرض له في الجزائر ليقود واحدة من أفضل البوارج الأمريكية، وهي السفينة فيلادلفيا Philadelphia التي تحمل ٣٦ مدفعًا، وبعد دخول البحر المتوسط بقليل عام ١٨٠٣ اشتبك بينبريدج مع السفينة المغربية مركوبة، التي ثبت عند معاينتها أنها البارجة الأمريكية المسلوبة سيليا Celia، وطاقمها مقيد بالسلاسل في باطن السفينة. وكتب القبطان في تقريره أنه «يتمنى أن يحقق هذا الأسر نتائج طيبة لمصلحة الولايات المتحدة»، مؤكدًا على «التسامح» و«الإنسانية» اللذان يجدهما الأسرى المغاربة «لترك انطباع طيب في نفوسهم عن الشخصية الأمريكية».

وفي غضون ذلك ألقى بريبل مرساته في ميناء طنجة وطلب مقابلة الإمبراطور، وعندما اقترب منه دون أن ينحني له أو يخلع سيفه سأله سليمان: «هل تخشى الأسر؟»

فأجاب بريبل: «لا، وإذا أقدمت على ذلك فإن سفني ... ستدمر مدفعيتكم وقلاعكم ومدينتكم بأسرها»، وفي الحال وافقت المغرب على تجديد اتفاقية عام ١٧٨٦ دون قيد أو شرط.

بدت رحلة بريبل مبشرة بالنجاح في بدايتها، ولكنها — مثل العمليات السابقة — انتهت أيضًا بالهزيمة، فبعد ظهر يوم ٣١ أكتوبر/تشرين الأول، وأثناء مطاردة مركب طرابلسي صغير بالقرب من الشاطئ، ارتطمت فيلادلفيا بحاجز صخري وغرقت، وبُذلت جهود محمومة لتحريك السفينة — بقطع الصاري الأمامي أو إلقاء المعدات في البحر — أو إغراقها، ولكن بلا جدوى، وقرر بينبريدج الاستسلام عندما وجد مدافعه مثبتة في زوايا غير فعالة، ورأى تسعًا من سفن العدو تقترب، وجرى تجريده و٣٠٧ من رجال طاقمه من ملابسهم الرسمية، وتُركوا يرتعدون بردًا خارج مبنى القنصلية الأمريكية السابقة، في حين نجح المنتصرون في سحب السفينة فيلادلفيا إلى الميناء باستخدام حبال غليظة، وتباهى قرمنلي بإضافة هذه السفينة إلى بحرية طرابلس وأُعيد تسميتها هبة الله.

وكتب بينبريدج إلى وزير البحرية قائلًا: «بعميق الأسى والأسف أبلغكم خسارة الولايات المتحدة للبارجة فيلادلفيا»، معلنًا بذلك أسوأ كارثة حربية أصابت الولايات المتحدة منذ الثورة، وتذكر بينبريدج المهانة التي تعرض لها في رحلته الأولى إلى الشرق الأوسط، وكيف أن «الاستسلام لأي عدو مهانة ... ولكن الاستسلام لعدو همجي ... خزي». إلا أن موقف بريبل كان أكثر شراسة وعدوانية، ففي رسالة مكتوبة بالحبر السري المصنوع من عصير الليمون ألحّ بينبريدج على قائده ألا يسمح لطرابلس بأن تهنأ بتلك الغنيمة وأن يدمر السفينة فيلادلفيا على الفور.[١٠]

لم يكن بريبل بحاجة إلى إقناع، «أدعو الله أن يكون الجنود والضباط ... قد عقدوا العزم جميعًا على استحباب الموت على العبودية»، لذلك أعد خطة جريئة؛ حيث يبحر الأمريكيون على متن سفينة طرابلسية صغيرة — استولوا عليها حديثًا — نحو الميناء، ثم يصعدون بهدوء إلى سطح السفينة فيلادلفيا ويشعلون فيها النار، واختار بريبل لقيادة هذه العملية ابن أحد أبطال البحرية الأمريكية، وهو ضابط شاب وصفه أحد زملائه بأنه «يتحلى بروح الفرسان، وسلوكه مهذب للغاية، ويجمع إلى شخصيته الجذابة دماثة الخلق»، وكان اسمه ستيفن ديكاتور Steven Decatur.

كان له أنف رفيع رقيق، وفم جذاب، ورموش طويلة مقوسة، مما جعل ديكاتور يبدو شاعرًا أكثر منه مقاتلًا، ومع ذلك فقد اشتهر منذ طفولته بشجاعته وقوته البدنية، عندما دافع — فيما يقال — عن أمه ضد مجموعة من المجرمين، وكان قد قتل ضابطًا

إنجليزيًّا في مبارزة بجزيرة مالطا في أوائل ذلك العام، واضطر إلى الهروب من الجزيرة، والآن — في سن الخامسة والعشرين — كان ديكاتور يخدم على السفينة إسيكس Essex، عندما تلقى أوامر بريبل بقيادة الحملة، وحين طلب متطوعين قال: «نحن الآن على وشك البدء بحملة قد تنتهي بموتنا أو عبوديتنا الدائمة، أو مجد خالد.» وتطوع الطاقم بأكمله.

في التاسعة والنصف من ليلة ١٦ فبراير/شباط ١٨٠٤، والقمر لا يزال هلالًا، بدأ ديكاتور حملته، وكان معه على المركب الصغيرة التي أعيد تسميتها إنتريبيد Intrepid سبعة وستون متطوعًا يرتدون زي البحارة المالطيين، وكان في مواجهتهم مدافع السفينة فيلادلفيا التي تطلق قذيفتين في المرة الواحدة، ومدفعية طرابلس بأكملها، وهو ما وصل في مجموعه إلى ١٥٠ مدفعًا.

وبمساعدة بحار يتحدث العربية، تمكنت إنتريبيد من التوغل في الميناء والإسراع نحو فيلادلفيا، ثم همس ديكاتور بأمر الصعود إلى السفينة، واجتاح المتطوعون السفينة بسرعة، وقتلوا عشرين من حراسها، وأشعلوا فيها النيران، وصاح حراس طرابلس: «الأمريكيون!» ولكن صيحاتهم جاءت بعد فوات الأوان، لأن النيران كانت قد أشعلت مدافع السفينة التي انطلقت قذائفها نحو المدينة، وبعد ذلك بعشرين دقيقة تطلع ديكاتور ورجاله بانبهار إلى النيران وهي تلتهم السفينة، وروى أحد البحارة «أن النيران ... كانت تمسك بحبال الأشرعة والصواري، فتتكون أعمدة من النيران، في حين كانت قذائف مدافعها توحى بأن روحًا توجهها».[١١]

أشادت أوروبا بأسرها بهذه العملية، ووصفها اللورد نلسون Lord Nelson البريطاني بأنها «أكثر العمليات جرأة في هذا العصر»، وقال البابا بيوس السابع Pius VII إن البحرية الأمريكية «قدمت للمسيحية أكثر مما قدمته أقوى الدول في العالم المسيحي في قرون طويلة». ولكن على الرغم من شجاعة ديكاتور كان لا يزال أمام بريبل مهمة استعادة بينبردج وطاقمه، فالرجل الذي تعهد ذات مرة «بأن يقضي حياته في البحر المتوسط» بدلًا من «أن يدفع سنتًا واحدًا إتاوة أو ثمنًا للسلام» كان يعرض على الباشا الآن مبلغًا ضخمًا مقداره ١٠٠٠٠٠ دولار لافتداء الأسرى، لكن قرمنلي سخر من العرض، وطالب بأكثر من ١,٥ مليون دولار مقابل إطلاق سراح الأسرى.

استأنف بريبل هجومه شاعرًا بالخزي والغضب، فقصف ميناء طرابلس وأغار عليه، وفي حركة موحدة جريئة قام ديكاتور وخمسة عشر من رجاله مسلحين «بالخناجر والحراب والسيوف والبلطات» باختراق صفوف العدو وصعدوا إلى سفنه، ومع أن ديكاتور أصيب بحربة في ذراعه، فقد أطلق النار على أحد قباطنة القراصنة وراوغ قرصانًا آخر

حاول أن يضرب عنقه؛ ولكن أخاه — الذي كان أيضًا ضابطًا بحريًّا — كان أقل حظًّا منه ولقي مصرعه إثر إصابته بطلق ناري في رأسه، وبنهاية اليوم كان الأمريكيون قد قتلوا ٤٧ طرابلسيًّا، وأسروا ٥٦ منهم، وقال ديكاتور: «مات بعض المسلمين كالرجال، ولكن العدد الأكبر منهم مات كالنساء.» إلا أن بريبل أطفأ نيران حماسه، فعندما علم أن ديكاتور استولى على ثلاث سفن حربية «فقط» وبَّخه قائلًا: «ثلاث فقط؟ وأين الباقي؟»

كان لدى بريبل سبب وجيه للغضب؛ فبعد ستة أشهر وآلاف من طلقات المدافع، ظلت طرابلس على حالها، ويقول د. جوناثان كاوديري Dr. Jonathan Cowdery، الجراح الأسير الذي كان على متن السفينة فيلادلفيا، في ملحوظة له إن «هذه المحاولات شجعت الطرابلسيين، بدلًا من أن تردعهم». وفي تلك الأثناء كانت حصة السجناء الأمريكيين اليومية من الغذاء قد انخفضت إلى «ثمانية أوقيات من الخبز، وقليل من الزيت الرديء»، وتكرر ضربهم وجرهم إلى الصحراء للعمل هناك، وتضاءل الأمل في انتشالهم من محنتهم في ٧ أغسطس/آب، عندما عزل بريبل من القيادة، فقال تعليقًا على ذلك: «يؤسفني أن مؤسستنا البحرية محدودة الموارد لدرجة أن تحرمني من وسائل تساعدني على إخضاع الدكتاتور الطرابلسي المتغطرس وتحرمني من المجد المرتبط بذلك.» ولكن قبل رحيله صمم بريبل على القيام بمحاولة أخيرة يائسة من أجل تحقيق النصر.[١٢]

كانت إنتريبيد تحمل الآن ١٥٠٠٠ كيلو من البارود وكانت مشحونة بالقذائف العنقودية والمتفجرات، وكان أحد أصدقاء طفولة ديكاتور، وهو الكابتن ريتشارد سومرز Richard Somers، بالإضافة إلى ضابطين آخرين، هما وادزورث وجوزيف إسرائيل Joseph Israel، وعشرة من البحارة، قد تطوعوا لقيادة السفينة إلى الميناء، وكانت الخطة أن يشعلوا فتيلًا ثم يهبطوا إلى مركب تجديف صغير، ويهربوا قبل أن تنفجر السفينة وتدمر أسطول الباشا.

في ليلة غير مقمرة يغلفها الضباب يوم ٣ سبتمبر/أيلول شاهد الفيلق إنتريبيد وهي تختفي عن الأنظار، وظلوا يحدقون في الظلام لمدة ساعتين، حتى شق الأفق انفجار «مدو وهائل». ووصف أحد شهود العيان، وهو البحار روبرت سبنس Robert T. Spence، رؤيته للقذائف تضيء الظلام «كأنها عدة كواكب» ثم «ألسنة من اللّهب ... ترتفع إلى عنان السماء». انفجرت إنتريبيد لأسباب مجهولة قبل أن تصل إلى هدفها وقتل كل من عليها. في صباح اليوم التالي كان بينبريدج يعرج جراء جرح أصيب به، ومع ذلك فقد ذهب إلى الشاطئ لرؤية الجثث المتفحمة والأشلاء، وتوسل للباشا للسماح له بدفنهم، لكن طلبه رفض، وأصر الباشا على أن تترك الجثث للكلاب.

وكتب سير ألكسندر بول Alexander Ball، الحاكم البريطاني لمالطا، رسالة إلى بريبل، قائلًا: «لقد أحسنت بعدم شراء السلام مع الأعداء»، ولكن ذلك لم يكن ليعزي القائد، فقد كان لا يزال حزينًا على النصر الذي ضاع من بين يديه، وبسبب تفكيره المستمر في الأسرى الأمريكيين في طرابلس، ومع ذلك فقد كان بريبل من وجهة نظر الشعب الأمريكي بطلًا، وفاقت الاحتفالات التي استُقبِل بها عند عودته إلى واشنطن في يناير/كانون الثاني عام ١٨٠٥ احتفالات إعادة تنصيب الرئيس جيفرسون لفترة ثانية، التي تصادف إقامتها في نفس اليوم، وجرى الاحتفال أيضًا بديكاتور، ومنحه سيفًا ذهبيًّا، وترقيته إلى رتبة «قبطان»، وكان أصغر قبطان في البحرية الأمريكية.[١٣]

على أن التكريم وحده لم يخف حقيقة أن الولايات المتحدة خاضت حربًا في الشرق الأوسط، وفشلت في تحقيق النصر حتى ذلك الوقت، ولم يكن لديها أي عذر مقبول لذلك الفشل، لأن بحريتها أصبحت تمتلك عددًا من السفن الحربية يكفي لهزيمة كل أساطيل القراصنة مجتمعة. وأكد ماديسون أن «السلام مع طرابلس كان لمدة طويلة حسب شروطنا وفي نطاق سلطتنا»، ولكن أعضاء آخرين بارزين في الحكومة ظلوا على ترددهم بشأن استخدام قوة الأسطول. ورأى وزير الخزانة ألبرت جالاتين Albert Gallatin السويسري المولد أن دفع رشوة إلى القراصنة سيلحق بالولايات المتحدة «الخزي الذي لحق بكثير من الدول التي لا تقل قوة واهتمامًا بالأمر عنها»، مفضلًا ادخار الـ ٩٠٠٠٠٠ دولار لصيانة الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط. وظل الرأي العام أيضًا على انقسامه بشأن اللجوء إلى القوة، مع عدم ثقته بالتكلفة النسبية لخوض حرب أو شراء سلام.

أصبح نقص الدعم والمساندة للتحرك العسكري داخل الحكومة وبين الأمريكيين عامة همًّا ثقيلًا يجثم فوق صدر جيفرسون، وعندما بدأ مدة رئاسته الثانية اعتبر أزمة الشرق الأوسط على رأس أولويات السياسة الخارجية الأمريكية، فكتب يقول إن فقدان السفينة فيلادلفيا «كان أخطر أزمة واجهت الإدارة الحالية» وإنه «وصمة في جبين الولايات المتحدة» تهدد بكشف ضعفها أمام العالم أجمع، أما أكثر ما كان يؤرق جيفرسون فهو جهود الدبلوماسيين الأمريكيين في أوروبا، الذين آلوا على أنفسهم أن يطالبوا بمساعدات فرنسية وروسية وحتى عثمانية لافتداء الأسرى الأمريكيين، فقد كان جيفرسون يخشى أن يؤدي هؤلاء المبعوثون — عن طريق «استجداء الأموال من كل دولة» — إلى حرمان الولايات المتحدة من «رغبتها المشروعة في الانتقام» وأن يجعلوا «شرفها في الحضيض»، ومن أجل تفادي هذه الكارثة كان على الرئيس أن يسمح للبوارج الحربية بضرب المدن الجزائرية وتدميرها تمامًا، لكن التفويض الشعبي للقيام بذلك لم يكن في متناول يديه بعد.[١٤]

ولكن كان هناك أمريكي واحد لم يؤثر فيه غياب الحماس الشعبي لاستخدام القوة، وهذا الرجل هو ويليام إيتون، كان إيتون قد تعلم من خلال عمله كقنصل لأمريكا في تونس أن دفع إتاوة للقراصنة لا يثمر سوى الخزي والعار، ويغري القراصنة بطلب المزيد، وعلمته أن القوة هي الشيء الوحيد الذي يحترم في الشرق الأوسط، وأنه ليس أمام الولايات المتحدة خيار عدا القوة إذا أرادت تحقيق السلام.

البطولة الجديدة

يبدو إيتون ذا ملامح رقيقة راقية شبه مثالية، ومع ذلك فقد وصفه أحد معاصريه بأنه «يشبه كلب بولدوج كبير في مظهره وشخصيته»، وقد ظهرت نزعته العدوانية منذ كان في السادسة عشرة من عمره عندما هرب من مزرعة والده في كونيتيكت ليقاتل في الجيش، ثم التحق بجامعة دارتموث حيث درس اللغتين اللاتينية واليونانية، وحفظ حملات قيصر والإسكندر الأكبر، واكتسب إلى جانب ذلك مهارة في رمي السكاكين فكان يصيب هدفه بدقة من مسافة ثمانين قدمًا، وكان يحلم بالعودة في يوم من الأيام إلى ساحة المعركة، واعترف لأرملة كان يواعدها: «لن يحبك أحد كما أحبك أنا، لكنني أوثر ميدان مارس (إله الحرب) على جنة فينوس (إلهة الحب والجمال)». تطوع إيتون مرة أخرى في الجيش، وأصبح نقيبًا تحت قيادة الجنرال «أنتوني واين المجنون» في الحرب ضد الهنود في أوهايو.

كان إيتون يعتبر نفسه «رجلًا لا يتسم بالخنوع، أو المبالغة في الورع ... أو السذاجة»، لكنه كان مغرورًا يجد صعوبة في الانصياع للأوامر، وبعد تسريحه من الجيش وجد عملًا كموظف في الهيئة التشريعية لفيرمونت، وكان من الممكن أن يخبو نجمه، لولا علاقة عائلية كانت تربطه بتيموثي بيكرنج Timothy Pickering وزير خارجية جون آدامز، ففي عام ١٧٩٩ اختاره بيكرنج ليكون أول قنصل أمريكي في تونس، وهي مهمة كانت تبدو مناسبة لشخصيته تمامًا.[١٥]

كان إيتون يحمل في ذهنه أفكارًا خيالية عن الشرق الأوسط مثل سلفه جون ليديارد، وقد أقسم أن يظل على إيمانه «برب واحد» وأن يمحق «فكرة أن المسيحيين والمسلمين أعداء طبيعيون»، وكانت أوامره تقضي بمساعدة التونسيين على التحول من القرصنة إلى مهن سلمية كالزراعة مثلًا، ومع ذلك فإن الهدايا التي حملها معه إلى شمال أفريقيا، ومن بينها سفينتان حربيتان أمريكيتان، حملت للتونسيين رسالة مضادة، هي أن القرصنة مربحة. قَبِل البيك التونسي الرشوة، ثم هدد فورًا بتجديد الحرب مع الولايات المتحدة، وكان على إيتون أن يسترضيه بالكثير من الأقمشة الفخمة، والساعات

الذهبية، والعصي المرصعة بالأحجار الكريمة، وبلغت قيمة هذه الأشياء ٦٠٠٠ دولار، وفي المقابل طالبه البك بتسديد فاتورة مخزية قيمتها ٨٠٠ دولار، ثمنًا للبارود الذي اسْتُخْدِم في تحية القنصل الجديد عند وصوله!

وفي بداية عام ١٨٠٠ كتب إيتون يقول: «إن عامًا من المعاناة أطول من خلود في النعيم، ألا يكفي ما أنا فيه ليكون هو الجحيم؟» كانت هذه الفترة القصيرة كافية لمحو أية أفكار خيالية من ذهن إيتون، ولجعله مشمئزًّا للغاية، وكانت شكاواه من تونس عديدة لدرجة يصعب تصنيفها؛ «أبخرة خانقة من بحيرات راكدة، أنفاس جثث عفنة ... وشمس حارقة لا تحتمل ... أشد حرارة من التبغ والخمر ... مسلمون وحشيون، ويهود مخادعون، وإيطاليون خونة ... جمال كسولة، وبغال عنيدة، وعرب همج.» ومع أنه بذل جهدًا عظيمًا للتعرف على الثقافة المحلية، وأتقن أربع لهجات، وسافر في طول المنطقة وعرضها، فإنه لم يجد شيئًا يصون للشرق الأوسط صورته في نظره، ولخص فكرته عنه قائلًا إنه «أرض اللصوصية والشذوذ» ولا يخضع أهله «لأي وازع من شرف أو أمانة».

أما ما ضايق إيتون أكثر من كل المنغصات الحسية فكان الخجل والعار اللذين شعر بهما وهو يرى الولايات المتحدة تحول ثروتها التي جمعتها بشرف ونزاهة إلى طغاة شمال أفريقيا. وقال بعد أن علم بالإهانة التي تلقاها كابتن بينبريدج على يد الجزائريين: «هنيئًا لك يا بلادي! كم أنت مهانة!» ثم شعر بالخزي مرة أخرى عندما أعلنت طرابلس الحرب على الولايات المتحدة في مايو/أيار ١٨٠١، وعندما تكرر فشل بحرية الولايات المتحدة في حماية تجارتها، وتساءل: «ألا يوجد أمريكيون يجري في عروقهم دم حار وكرامة تؤرق نومهم عندما يهينهم القراصنة؟ هل أصبحنا نستبدل مجدنا في مقابل الأمان من قراصنة البربر؟»

اقترح إيتون ردًّا شجاعًا على أسئلته، فوضع خطة بأن يشن ألف من البحارة الأمريكيين هجومًا على تونس، ويطيحون بالبيك، ويبثون الرعب في قلوب حكام البربر الآخرين، ولكن وزير الخارجية ماديسون رفض الخطة، وأمر إيتون — بدلًا من ذلك — باسترضاء البيك بمبلغ ٢٠٠٠٠ دولار، وثار القنصل قائلًا: «ربما يجب على الحكومة أن ترسل دورًا عائمة للعبادة تتحرك في هذا البحر كبوارج حربية»، واقترح أن يتغير شعار الولايات المتحدة من نسر يسدد السهام إلى نسر يمسك «بسيجار أو قوس كمان». ولم يستطع إيتون أن يفهم سبب فشل الرئيس والكونجرس في استيعاب فكرة أن دفع الإتاوات ورفض استخدام القوة يشجع القراصنة ويزيد من الخطر الذي تتعرض له السفن الأمريكية، وكتب: «ليس هناك إلا لغة واحدة فقط يمكن التعامل بها مع تلك الشعوب، هي لغة الإرهاب».[١٦]

كان إيتون قد شارف على اليأس من تقلب الأمريكيين عندما قابل حامد قرمنلي — الشقيق المنفي لحاكم طرابلس — في سبتمبر/أيلول عام ١٨٠١، وبسبب إعجابه بشجاعة حامد ونبله، اقترح إيتون أن تساعده الولايات المتحدة على استعادة حقه في العرش، على أن يكون حليفًا تعتمد عليه في المنطقة، فتغيير نظام الحكم في طرابلس كان هو السبيل الوحيد لتمكين الأمريكيين من «استعادة شرفهم القومي بالحديد والنار وليس بالذهب» كما شرح إيتون. ولكن ماديسون، الملتزم بالمبادئ والمتردد على الدوام، تراجع عن الفكرة في آخر لحظة. فأجاب إن «للقنصل مطلق الحرية في تطبيق حماسه وحساباته فيما يخص حامدًا، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة لن تتدخل في الصراعات الداخلية لأية دولة».

استشاط إيتون غضبًا؛ فقد بدا أن الحكومة مصرة على «شراء زيت الورد لتعطير ذقن ذلك القرصان [قرمنلي]» بدلًا من «المدافع لردعه عن طيشه»، وحذر من أنه في خلال عشر سنوات ستطال غارات القراصنة المدن الساحلية الأمريكية، وسيغتصبون نساءها، ويأسرون صبيانها، ونصح المسئولين في واشنطون ساخرًا أن يبدءوا ارتداء ملابس العبيد من الآن.

ستتذكر الأجيال التالية من الأمريكيين إيتون باعتباره بطلًا ورائدًا ومتمردًا، متناسين أنه كان أيضًا مبغضًا للبشر، حاد الطباع، شديد القسوة في نقد زملائه القناصل، ومتعصبًا، فقد أساء إلى وزير الخزانة جالاتين واصفًا إياه بـ«يهودي جبان»، ووصف جيفرسون بأنه «كلب ذليل» يرتعد أمام سياط البربر،[١٧] غير أن إيتون الشرير كان شديد الدهاء في معاملاته المالية، وهي النزعة التي زادت استياء رؤسائه ومضيفيه التوانسة، وكانت هذه المكائد هي الحجة التي تذرع بها البيك لطرد القنصل، وبذلك عاد إيتون في أبريل/نيسان عام ١٨٠٣ إلى الولايات المتحدة.

لم يتنازل إيتون عن خطته لاستبدال حامد بيوسف قرمنلي، وفور وصوله إلى واشنطن بدأ يسعى للحصول على دعم الكونجرس، وأكد للأعضاء أن شعب طرابلس «هؤلاء الأطفال السمر السذج» سيلتفون حول حامد المطالب بالعرش، وفي تلك الأثناء وصلت أنباء استيلاء طرابلس على السفينة فيلادلفيا وأسر طاقمها بالكامل، وآلمت إيتون أنباءُ هذه الكارثة، فإذا كان وضع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط مذلًا قبل ذلك، فقد أصبح الآن ميئوسًا منه تمامًا.

وأخيرًا آتت حملة إيتون ثمارها في مايو/أيار عام ١٨٠٤، عندما عُيِّنَ ممثلًا للولايات المتحدة في دول البربر، وفي أول فرصة أبحر إلى مصر، التي كان حامد المنفي قد فر

إليها هربًا من أخيه، فكتب له إيتون مواسيًا: «كتب الله عليك أن تلاقي المحن، ونحن نعتقد أنه قضى أيضًا أن تنتهي متاعبك الآن.»[١٨]

لكن الحقيقة أن متاعب إيتون لم تكن قد بدأت بعد؛ فأثناء رحلته في نهر النيل برفقة الضابط بريسلي نيفيل أوبانون Presley Neville O'Bannon ومجموعة صغيرة من ضباط البحرية، واجه إيتون دوامات وغارات من البدو، وابتزاز من مسئولين عثمانيين فاسدين، وأخيرًا عثر على حامد بائسًا ومحاصرًا في مكان يطلق عليه برج العرب، على بعد نحو ١٥٠ ميلًا من القاهرة، وهناك، في ٨ مارس/آذار ١٨٠٥، جمع إيتون جيشه.

كانت القوة متباينة أشد ما يكون التباين؛ فقد كانت مكونة من ٩ أمريكيين، و٩٠ طرابلسيًّا، و٦٣ مرتزقًا أوروبيًّا، و٢٥٠ بدويًّا، وكان التسليح ضعيفًا للغاية، وعلق إيتون على ذلك قائلًا: «سأضطر إلى الاعتماد على قوة الغضب المتأصلة في العرب ... بديلًا عن مدفعية الميدان، والبنادق، والذخيرة.» جمع إيتون جنوده وقال لهم إن كل البشر سواسية في الولايات المتحدة، بصرف النظر عن عقيدتهم، ولا تمايز بينهم إلا بصدقهم وإخلاصهم، ووزع كميات كبيرة من الذهب، وكان يقول: «المال هو الرب الوحيد الذي يعرفه العرب»، ووعدهم ببذل أقصى ما في وسعه لوضع حامد في السلطة، ووعد حامدُ بدوره أنه سيقيم علاقات سلام مع الولايات المتحدة فور توليه السلطة، كما تعهد بإطلاق سراح كل الأسرى الأمريكيين في طرابلس، رقى إيتون بعد ذلك نفسه إلى رتبة «جنرال»، وارتدى حلة بيضاء فاخرة صممها بنفسه، ثم بدأ عملية لم تجل بخاطر أي قائد منذ العصور القديمة، وهي أنه بدأ زحفًا لمسافة خمسمائة ميل عبر الصحراء الغربية تحت الشمس الحارقة.

كتب يقول عن ذلك: كانت الرحلة «على الرمال الحارقة والجبال الصخرية ... عبر أكثر صحارى العالم جدبًا» مضنية حقًّا، فبعد اثني عشر يومًا قَلّت الحصة اليومية لكل فرد من الأرز غير المطبوخ (بسبب ندرة المياه) إلى النصف، ولكن البيئة القاسية والمؤن الشحيحة كانت أهون العقبات التي واجهت إيتون، فقد كانت المعارك التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين في جيشه أشد خطرًا، وهدد البدو — الذين كانوا يطالبون يوميًّا بزيادة أجورهم — بالثورة أو ترك الخدمة. وشكا إيتون منهم قائلًا: «إنهم لا يعرفون معنى الوطنية أو الحق أو الشرف، ولا ولاء عندهم إلا لما يحقق مصلحتهم.» وتبين أن حامد أيضًا مصدر إزعاج؛ فقد كان لا يكف عن الشكوى من خوفه من يوسف وعدم ثقته بالأمريكيين، وتصاعد التوتر عندما انضم حامد إلى البدو في هجوم على قافلة المؤن، ولم يوقفهم سوى صف لإطلاق النار نظمه إيتون وجنود البحرية الأمريكية.

بعد أن تغلب إيتون على كل تلك الصعاب، توجه هو وقوته وقد أنهكهم العطش إلى خليج بومبا — على بعد نحو ثلاثين ميلًا من طبرق — حيث كان من المفترض أن تنتظرهم سفينة حربية أمريكية تحمل مؤنًا، ولكن الخليج كان خاليًا. مرت أيام كاملة، وبدا موت الرجال الأربعمائة مؤكدًا، عندما حدثت المعجزة وظهر شراع فجأة في الأفق، كانت السفينة الأمريكية آرجوس Argus قد وصلت محملة بالأغذية والمياه. واصل جيش إيتون المسير غربًا نحو درنة بعد أن تجددت قواه، وهو ثاني أكبر ميناء في المنطقة، ويعد موقعًا مثاليًّا لشن الهجوم الأخير على طرابلس. وفي ٢٥ أبريل/نيسان اتجه إيتون على فرسه نحو أبواب درنة وطالب المدينة بالاستسلام، وصاح موجهًا حديثه لحاكم المدينة: «لا تدعوا اختلاف الدين يدفعنا لسفك دماء الأبرياء»، مؤكدًا له أن هدفه الوحيد هو تنصيب حاكم شرعي على العرش، وكان رد الحاكم مقتضبًا: «رأسي أو رأسك.»

لم يعد بإمكان إيتون أن يتلكأ، فقد اكتشف أن فرقة كبيرة من رجال قرمنلي تسرع إلى درنة قادمة من طرابلس، وبينما اقتربت السفن آرجوس وهورنت Hornet ونوتيلوس Nautilus من درنة وبدأت في دك حصونها، تناول إيتون سيفه وأعطى الإشارة بهجوم مباشر، قتل اثنان من جنود البحرية الأمريكية وأصيب إيتون بطلق ناري في رسغه، ومع ذلك فقد تمكن المهاجمون من اختراق الأسوار واقتحام المدينة، دارت الاشتباكات بالأيدي والأسلحة البيضاء، ولكن بعد أربع ساعات كان العلم الأمريكي يرفرف على المدينة، غير أن المعركة لم تُحْسم بعد؛ فقد ظهر ثلاثة آلاف جندي من جيش يوسف، وشنوا هجومًا مضادًّا على الفور، أوقف إيتون هجومه وخسر ٦٠ جنديًّا، ومع ذلك ظل إيتون — الذي نصب نفسه جنرالًا — على ثقة بقدرة رجاله في التغلب على الحصار واستئناف السير نحو طرابلس. وفي أواخر مايو/أيار ظهرت السفينة الأمريكية كونستليشن على مقربة من الساحل برسالة عجيبة من القائد صامويل بارون Samuel Barron مفادها أن الحكومة الأمريكية تسحب دعمها لحملة تنصيب حامد بسبب توصلها إلى اتفاق مناسب مع يوسف.[١٩]

كان جيفرسون متشككًا في جدوى تغيير قيادة طرابلس بالقوة منذ البداية، مع أنه لم يفصح عن ذلك لإيتون قط، وأثناء بحثه عن بديل دبلوماسي، لجأ الرئيس إلى توبياس لير Tobias Lear، وهو معاون سابق لجورج واشنطن يبلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا، وكان يعمل حينذاك قنصلًا في سانتو دومينجو، كان طويل الوجه ويتسم بالجدية والعملية، ولم يكن من النوع الذي يقود جيشًا من المرتزقة عبر الصحراء ليهاجم قلعة أو حصنًا للعدو، بل كان يفضل أسلوب المفاوضات بدلًا من ذلك، ويرى أن إيتون خيالي مغرور، كما كان يرى في حامد شخصًا ضعيف الشخصية غير قادر

على توقيع أي اتفاقية، ناهيك عن الالتزام بها، ففضل لير التفاوض مع يوسف فقط، مقدمًا عرضًا بتبادل مائة أسير حرب طرابلسي مقابل أسرى السفينة فيلادلفيا، ودفع «فرقًا» لطرابلس يقدر بـ ٦٠٠٠٠ دولار.

كان يوسف حينئذ مهددًا بعدو قوي رابض في درنة، فتلقى العرض بحماس بالغ، حتى إنه وافق على السماح لحامد بالعودة إلى طرابلس، إذا انسحب إيتون مع قواته، وعندما تم الانتهاء إلى هذا القرار في ٤ يونيو/حزيران ١٨٠٥، أبحرت السفينة كونستيتيوشن إلى ميناء طرابلس، وسارت إلى جانب حطام السفينة فيلادلفيا المتفحم، وحياها الطرابلسيون بإحدى وعشرين طلقة مدفع، وكان على متنها بينبريدج و٢٩٦ رجلًا من رجاله (كان ستة منهم قد قتلوا، وتحول خمسة إلى الإسلام)، وكانوا قد نالوا حريتهم بعد ١٩ شهرًا عصيبة قضوها في الأسر.

ذاع خبر الاتفاق في شمال أفريقيا بكامله، فتنازلت الجزائر عن مطالبها بإتاوة إضافية، وأكدت تونس على معاهدة الود والصداقة، وسافرت بعثة تونسية لإظهار حسن النوايا إلى واشنطن، حيث أفرطوا في شرب الخمر، والتمتع بصحبة فتاة يونانية تدعى جورجيا، واستمتعوا كثيرًا حتى إن ثلاثة منهم رفضوا العودة إلى الوطن، وفي تلك الأثناء كان النجارون الأمريكيون في طرابلس قد حولوا صاريًا من صواري السفن إلى سارية جديدة لعلم قنصلية الولايات المتحدة. كان لير سعيدًا بنتائج دبلوماسيته، وتوقع أن يكون «السلام بين أمريكا ودول البربر مشرِّفًا للغاية» لدرجة تبهر كل دول أوروبا.[٢٠]

أما إيتون فكان على عكس لير محبطًا وحزينًا، فقد قطع واحدة من أقسى الصحاري في العالم، وخاض معارك عنيفة ضد قوى كبيرة، وقضى تسعين يومًا مرتديًا نفس الزي، ليتلقى في النهاية الأمر بالانسحاب! وكان رأيه أنه من الأفضل أن تكون السفينة كونستيتوشن «مغطاة بالدم والموت عن أن تشهد بعض الأتراك الحقيرين يفوزون على طاقم من البحارة الأمريكيين»، وأنذر إيتون القائد بارون بأن قرار جيفرسون قد أضر بقوة الردع الأمريكية إلى الأبد، وأن القراصنة سيوجهون ضرباتهم مرة أخرى، وبعنف أكبر وشراسة أشد. ولكن كان لدى القائد أوامر بمغادرة درنة، فنُقِل إيتون والمسيحيون من جيشه بسفن أمريكية تحت جنح الظلام، أما البدو فيتذكر إيتون أنهم «أطلقوا اللعنات والصيحات»، وهم يدمرون ما تبقى من المعسكر.[٢١]

لم يكن إيتون ليتسامح فيما رأى أنه خيانة من لير وخدعة من جيفرسون، وقد اشتكى لأصدقائه في الكونجرس قائلًا: «الشرف ينهار والإنسانية تقطر دمًا.» واتهم الإدارة بالتواطؤ على «قتل الآباء، وقتل الإخوة، والخيانة، والغدر ... والقرصنة المنظمة»، وعلى الرغم من حدة طباعه كان كثير من أعضاء الكونجرس يعدونه بطلًا، وإحياء

لشخصية الأسد الأفريقي Leo Africanus الجغرافي الشهير الذي جاب الشرق الأوسط في القرن السادس عشر، وقد أثنى عليه القائد بريبل قائلًا: «لقد حزت شرفًا أبديًّا وأسست شهرة بلادك في الشرق.» ومع ذلك فحتى أقوى مؤيدي إيتون لم يكونوا مستريحين لفكرة إقصاء ملك شرعي، والمخاطرة بسلام واعد ومفيد.[٢٢]

نفس هذا الحس العقلاني كان هو ما حرك جيفرسون وحفزه، لقد حقق هدفه الذي سعى إليه طويلًا بتكوين قوة عسكرية قادرة على فرض إرادة الولايات المتحدة على البربر، ولكنه في نفس الوقت تعلّم أن استخدام القوة في الشرق الأوسط قد يكون محفوفًا بكثير من التنازلات الأخلاقية، فقد جرى إقصاء قرمنلي بالفعل، ولكنه حصل على الثمن، وكانت الولايات المتحدة قد أهانت أحد حكام الشرق الأوسط وأذلته، مما حقق لها كثيرًا من حرية التجارة وحفظ الكرامة، ولكن كان لا يزال عليها أن تقضي على الممارسات المنتشرة للرشاوى والإتاوات.

كانت طبيعة النصر الأمريكي المحدود واضحة في الخطاب السنوي لجيفرسون أمام الكونجرس في ديسمبر/كانون الأول ١٨٠٥، فوقف الرئيس الذي لا يخلو من المتناقضات والذي أقال من قبل عشرات من ضباط البحرية وعارض بناء البوارج يقترح توسعًا غير مسبوق في الدفاعات البحرية للبلاد، وأعلن أنه سيجري تحصين الموانئ البحرية، وتنظيم دوريات لحراسة، وأعلن أيضًا بدء حملة لتوظيف قباطنة جدد، وبناء بوارج بحرية ضخمة تحمل كل منها ٧٤ مدفعًا، وهي باكورة الإنتاج الأمريكي من هذا النوع.

كشف جيفرسون عن هذه الخطة، كما كشف أيضًا كيف خلقت «عملية قامت بها مجموعة صغيرة من رجالنا ... تحت القيادة الشجاعة للقنصل السابق إيتون» الانطباع اللازم للوصول إلى اتفاق مع طرابلس، ونتيجة لذلك أُطلق سراح الأسرى الأمريكيين، وحُرِّرَ أيضًا التجار من المشقة التي كانوا يعانونها، ومع أن الولايات المتحدة لا تزال بحاجة إلى القيام بمراقبة دقيقة للبحر المتوسط، فإن حكام البربر يبدون عامة مائلين في الوقت الحالي إلى احترام اتفاقيات الصداقة والسلام.»[٢٣]

لا شك أن كلمات جيفرسون أثارت موجة من التصفيق الحماسي، ومع ذلك فربما يكون استخدام الرئيس للمحددات اللفظية مثل «يبدو» و«في الوقت الحالي» قد أزعج كثيرًا من أعضاء الكونجرس، وربما لاحظ بعضهم أيضًا غياب أي ضمانات لسلام دائم مع شمال أفريقيا، أو لإنهاء دفع الإتاوات، بل ربما يكون بعضهم قد توقع أن البحرية الأمريكية، بعد تطويرها وتقويتها، سيتعين عليها يومًا ما أن تحارب البربر مرة أخرى.

الرصاص والبارود

في ٢٢ يونيو/حزيران ١٨٠٧ غادرت البارجة تشيزابيك Chsapeake التي تحمل ستة وثلاثين مدفعًا ميناء نورفوك بفيرجينيا في طريقها للانضمام إلى الفيلق الأمريكي في البحر المتوسط، وفور مغادرتها للمياه الإقليمية واجهت السفينة ليوبارد Leopard البريطانية التي تحمل خمسين مدفعًا، وكانت بريطانيا تحتاج مزيدًا من البحارة في حربها ضد نابليون، لذا طالبت بحق تفتيش السفن الأمريكية بحثًا عن الهاربين من الجيش البريطاني لإعادة ضمهم إلى البحرية الملكية، واقتربت ليوبارد ولكن القائد الأمريكي جيمس بارون James Barron — الأخ الأصغر لصامويل بارون — تماسك ولم يهتز، وكانت المعركة من جانب واحد فقط بصورة مخزية، فبسبب نقص فتائل الإشعال اللازمة لتشغيل المدافع، لم يتمكن الأمريكيون من إطلاق النار إلا على جانب واحد فقط من السفينة ليوبارد، قبل أن يستسلموا تمامًا.

وبسبب وقوع هذا الحادث عقب النجاحات التي تحققت في شمال أفريقيا بفترة قصيرة، كانت هزيمة تشيزابيك ضربة مؤلمة لكرامة البحرية الأمريكية والبلاد كلها. أدانت محكمة عسكرية بارون بتهمة الإهمال، وكان ضمن هيئة المحكمة ديفيد بورتر وستيفن ديكاتور، والأسوأ أن البحرية اضطرت إلى تقليص حجم فيلق البحر المتوسط من أجل تحصين السواحل الأمريكية، ومع أن جيفرسون كان يتباهى بالانتصارات الأخيرة على البربر، فقد أوصى بكل هدوء بدفع إتاوات إضافية للجزائر «من أجل ضمان السلام في تلك المنطقة عندما لا يتوفر في غيرها».

لم يكن من الغريب أن تسارع الجزائر لاستغلال الضعف الأمريكي، فهاجم القراصنة الجزائريون في فبراير/شباط ١٨٠٩ السفينة سالي Sally من فيلادلفيا، وأسروا خمسة عشر من أفراد طاقمها، وذكر البحار توماس نيكلسون Thomas Nicholson من نيوجيرسي أنهم «أطلقوا عدة قذائف باتجاهنا، ثم وثبوا على السفينة شاهرين سيوفهم، وشنوا هجومًا عنيفًا، ضربونا بلا رحمة وأصابونا إصابات بالغة ... ثم حبسونا لمدة ٤٨ ساعة بلا طعام»، ومرة أخرى ألقيت القاذورات على الأمريكيين وسيقوا في الشوارع قبل بيعهم في مزاد علني، أما من حاول الهرب منهم فقد تلقى العقاب المعروف في تلك الحالة، الذي وصفه نيكلسون قائلًا:

> كانوا يجردون الشخص من ملابسه، ثم يدخلون سيخًا حديديًّا في أسفل العمود الفقري، ويدفعونه بمحاذاة العمود الفقري حتى يظهر من بين كتفي

الشخص، متحاشين أي أعضاء حيوية، ثم كان السيخ يرفع عاليًا في الهواء ويعرض البائس على العبيد الآخرين، وهو يتلوى من عذاب لا يطاق.

كانت قدرة الولايات المتحدة على الرد على هذه الإهانات قد تدهورت تمامًا في يونيو/حزيران ١٨١٢ بسبب نشوب الحرب مع بريطانيا، وبعد ذلك بثلاثة أشهر فقط، استولى القراصنة الجزائريون على السفينة إدوين Edwin، وهي سفينة من مدينة سالم، وأسروا طاقمها المكون من ١١ بحارًا، وقال الداي الحاج علي باشا: «إن سياستي ورأيي أن أزيد — لا أن أخفض — عدد عبيدي الأمريكيين، ولن أطلق سراحهم ولو مقابل مليون دولار.» وتكرر هذا السيناريو الجزائري في كل من تونس وطرابلس، اللتين عاودتا الهجوم على السفن التجارية الأمريكية، وأعلنتا ولاءهما للتاج البريطاني.

ومع أن الولايات المتحدة كانت مسلحة بخمسين سفينة حربية، فإنها كانت تواجه الآن البحرية الملكية المكونة من ٨٠٠ سفينة، ربعها من البوارج الضخمة، ولم يكن بإمكان الولايات المتحدة توفير بارجة واحدة للبحر المتوسط، وتنبأ توبياس لير قائلًا: «لو استطعنا حل خلافاتنا مع بريطانيا بحيث نتمكن من إرسال قوة بحرية إلى هذا البحر ... فسنذل الجزائريين ونمرغ أنوفهم في التراب.»[٢٤] ولكن بريطانيا لم ترض بحل الخلافات وإنهاء الحرب، ولم يجد الرئيس جيمس ماديسون بديلًا عن رشوة القراصنة مرة أخرى.

لم يعد مبدأ دفع الإتاوة يحظى بتأييد الشعب الأمريكي، ولتنفيذ هذه المهمة البغيضة اختارت الإدارة رجلًا متميزًا هو موردخاي مانويل نوا Mordecai Manuel Noah، عندما كان موردخاي في السابعة والعشرين من عمره، كان صحفيًّا ناجحًا وسياسيًّا وكاتبًا مسرحيًّا، وكانت تربطه علاقات صداقة وطيدة مع بعض الشخصيات العامة، مثل ستيفن ديكاتور وجويل بارلو Joel Barlow، ولأنه كان من أصول برتغالية يهودية، فقد أبلى بلاء حسنًا أيضًا في دفاعه عن حقوق اليهود وهويتهم، ولذا كان يبدو المرشح المثالي للوساطة في قضية البربر، فاليهود — حتى المنتمين إلى أصول أوروبية — كان ينظر إليهم على أنهم وسطاء محايدون بين الغرب المسيحي والشرق الأوسط المسلم، بل إن يهوديًّا آخر، هو الكولونيل ديفيد فرانكس David Franks، كان الممثل الشخصي لجورج واشنطن في مفاوضات عقد الاتفاقية مع المغرب عام ١٧٨٦. واعتمد ماديسون على هذه السابقة في تعيين نوا قنصلًا للولايات المتحدة في تونس، ومنحه صلاحيات لإنفاق ٣٠٠٠ دولار فدية لكل أسير، وكان على القنصل أن يقول إن هذه المبالغ تبرعت بها عائلات الأسرى، ولا علاقة لها البتة بالحكومة الفيدرالية.

رحل نوا إلى الشرق الأوسط على متن السفينة جويل بارلو في مايو/أيار ١٨١٣، وقام باتصال فوري مع الداي الجزائري، وتوصل إلى قرار بالعفو عن ستة أمريكيين، ولكن مقابل فدية عظيمة قدرها ٢٥٩١٠ دولار، وقد أثار هذا الرقم ذعر الرئيس ماديسون، وخشي أن يعرف الشعب الأمريكي به، فتحجج بذريعة لاستدعاء القنصل إلى الولايات المتحدة، قائلًا: «يمكن تبرير هذا المبلغ بكراهية المسلمين لديانته؛ فقد عرف أنه يهودي»، ومع أنه لا أحد في تونس كان قد عبر عن مثل تلك المشاعر، فإن نوا اضطر للعودة إلى الوطن.[٢٥]

ساعد ماديسون في سن عادة تعيين يهود أمريكيين في المناصب الدبلوماسية في الشرق الأوسط، ولكن هذه الليبرالية كانت تشوبها الممارسة المستمرة لدفع الإتاوات، وكان يمكن لمثل هذه الهفوات أن تتكرر مادامت الولايات المتحدة غير قادرة على مقاومة طلبات القراصنة وعلى الاستجابة لتهديداتهم بقوة السلاح، ولكن الولايات المتحدة كانت غير قادرة على استجماع مثل تلك القوة أو الشجاعة، مادامت الحرب مستمرة مع بريطانيا.

لم تهدد حرب ١٨١٢ أمن الولايات المتحدة فقط — فقد أحرق البريطانيون عاصمتها — بل هددت أيضًا وحدتها التي حققتها بشق الأنفس، فقد فكر أهل نيو إنجلاند المعارضين للحرب في الانفصال، ومع ذلك فقد أمكن تجنب هذه الكارثة بإصرار ومثابرة بعض قادة القوات البرية مثل أندرو جاكسون Andrew Jackson، القائد الذي لعب فيما بعد دورًا مصيريًّا في علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وقامت القوات البحرية بدور متميز، فعن طريق تطبيق الخبرات والتجارب التي اكتسبوها من محاربة البربر، تغلب الأمريكيون على البريطانيين وأغرقوا بعض سفنهم واستولوا على بعضها، أما الحساب مع الجزائر فلم يحسم حتى انتهت الحرب بتوقيع معاهدة جنت Treaty of Ghent عشية عيد الميلاد ١٨١٤، وضج الشعب الأمريكي مطالبًا بالقصاص من القراصنة، فوقع على عاتق الرئيس تحديد موعد التنفيذ وكيفيته.

لم يكن اتخاذ القرارات سهلًا على جيمس ماديسون؛ ففي الرابعة والستين كان قد أصبح رجلًا مغضن الوجه خائر القوى، وحكيمًا حذرًا، وكان كثير الخلاف مع أعضاء حكومته، والآن وقد وجد نفسه محاصرًا بين الضغط الشعبي للثأر من البربر وعدم رغبته في خوض حرب أخرى بهذه السرعة بعد إحلال السلام، فقد أصابه التردد، ومرت ثلاثة أشهر كاملة قبل أن يتجه إلى الكونجرس ويطالب بإعلان الحرب رسميًّا، واستجاب له الكونجرس على الفور، وتلقى قائد الحملة — ستيفن ديكاتور — أوامر بالتهديد بإيقاع «كوارث خطيرة» بحكام شمال أفريقيا، وألا يرضى بأقل من «سلام دائم وعادل».

غادر ديكاتور نيويورك في ١٥ مايو/أيار على رأس فيلق قوي مكون من ١٠ سفن، منها البارجة جيريير Guerriere التي تحمل ٤٤ مدفعًا، والتي جرى الاستيلاء عليها حديثًا من البريطانيين، وبعد ذلك بشهر واحد اشتبكت السفينة جيريير بالقرب من ساحل أسبانيا مع سفينة جزائرية تحمل ٤٦ مدفعًا، وقتلت قبطانها الريس حميدة و٣٠ من أفراد طاقمه، ثم طارد ديكاتور سفينة أخرى للعدو — هي إستيديو Estedio — حتى جنحت، وأسر ٥٠٠ بحار، أما الأمريكيون فقد فقدوا سبعة من رجالهم بسبب مدفع معطل.

وفي صبيحة يوم ٢٨ من يونيو/حزيران استيقظ عمر باشا «داي» الجزائر الجديد مذعورًا على ١٠ سفن حربية أمريكية راسية في مينائه، فاستنجد الداي بالبريطانيين، وذكرهم بتأكيدهم له «أن الأمريكيين سيتم محوهم تمامًا من على وجه البحار في خلال ستة أشهر»، وقال لهم «إنهم الآن يشنون علينا حربًا بسفن كانت ملكًا لكم في يوم من الأيام!» ولكن الموائد كانت قد انقلبت على أصحابها. فبريطانيا لم تعد في حالة حرب مع الولايات المتحدة، ولن تستطيع الجزائر وحدها الدفاع عن نفسها ضد الأسطول الأمريكي، ولم يكن أمام الداي خيار سوى مقابلة ديكاتور والمرشح الجديد لمنصب القنصل الأمريكي ويليام شيلر William Shaler. ولد شيلر في كوبا وتلقى تعليمه في جامعة برينستون، وكان مفاوضًا يتميز بالدهاء والعناد، وكانت آراؤه عن أهل شمال أفريقيا تردد بقوة صدى آراء إيتون، ومنها: «الإسلام، الذي يتطلب القليل جدًّا من الإرشادات، يبدو مناسبًا تمامًا لمفاهيم الشعوب البربرية، إنني مندهش من أن قوة غير ذات قيمة إلى هذا الحد يسمح لها بإعاقة ومضايقة عالم التجارة والمطالبة بإتاوات وفِدْية مقابل الأسرى.»

قدم ديكاتور وشيلر للداي ما وصفاه بأنه شروط «مستنيرة وليبرالية، نمليها من فوق فوهات مدافعنا». ولم يكن على الجزائر أن تتوقف فقط عن أخذ الإتاوات من الولايات المتحدة، بل كان عليها أيضًا دفع ١٠٠٠٠ دولار كتعويض، بالإضافة إلى الإفراج غير المشروط عن الأسرى الأمريكيين، وحذر ديكاتور الداي قائلًا: «إذا أصررت على تلقي البارود كإتاوة، فعليك أن تتوقع أن تتلقى قنابل معه.» وتوسل عمر باشا إلى ماديسون، وخاطبه متملقًا إياه بـ«إمبراطور أمريكا ... صديقنا النبيل ... وسند كل الملوك المسيحيين، والأرفع مكانة بين الأمراء ... السعيد العظيم الحبيب». ولكن هذه الطريقة لم تجد نفعًا، فقد أجاب الرئيس ماديسون: «إن من سياسات أمريكا الثابتة أنه ما دام السلام أفضل من الحرب، فإن الحرب أفضل من الإتاوة. والولايات المتحدة، في حين أنها لا تتمنى الحرب مع أي دولة، فإنها لن تشتري السلام بأي ثمن.» وظهر إصرار

ماديسون جليًّا ذلك الصيف عندما وقفت السفينة إندبندنس قرب سواحل الجزائر، وكان قبطانها هو ويليام بينبريدج، وقد ظلت في منطقة شمال أفريقيا باعتبارها المركز الرئيسي لهذا الأسطول. وهكذا ظهرت أول قوة أمريكية دائمة عبر البحار.[٢٦]

في تلك الأثناء كان ديكاتور قد تقدم نحو تونس وطرابلس، مطالبًا بتعويض عن السفن التي جرى الاستيلاء عليها والإفراج عن باقي المختطفين، وعاد الأسطول إلى الولايات المتحدة حاملًا أعلام ٢٩ سفينة من سفن العدو، وحِيكت الأعلام معًا وصنع منها بساط قُدِّمَ للسيدة الأولى دوللي ماديسون Dolly Madison، وعادت السفن الأمريكية إلى الوطن ومعها سبعة أسرى من طرابلس، وعُرِضوا في عدة مسارح بمدينة نيويورك باعتبارهم «مسلمين حقيقيين»، وانتهت بذلك أكثر من ثلاثة عقود من الصراع بين الولايات المتحدة وشمال أفريقيا، وكان قراصنة البربر الذين استولوا على ٣٥ سفينة أمريكية وأسروا ٧٠٠ بحار وهددوا بقاء أمريكا وجرحوا كرامة الأمريكيين، قد انتهوا.

وفي النهاية يبقى أن نسأل: هل كان هذا الصراع مبررًا؟ من الناحية المالية البحتة، كانت الإجابة لا قاطعة، فقد وصل ثمن محاربة طرابلس وحدها بين عامي ١٨٠٢ و١٨٠٥ إلى ٣ ملايين دولار، وهو مبلغ أكبر بكثير من الإتاوات التي دفعتها الولايات المتحدة لدول البربر الأربع في تلك السنوات، وكان جون آدامز على حق في تقديره أن محاربة القراصنة ستكون أكثر تكلفة من رشوتهم، ولكن استفادة أمريكا من الناحية الاستراتيجية فاقت نفقاتها؛ فقد أمكن تنفيذ مبدأ جيفرسون بضرورة تبني «موقف حاسم ومستقل» في الشرق الأوسط، كما مكن الولايات المتحدة من حماية نفسها من الابتزاز وكسب الاحترام الدولي، وعلقت جريدة نايلز ويكلي ريجستر Niles' Weekly Register على ذلك قائلة: «كلمة أمريكي أصبحت من أكثر الكلمات فخرًا في العالم. ونحن على خطأ كبير إذا لم تمنحنا هذه الحرب مع الجزائر نفوذًا إضافيًّا في المجالس الأوروبية.» ولم يأت هذا الفخر من فراغ؛ فبعد الحملة الأمريكية بسنة، اتبع أسطول إنجليزي هولندي مشترك مثال ديكاتور، عن طريق فرض إرادته على الجزائر، وكما قال أحد البريطانيين: «لم يكن من الممكن أن تحتمل إنجلترا ما كانت الولايات المتحدة قد رفضته وعاقبت عليه.»

غيرت حروب البربر نظرة أوروبا للولايات المتحدة، وبدل ذلك الانتصار بلا شك صورة الأمريكيين عن أنفسهم؛ فقد ملأتهم الحرب بمشاعر الفخر الوطني والحيوية وإحساس رائع بالهوية، وانتشرت الرموز الوطنية، كالأعلام والنسور الصلعاء وأشكال العم سام، وأثنت جريدة نايلز ويكلي ريجستر على «الطاقة التي تمنحها الحرية لأبطالها، وأنها تقوي قضيتها عند مواجهة أي دكتاتورية»، والجماهير — التي كانت

تنكمش وتقشعر أبدانها عندما تذكر سوزان روسون «العجز الأمريكي» في «عبيد في الجزائر» — أصبحت الآن تلتهب حماسا بمسرحية حصار طرابلس لجيمس إليسون، وسعد الأمريكيون أيضًا بكلمات الشاعر جوزيف هانسون Joseph Hanson عن المسلم الذليل:

الباشا المسكين سينزعج قريبًا
فالزيارة غير مرحب بها منه
إنهم يتقدمون على مقربة مائة قدم من القلعة
وتحيته بارود وقنابل
فالبحرية لا تبخل بهما
والباشا العظيم يستحقهما[٢٧]

انتهت حروب البربر بانتصار الولايات المتحدة، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى المشاركين الأساسيين في تلك الحرب من الأمريكيين، فقد استُقبل ستيفن ديكاتور استقبال الأبطال، وذاع صيته بعد أن صاغ عبارة «وطني سواء على حق أو على باطل»، ولكن بعد ذلك بخمس سنوات قتل هذا القائد في مبارزة مع جيمس بارون، القبطان السابق للسفينة تشيزابيك، الذي لم يغفر لديكاتور أبدًا محاكمته عسكريًّا، وقد دفن ديكاتور في البداية في فيلادلفيا بجانب جثمان المفاوض جويل بارلو ثم نقل إلى الأكاديمية البحرية بأنابوليس، وكان بارلو قد عين مبعوثًا للولايات المتحدة في فرنسا عام ١٨١١، ورافق نابليون في غزو روسيا، ثم مات متجمدًا في بولندا. أما ويليام بينبريدج فكانت نهايته تقليدية، فقد توفي وفاة طبيعية بعد قيادة الأسطول على مقربة من بوسطن وفيلادلفيا، ولم يتغلب بينبريدج أبدًا على إحساسه بسوء حظه في البحر المتوسط، مرددًا: «لقد ضاعت مني فرصة الحرب أو التفاوض» مع البربر. أما توبياس لير فقد تعرض للملاحقة بسبب دوره في اتفاقية طرابلس حتى بعد الحدث بسنوات، فانتحر في واشنطن في أكتوبر/تشرين الأول ١٨١٦.

ولم يتعاف إيتون قط من تجربته المريرة في شمال أفريقيا، ومع أن التجربة مكنته من تقدير الولايات المتحدة، حيث «يسمح لنور الله أن يضيء الأذهان»، فإنه بقي على مرارته، وبدافع من الثأر، انضم عام ١٨٠٦ إلى المؤامرة التي دبرها آرون بور Aaron Burr لغزو منطقة لويزيانا، لكنه فيما بعد تحول إلى شاهد ملك ضده، ومع هذه النقطة السوداء فقد منحه المجلس التشريعي لماساتشوستس ١٠٠٠٠ فدان من الأراضي الزراعية «بسبب رغبته في تكوين ذكرى عمل بطولي»، فعاش هناك بدون عمل، عيشة

منعزلة أشبه بعيشة الرهبان، مدمنًا على الشراب، وقد أفضى إلى صديق قديم له من الجيش عام ١٨١٠ قائلًا: «إنني أعيش تحت حصار محكم، فملك الموت يدفعني إلى الداخل، ويرسم خطوطًا حول قلعتي»، ثم توفي في العام التالي.

أما توماس جيفرسون العجوز فكان يتابع من ضيعته بمونتيتشيللو أنباء انتصارات ديكاتور في شمال أفريقيا وسقوط القراصنة البربر، وقد استعاد علاقته بصديقه وغريمه القديم جون آدامز، فكتب إليه عن فخره بالبحرية الأمريكية، التي أسماها «الحائط الخشبي للولايات المتحدة»، والتزامها «بإحكام السيطرة على دول البربر». وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لتكوين قوات بحرية أمريكية، والهزائم التي منيت بها أمريكا في معاركها الأولى في الشرق الأوسط، فإن البحرية الأمريكية خرجت قوة حربية عالمية، بل إن فيلق البحر المتوسط كان في حالة تأهب دائمة وقت وفاة الرئيسين جيفرسون وآدامز في ٤ يوليو/تموز ١٨٢٦، وهو ما واكب العيد الخمسين لميلاد الدولة.

عاش ميراث الحروب البربرية الأمريكية في وجدان الولايات المتحدة، في مقاطعة بريبل كاونتي بولاية أوهايو، ومدينة إيتون بولاية نيويورك، وفي مدينة طرابلس بولاية أيوا، وكذلك في العشرين بلدة المسماة على اسم ستيفن ديكاتور. ولا يزال جنود البحرية الأمريكية حتى اليوم يرددون أغنية «إلى سواحل طرابلس» (مع أنهم في الحقيقة لم يتجاوزوا درنة)، ويحملون سيفًا معقوفًا يشبه كثيرًا السيف الذي أهداه حامد للملازم أوبانون، أما أقدم نصب تذكاري حربي في البلاد فقد شيد بقرار من الكونجرس في مدينة أنابوليس تخليدًا لذكرى الانتصار على شمال أفريقيا، ومن التذكارات الأخرى جرس السفينة فيلادلفيا، الذي انتشل من البحر وأعيد للولايات المتحدة عام ١٨٧١، أما أبرز رموز الحرب فقد يكون أقلها شهرة، وهو النشيد الوطني الأمريكي الذي يقف الأمريكيون تحية له في مباريات كرة القدم وغيرها من المناسبات العامة، وضع النشيد الوطني أول الأمر تكريمًا لبينبريدج وديكاتور عام ١٨٠٥ على أنغام لحن إنجليزي قديم، وكان يحوي عبارات «انحنت الرءوس المعممة» أمام «جباه الشجعان» و«راية بلادنا المرصعة بالنجوم»، ولم تتغير كلمات النشيد إلا بعد معركة فورت ماكهنري Battle of Fort McHenry في أثناء حرب عام ١٨١٢ على يد مؤلفه فرانسيس سكوت كي Francis Scott Key.[٢٨]

كانت الولايات المتحدة بعد نصف قرن من تأسيسها لا تزال وحدها، ولكنها كانت قادرة تمامًا على الدفاع عن تجارتها، وازدهرت التجارة الأمريكية بعد تحررها من سطوة القراصنة، وفي عشرينيات القرن التاسع عشر سجلت موانئ البحر المتوسط زيادة في

السفن الأمريكية الزائرة تقدر بأربعة أضعاف، وأصبحت الولايات المتحدة تورد للمنطقة ١٢ مليون جالون من الخمور سنويًّا، وتشتري معظم إنتاج تركيا من الأفيون، وقد علق أحد المبشرين عندما وصل إلى الأناضول على ذلك قائلًا: «يا لضيعة مسيحيي أمريكا! فتجار الأفيون يجدون فيها سوقًا رائجة لسمومهم!» ولكن لم يشاركه معظم الأمريكيين هذه المشاعر، بل نظروا فقط إلى الجانب المشرق، واستمتعوا تمامًا بقوتهم الجديدة، وفي خطاب أمام الكونجرس في الثاني من ديسمبر/كانون الأول ١٨٢٣ منع الرئيس مونرو أي تدخل أوروبي في العالم الجديد، ولا بد أن شجاعة هذا القرار كانت ستعد نوعًا من الجعجعة قبل بضع سنوات؛ قبل حروب البربر واستعراض أمريكا لعضلاتها في الشرق الأوسط.[٢٩]

غير أن هذه الإنجازات العظيمة في مجال العلاقات الخارجية لم تخف التناقضات التي ظلت تثير الاضطرابات الداخلية في الولايات المتحدة، ومع أن عدد سكان الولايات المتحدة قد تضاعف أكثر من خمس مرات في السنوات الخمسين الأولى بعد الاستقلال، ووصل إلى ١١ مليون نسمة، فإن خمس هذا العدد كان لا يزال من العبيد؛ وإذا كانت حروب البربر قد مكنت الأمريكيين من الاتحاد في مواجهة التحديات الخارجية والداخلية، فإن قضية العبيد الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية زادت من فرقتهم وانقسامهم بلا رجعة، ولكن حتى هذا الصراع تأثر بأسطورة البربر وبتجارب الأسرى الأمريكيين في شمال أفريقيا.

وقد كان لقليل من الأحداث في فترة ما بعد الاستقلال تأثير جذري على أمريكا أكثر من حربها مع الشرق الأوسط؛ فقد دفع التهديد القوي من تلك المنطقة المستعمرات السابقة إلى الاتحاد وجمع مواردها معًا، وإلى تكوين قوة بحرية وتوجيهها بعيدًا عن السواحل الأمريكية، وباختيار أمريكا للقتال بدلًا من مهادنة القراصنة، وخروجها بذلك عن مسلك أوروبا، استطاعت الدولة أن ترسخ شخصيتها القومية، ولن يضطر مواطنوها بعد ذلك إلى احتمال «الإهانات المذلة» التي تعرض لها بينبريدج عام ١٨٠٠. ولن يترددوا أبدًا — كما فعل بينبريدج — في التفكير في كلمات «الولايات المتحدة المستقلة»، ففي بوتقة هذا الصراع الذي دام ٣٠ عامًا تشكلت الهوية الأمريكية.

استعرض الأمريكيون تلك الهوية المحددة الجديدة، فاندفعوا في مغامرات في الشرق الأوسط فيما وراء شمال أفريقيا، نحو الجزيرة العربية والأناضول والهلال الخصيب، ولم يعد هدف عدد كبير منهم البحث عن الثروة أو الأمان أو حتى التحقق من صحة الأساطير التي سمعوها عن تلك المنطقة، بل كان هدفهم هو حمل مشعل التنوير والخلاص إلى المنطقة، وإعادة تشكيلها وفق النموذج الأمريكي، فتخلى الشباب والشابات عن الخيال وتبرءوا من البارود والقنابل، وأخذوا يغرسون قيمهم عن طريق الأناجيل والكتب فقط، في المدارس والمستشفيات، بدافع من إيمانهم العميق.

الفصل الرابع

تنوير العالم وتحريره

احتشد الناس في مقاعد كنيسة أولد ساوث ببوسطن، وأطلوا من نوافذها المدعمة بالقضبان، وكانوا قد انتظروا هذا اليوم — ٣١ أكتوبر/تشرين الأول ١٨١٩ — بشغف كبير، مقتنعين تمامًا أنه بداية عهد جديد، وربما عالم جديد بأسره. وكانت همهماتهم التي تحولت إلى طنين عال تنبئ بوصول أحد علماء الدين الأجلاء؛ ومع ذلك فعندما فتحت الأبواب، لم يظهر كاهن أو حتى شماس، بل مجرد قسين متواضعين، في نحو الخامسة والعشرين من عمرهما؛ وسكت الجمع فجأة عندما تقدم أحدهما، وهو قصير ذو أنف عريض ويرتدي نظارة، وصعد إلى المنبر، كان اسمه ليفي بارسونز Levi Parsons، ولم يكن موضوع خطبته هو الإنجيل ولا القيامة، بل اليهود.

بدأ بارسونز بقوله: «إن من علمونا طريق الخلاص هم اليهود؛ فقد حفظوا الإنجيل بأمانة وإخلاص، وعملوا بجد، وعانوا وماتوا مدافعين عن ديننا، كان ربنا هو ربهم، وكانت جنتهم هي جنتنا.» والأهم — كما ذكر بارسونز — هو أنهم منحوا الإنسانية مخلصها؛ «نعم يا إخوان، فمن يشفع لكم الآن عند رب العرش ... يهودي!» وانتهى إلى أنه لكي يُظهر المسيحيون شكرهم لكرم اليهود يجب عليهم أن يعيدوا لذلك الشعب سيادته على وطنه الذي ورد في الإنجيل، والذي سكنه آباؤهم من قبلهم.

أوضح بارسونز كيف عاش اليهود لمدة ١٨ قرنًا في عزلة سياسية، مشردين بلا وطن، ومحرومين من الاستقلال، غير أنه آن أوان رفع هذا الظلم، وقال: «اعترفوا أنه لا يزال في صدر كل يهودي رغبة جامحة للعيش في الأرض التي منحها الله للآباء، وهي رغبة لا يمحوها حتى اعتناق المسيحية.» كان هذا الوطن هو فلسطين، الذي كان يومًا ما بلدًا رائعًا، لكنه لم يعد الآن بلدًا مستقلًّا ولا حتى إقليمًا منفصلًا، بل أصبح بلدًا عثمانيًّا يسكنه قليل من الأتراك، بلد راكد متخلف، ينتظر أن يستعيده أصحابه الحقيقيين له؛ ثم أضاف: «وسيستعيدونه بالتأكيد!» فإذا انتهى الاحتلال العثماني لفلسطين، «فلن يمنع عودة اليهود الفورية إليها سوى معجزة!»

لم يكن بارسونز يدعو بالطبع إلى غزو عسكري، فلم تكن أمريكا في وضع يسمح لها بقتال العثمانيين حتى بعد انتصار أمريكا في حروب البربر، بل كان يدعو إلى برنامج دعوة سلمية. وبناءً عليه كان المبشرون المسيحيون سيسافرون إلى الشرق الأوسط، إلى أسوار القدس المباركة، وهناك يقومون بأسمى أعمال الخير والصلاح بحيث تغري اليهود بالعودة إلى الوطن واستقبال يسوع المسيح، إن قيام دولة يهودية في فلسطين سيفي بكل الشروط اللازمة للمجيء الثاني، كما أكد بارسونز؛ وعلى ذلك سيغمر النور المقدس ليس فقط اليهود، بل أيضًا المسلمين ومسيحيي الشرق الضالين؛ وعندها ستبدأ ألف سنة من السلام والتضامن الروحي، وستنحني الإمبراطورية العثمانية — بل كل الإمبراطوريات — أمام مجد المسيح؛ «وستتوجه كل العيون نحو القدس.»

تلقى الشعب هذه الحقائق مندهشًا ومذهولًا وانتظر بشغف متزايد كلمات الرجل الثاني، كان هذا هو بليني فيسك Pliny Fisk؛ أطول قامة من بارسونز وأكثر هندامًا، وأقل كلامًا، تحدث بدوره عن الحاجة لعمل معجزات في الأرض المقدسة، للمساعدة في تحقيق الخلاص، مهما كانت المخاطر، ثم تلا من الكتاب المقدس: «والآن هأنا أذهب إلى أورشليم مقيدًا بالروح»، فانفجر الحضور بالبكاء.

إذا نظرنا من منظور القرن الحادي والعشرين فقد نرى أن فيسك وبارسونز وجمهورهما كانوا متطرفين في عقائدهم ولا يعبرون إلا عن هامش المجتمع الأمريكي؛ فزعمهما أنهما القادران وحدهما على إنقاذ اليهود والمسلمين وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط سيبدو ساذجًا بالتأكيد في نظر كثير من الأمريكيين اليوم، إن لم يكن معبرًا عن الغرور؛ فلماذا يتبنى أبناء أحد أقدم الحضارات والوارثون لأحد أعرق التقاليد في التاريخ عقيدة هؤلاء الغرباء المحدثين، المبشرين بالبروتستانتية منذ أقل من ثلاثمائة عام وأبناء دولة عمرها أقل من خمسين عامًا؟

ولكن هؤلاء الأمريكيين لم يكونوا يمثلون نسبة هامشية بالمرة، فتعاليم الميثودية والكنيسة المشيخية الأمريكية والأبرشانيين كان لها أتباع كثيرون في الولايات المتحدة، متخطية كل حواجز الطبقات والتعليم والجنس، فكان من بين المبشرين وأتباعهم مزارعون وتجار، وأطباء وأصحاب حرف، وكان من بينهم من تلقوا قدرًا ضئيلًا من التعليم ومن تخرجوا في أرقى الجامعات، رجالًا ونساء على السواء؛ ولأنهم كانوا متشربين حتى النخاع بالقيم الأمريكية، مثل الفردية والمزايا المدنية والوطنية فقد رأوا أنهم حملة ميراث الثورة، وفي هذه الكنيسة نفسها — كنيسة أولد ساوث — قبل ذلك بخمسة وأربعين عامًا كان أعضاء منظمة أبناء الحرية Sons of Liberty قد تجمعوا قبل مسيرة ارتدوا فيها ملابس الهنود الحمر للتخلص من الشاي البريطاني في ميناء بوسطن.

لم يتملك الحماس للحملة التي اقترحها فيسك وبارسونز فقط الأمريكيين الذين عاشوا زمنًا في أمريكا، بل سيطر أيضًا على كثير من المهاجرين الجدد، ولم يكن الحماس كذلك مقصورًا على بوسطن أو ما يسمى مناطق حزام الكتاب المقدس (المناطق التي يسيطر عليها البروتستانت المتشددون) بنيو إنجلاند، بل قوبل القسيسان بكل حفاوة وترحاب في كل مدينة رحلا إليها في رحلتهما عبر الجنوب والولايات الحدودية غرب جبال اللجني لجمع التبرعات لرحلتهما، وقال بارسونز فرحًا: «بدأت روح البعثات التبشيرية تسيطر على ثروة الكنائس الأمريكية ونفوذها.»

واشتركت كل هذه الجماعات في إيمانها بأن أمريكا لها دور أسنده لها الرب بأن تكون «نورًا للأمم» وأن تكافح من أجل السلام العالمي، وقال المؤرخ أوليفر إلزبري Oliver Elsbree عن فيسك وبارسونز وآلاف الشباب والشابات الذين قُدِّر لهم أن يسيروا في ركابهم: «كانوا عازمين على الارتقاء بالإنسانية إلى مستوى أفضل من الحياة، وكانوا يسعون إلى تقديم أفضل ما كان في أمريكا وقتها إلى العالم الوثني.» وكان المبشرون ينفردون بالجمع بين السذاجة والاستخفاف بعقول الآخرين، بين الغرور وعدم التكلف، ومع ذلك فقد كانت نياتهم حسنة للغاية في الوقت نفسه؛ وكان تكبرهم حميدًا في جوهره.

غادر المصلون كنيسة أولد ساوث، على دقات أجراس ابتكرها بول ريفير Paul Revere، وأفكارهم أبعد ما تكون عن نيو إنجلاند؛ كانوا يفكرون في ركن بعيد من أركان الإمبراطورية العثمانية وفي الأحداث الجسام التي ستقع هناك عما قريب، وفي تلك الأثناء كان ليفي بارسونز وبليني فيسك قد سافرا إلى واشنطن، حيث أمدهما وزير الخارجية جون كوينسي John Quincy بخطابات تشهد باستقامتهما، وبذلك كان القسان الشابان قد استكملا استعداداتهما ليصبحا أول مبشرين أمريكيين في الشرق الأوسط، وهي المنطقة التي آمنا أن «صفقات عظيمة هناك قد أثرت في أقدار كل العصور والأمم إلى الأبد».[١]

رحل جون ليديارد إلى مصر بحثًا عن المغامرة، ودافع رجال مثل ويليام إيتون وستيفن ديكاتور عن بلادهم ضد قراصنة شمال أفريقيا، ولكن كان الهدف الوحيد لرحيل فيسك وبارسونز إلى الشرق الأوسط هو نشر دينهما، فكيف حسبا إذن — هما وكثير من أهل بلادهما — أنه عن طريق نشر البروتستانتية الإنجيلية في الشرق الأوسط ذي الأغلبية المسلمة يمكن إنقاذ العالم بأجمعه؟ ولماذا كان لديهما هذا القدر الكبير من الثقة بأن شباب الولايات المتحدة الناشئة يمكنه تحويل الشعوب العريقة للمنطقة إلى المسيحية ويمكنه بذلك إنقاذ الإنسانية جمعاء؟

«التشابه إلى حد التطابق»

نستطيع أن نجد إجابات على تلك الأسئلة قبل قرنين من الزمان، محفورة في الأفكار التي قامت عليها الولايات المتحدة.

قال ويليام برادفورد William Bradford، المحافظ المستقبلي لمستعمرة بليموث، عندما غادر السفينة مايفلاور Mayflower عام ١٦٢٠: «دعنا نعلن كلمة الرب في صهيون.» كان برادفورد يردد كلمات أرميا، ولم تكن صهيون عنده أرض كنعان الموعودة، ولكن نسختها الحديثة: أمريكا، ولم يكن سكانها هم بني إسرائيل القدامى، ولكن ١٠١ من المسافرين الذين وصلوا مع برادفورد، وهم رفاقه من التطهريين.

لم تعكس ملحوظات برادفورد فقط اكتشاف عالم جديد، ولكن أيضًا إعادة اكتشاف العهد القديم، ومع بداية الإصلاح الديني أتيح لشعب إنجلترا الاطلاع على الكتب التي كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تجاهلتها زمنًا طويلًا، وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وسفر القضاة وسفر الملوك وأسفار الأنبياء، وأحدث اطلاعهم على هذه الأسفار تحولًا كبيرًا؛ فقد قامت إنجلترا بتغيير القصة الواردة في الإنجيل بسهولة، من قصة إبراهيم إلى كتاب دانيال، واعتبرتها قصتها الوطنية، واصلة ما أسماه الشاعر ماثيو أرنولد «عبقريتنا وتاريخنا نحن الإنجليز وعبقرية وتاريخ الشعوب العبرية». أَثْرَتْ عبارات الإنجيل اللغة الإنجليزية، وساعدت مفاهيم الكتب المقدسة مثل الحرية الاجتماعية والعدالة على تقوية الحكومة البرلمانية، وبرعت أعداد من الإنجليز — من عامة الشعب ورجال الدين على السواء — في اللغة العبرية، وأصبحوا يطلقون على أولادهم أسماء من العهد القديم، مثل جيسي وسارة وصامويل وريبيكا.

كان الدافع وراء تبني تاريخ العهد القديم قويًّا بصورة خاصة بين التطهريين، أكثر الإصلاحيين الإنجليز صلابة، ففي بحثهم عن دين مثالي لم تلوثه السياسة أو الطبقات الاجتماعية، وعن مُثل موازية لمفاهيمهم، تذكر التطهريون اليهود وعقيدتهم القديمة، فقد كانوا يؤمنون بأن الله قد تحدث مباشرة إلى الشعب المختار، وحفظ عهده معهم، ونجاهم من الاضطهاد؛ وخلص التطهريون من ذلك إلى أنهم ورثة هذا العهد والعقد، وأن إسرائيل جديد قد بدأ رحلة شتات جديدة من العبودية إلى الحرية، موجهًا نحو الأرض الموعودة، وبدافع من هذا الحس بالتميز والاختيار، رحل الحجاج من إنجلترا إلى هولندا، ومن هناك إلى بليموث روك، محطتهم الأخيرة نحو الخلاص.

كان التطهريون قد وضعوا بصمتهم وهويتهم على هوية اليهود، وبذلك فرضوا خريطة كنعان القديمة على الجديدة. وقال إدوارد روبنسون، وهو أحد أبناء هؤلاء التطهريين وقد عاش في القرن التاسع عشر، وعرف بأنه أبو الآثار الإنجيلية: «لم

تعرف الكتابات المقدسة أو تقدر في مكان أكثر من هذا، فأسماء سيناء والقدس وبيت لحم والأرض الموعودة أصبحت ترتبط بأقدم ذكريات الأمريكيين وأكثرها قدسية.» ولأن الأمريكيين كانوا أكثر دراية وعلمًا بجغرافية الأرض المقدسة من علمهم ودرايتهم ببيئتهم الغريبة والجديدة، فقد نتج عن ذلك إطلاق أسماء دينية مثل سالم وشيلوه وصهيون على أكثر من ألف مدينة في أمريكا الشمالية، وكانت دراسة اللغة العبرية إلزامية في مدارس عديدة وكليات العالم الجديد، مثل برينستون، حيث حصل جيمس ماديسون على شهادته في اللغات، وفي ييل ودارتموث وكولومبيا، التي وضعت رموزًا عبرية على شعاراتها، وحتى سكان أمريكا الأصليين — الهنود الحمر — الذين تتبع نسلهم العديد من المستعمرين وأرجعوهم إلى القبائل العشر المفقودة، تم وضع أثرهم على ألواح الإنجيل الممسوحة. وقال القس صامويل ويكمان لبعض المجتمعين في كنيسة هارتفورد عام ١٦٨٥: «القدس كانت ونيو إنجلاند أصبحت. هم كانوا، وأنتم أصبحتم ... شعب عهد الله.» وقد عبر بيتر فوجلر Peter Fogler، جد بنجامين فرانكلين، عن نفس الفكرة بصورة أكثر لباقة عندما قال: «في نيو إنجلاند هم كاليهود، ومتشابهان كأقرب ما يكون.»[٢]

وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت ثقة أمريكا المستعمرة باختيارها الإلهي قد ساعدت على إشعال جذوة الصحوة الدينية الكبرى، وأُسِّسَت كنائس جديدة مثل المعمدانية والميثوديست والكنيسة المشيخية الأمريكية، وأُنشئت جامعات جديدة كبرينستون ودارتموث لتساعد في نشر عقائد هذه الكنائس، أما الأفكار الكالفينية القديمة الخاصة بحتمية القضاء والقدر فجرى التخلص منها، واستبدالها بثقة أمريكية جديدة في قدرة الفرد على تخليص روحه عن طريق وهب نفسه تمامًا لأنشطة الدعوة والدين، ومع ذلك فلم يكن على المسيحيين أن يبحثوا عن خلاص أنفسهم فقط، بل عن خلاص الآخرين أيضًا عن طريق قيادتهم إلى ميلاد روحي جديد، وبسبب ثقتهم بقدرتهم على القيام بتلك المهمة تطلع كثير من الأمريكيين إلى ألفية جديدة، وعصر ذهبي، تكون فيه كل أمة مكونة من شعب حر. وتكون فيه الأرض كلها مجتمعًا واحدًا في المسيح، كما تنبأ بذلك رجل الدين جوناثان إدواردز Jonathan Edwards. هللت أمريكا البروتستانتية لذلك الحدث المستقبلي، الذي تنبأ به مؤسسوها، مرددين قول متى في إنجيله (٥:١٤–١٦): «نور العالم» ... «المدينة على الجبل» التي ليس لها مثيل.

كانت صورة المستعمرين عن أنفسهم باعتبارهم بني إسرائيل الجدد قد حصلت على أهمية خاصة في حرب الاستقلال، ووُضِعَ الملك جورج الثالث في دور الفرعون،

ولعب المحيط الأطلنطي دور البحر الأحمر، وشبه الكتاب الوطنيون جورج واشنطن بموسى، وجون آدامز بيشوع، وهما اللذان قادا شعبيهما نحو الحرية، أما ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton، الذي كان عضوًا في الكنيسة الأسقفية، وقد تعلم قراءة العبرية في شبابه، فقد كان مصير أمريكا عنده شبيهًا بمصير اليهود، أي أنهما شعبان «كان تاريخهما منفصلًا تمامًا عن تاريخ الإنسانية، وهو نتاج تأثير خطة قدرية مصيرية». أما عزرا ستايلز Ezra Stiles — رئيس جامعة ييل — فقد لاحظ أن عدد بني إسرائيل الموجودين بجبل سيناء، وهو ثلاثة ملايين، هو نفس عدد سكان الولايات المتحدة في زمن الاستقلال. أما صامويل لانجدون Samuel Langdon — رئيس جامعة هارفارد — فاقترح «إمكانية إحلال الولايات الثلاثة عشر للاتحاد الأمريكي محل الأسباط الاثني عشر من بني إسرائيل». وكانت صورة تلك الأسباط العابرة للبرية نحو أرض كنعان تزين ختم الولايات المتحدة الذي اقترحه فرانكلين وجيفرسون.[٣]

ومع ذلك فلم يمنع هذا الحماس الديني الذي اجتاح الولايات المتحدة الجمهورية الشابة الناشئة من فصل الكنيسة عن الدولة، ففي اتفاقية عام ١٧٩٦ مع طرابلس أعلنت الولايات المتحدة أنها «لم تؤسس بأي شكل على الدين المسيحي، وأنها لم تخض حربًا قط ضد الدول الإسلامية بناءً على أي وازع ديني»، وهو تأكيد وافق عليه مجلس الشيوخ بالإجماع، ولكن مع ذلك فقد استمر الإيمان والعقيدة في اختراق كل ركن من أركان الحياة في أمريكا، ومنها الحكومة؛ فكثيرًا ما كان رجال الكونجرس وأعضاء الحكومة وحتى الرؤساء يدعون إلى أنشطة تبشيرية داخل وخارج الولايات المتحدة.

انتعشت الديانة البروتستانتية في الولايات المتحدة بسبب حرية الحدود وعدم وجود قيود لكنيسة وطنية موحدة، وزاد عدد أتباعها وقويت سلطتها أيضًا باختراعها لوسائل جديدة لابتكارات روحية، وبنهاية القرن الثامن عشر كان شلال الطاقة الدينية قد تحول إلى صحوة ثانية أكدت على العودة إلى الأصول، والإيمان بالخلاص القادم. وقال أحد وزراء كونيتيكت عام ١٨١٥: «لقد دخلنا تلك الفترة المُهَيِّئَة للألفية الجديدة»، واصفًا فترة تتوقف فيها كل الحروب، ويكون لكل مجتمع كنيسته، ويكون لكل عائلة مباركتها اليومية، وكان هناك تركيز واهتمام خاص بتحويل اليهود إلى الإنجيلية، وتوحيد إسرائيل القديمة بالجديدة. وازدهرت وانتعشت وانتشرت مؤسسات الأنشطة الدينية، مثل مؤسسة المرأة للترويج للمسيحية بين اليهود، محققة نتائج رائعة من حيث عدد المتحولين إليها، وانتشرت نبوءة عامة، مفادها أن «معبد الرب سيهبط بين البشر قريبًا». وفي مدن وقرى نيو إنجلاند ونيويورك كان الشباب على استعداد تام لوهب حياتهم لتحويل هذه الرؤية إلى حقيقة.

دعت الصحوة الثانية الأمريكيين إلى الانغماس — ليس فقط في الروحانيات — بل أيضًا في فخرهم ببلادهم، ونصح بليني فيسك قائلًا: «يجب على المسيحيين أن يطوروا وطنيتهم إلى درجة كبيرة. فما الذي يمكن أن يكون أكثر تناسبًا، عن نار متوهجة وحماس سياسي موجه للمسيح؟» أثار هذا المزيج من حب الوطن والتوجه للرب دهشة ألكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville، باعتباره أحد أكثر صفات أمريكا تميزًا. واستخلص هذا الفرنسي عام ١٨٣٥ أن المسيحية لها «تأثير أكبر بكثير على أرواح البشر في أمريكا» أكثر من أي مكان آخر في العالم، وأنه فقط في الولايات المتحدة يُرْبط بين الدين و«السلوكيات الديمقراطية» و«روح الاستقلال الفردي».

تشبع كثير من الأمريكيين بهذا المزيج من التقوى والوطنية، فكانوا على استعداد تام لإنقاذ العالم؛ روحانيًّا عن طريق تدريس الإنجيل، وسياسيًّا عن طريق الترويج والدعوة للحرية. وبقي الدافع للاستمرار في هذه المهمة أمرًا ثابتًا في السياسة الخارجية الأمريكية، مما منح توازنًا لهروبها السابق من التدخل في الشئون الخارجية، وأصبحت نقطة تَجَمّع حولها على الدوام قادتها المختلفون، فمع كل اختلافاتهم حول الأمور الروحية، اتفق الآباء المؤسسون بالإجماع على التزامهم بالإيمان المدني الدنيوي. أما جيفرسون — الذي كان ربوبيًّا — فكانت الولايات المتحدة عنده «شيئًا قيمًا للإنسانية، تُجَمِّع كل الأمم على اتصال حر يهدف للسعادة». أما آدامز — المؤمن بإله واحد — فكانت أمريكا عنده «تصميمًا رائعًا للقدر لتنوير الجاهل وتحرير الأرض».[٤]

ظهر التزام أمريكا برؤيتها لتحسين العالم أجمع، دينيًّا ودنيويًّا، عام ١٨٠٨، في ويليامز كولدج بماساتشوستس. ففي عاصفة صيفية مشبعة بالبرق، اختبر خمسة طلبة ثقتهم بالله عن طريق اختيار أكثر المخابئ ضعفًا، وهو كومة من القش، ليختبئوا فيها. وقال لهم قائدهم صامويل ميلز Samuel J. Mils: «إنني أنا وأنتم كائنات صغيرة للغاية، ومع ذلك فعلينا ألا نرضى حتى يكون لنا تأثير ممتد إلى أبعد ركن من هذا العالم المدمر.» ونجا الطلاب الخمسة كلهم. وخرجوا من التجربة مبتلين ولكنهم كانوا ممتلئين بالرغبة في تدريس الإنجيل خارج الولايات المتحدة. وقد انتشر حادث كومة القش في كليات أخرى، مثل هارفارد وبراون ويونيون، وخاصة في ميدلبيري وكلية آندوفر للاهوت، حيث درس كل من بارسونز وفيسك. وسرعان ما كان الطلبة يقدمون طلبات في كنائسهم المحلية لرعاية مجهودات تبشيرية خارج الولايات المتحدة، ضاغطين على الكبار للقيام بخطوات تنفيذية.

وقد سارع الكبار بالتصرف بالفعل؛ فعام ١٨١٠ قاموا بتأسيس المجلس الأمريكي للبعثات التبشيرية بالخارج، وكان المجلس مكونًا من رجال دين من طوائف مختلفة،

بالإضافة إلى رجال صناعة وأطباء ومحامين، وكان هدف المجلس هو ترسيخ وجود مراكز التبشير أو «المحطات» في جميع أنحاء العالم غير البروتستانتي، وكان رأي أحد مؤسسي المجلس، القس صامويل هوبكنز Samuel Hopkins «أن امتداد الحب المسيحي هو فقط الذي يمكنه تقريب الإنسانية من الألفية التي ستضع حدًّا للفقر والاضطهاد والظلم.»

كانت كل هذه الشرور ستُمْحى في البداية من الجنوب الأمريكي، وفيما بعد من أفريقيا والهند والصين. ولكن من بين كل الأنشطة الإنجيلية لم تُثِرْ إحداها اهتمام المجلس كما أثاره الشرق الأوسط، فها هي منطقة لم تتمكن أي قوة أوروبية من امتلاكها بعد، تقع على مفترق الطرق الحضارية — وهي منطقة بوركت فوق هذا وذاك بوجود أقدس البلاد وسطها، وقال ليفي بارسونز، وهو يستمع إلى أجراس كلية ميدلبري معلنة انتهاء حرب عام ١٨١٢، إنه يسمع «تأوهات العالم الشرقي، تنطلق نحو عنان السماء، طالبة الخلاص»، وأعلن فرحًا أن «صهيون سيزدهر».[٥]

وإذا كان صهيون يعنى بذلك الأرض الموعودة في أمريكا لقائد الحجاج ويليام برادفورد William Bradford، أما ليفي بارسونز الذي عاش بعد ذلك بقرنين فكان يعني بصهيون الأرض الأصلية القديمة لإسرائيل، التي أصبح اسمها الآن فلسطين؛ وفي حين أنه كان يمكن تحويل ديانة الكثيرين حول العالم، فإن المبشرين آمنوا أن فلسطين فقط هي البلد التي يمكنهم أن يحدثوا أثرًا فوريًّا وعميقًا فيها، فهناك ستمتزج رغبتان معًا؛ تلك التي يتمناها البروتستانت في الاتحاد مع أسلافهم الروحيين — أي اليهود — والأخرى الرغبة الشديدة في عودة المسيح.

لم يكن الانبهار الذي أظهره كثير من الأمريكيين البروتستانت نحو اليهود نابعًا من أي اتصال مكثف معهم، فقد كان يعيش في الولايات المتحدة في ذلك الوقت نحو ٤٠٠٠ يهودي، وهو ما كان يمثل نحو ٠٫٠٤٪ من مجموع السكان حينئذ، ولم ينبع من الرغبة في عقد صداقة شخصية معهم، بل الحقيقة أن بعض الكتابات الإنجيلية المبكرة تضمنت بعض الملحوظات التي قد تبدو اليوم معادية للسامية بالتأكيد، منها إصرارهم على أن يُعَمَّد جميع اليهود في النهاية؛ ومهما كانت المشاعر التي كانوا يكنونها لهم كمواطنين ينتمون لنفس الوطن، فإنها كانت مختلفة عن عواطف الإنجيليين نحو اليهود باعتبارهم أبناء عمومتهم في المعتقد والأداة للخلاص المستقبلي، وعن طريق الإسراع لتنفيذ وعود الرب بإعادة اليهود إلى موطنهم الأصلي، سوف يتمكن المسيحيون من إعادة تشكيل ظروف سيادة اليهود كما كانت في عهد المسيح، وتمهيد المسرح لعودته، كان هذا هو مفهوم الإعادة أو «العودة وإعادة الوضع إلى ما كان عليه» وكان

تأثيره عظيمًا؛ لأن اللاهوت المسيحي صور في إحدى المرات خسارة اليهود لسيادتهم على أنه عقاب لرفضهم فكرة الظهور الأول للمسيح، ولكن الإنجيليين كانوا يرون إعادة إحياء الدولة اليهودية على أنه شرط أساسي للظهور الثاني للمسيح على الأرض.

لم يكن مفهوم الإحياء جديدًا على البروتستانتية الأمريكية ولا مقصورًا عليها، ويمكن أن نجد أفكارًا مشابهة لها في مقال سير هنري فينش عام ١٦٢١ الإحياء العالمي العظيم أو دعوة اليهود، ويمكن أن نجد صدى له أيضًا في أشعار جون ميلتون John Milton، وفلسفة جون لوك John Locke. وفي طريق التطهريين إلى العالم الجديد صحبهم هذا المفهوم إلى هولندا، حيث طلبوا من الحكومة الهولندية «نقل أبناء إسرائيل وبناته إلى الأرض التي وُعد بها آباؤهم في صورة ميراث أبدي». وكان بعض رجال الدين واللاهوت الأمريكيين المستعمرين، من أمثال جون كوتون John Cotton، الوزير الرئيسي في ماساتشوستس باي، وإنكريس ماثير Increase Mather، أول رئيس لجامعة هارفارد، قد دعوا إلى القضاء على الإمبراطورية العثمانية لإتاحة عودة اليهود، وبحلول الصحوة الثانية، كان حلم إعادة الحكم اليهودي إلى الأرض المقدسة يتحول سريعًا إلى مبدأ ثابت؛ فقد تنبأ عزرا ستايلز من جامعة ييل بأن «عودة الاثني عشر سبطًا إلى الأرض المقدسة» سيحدث انفجارًا من الطاقة الروحية يكفي «لتحويل العالم أجمع». وتناول رجل دين آخر من نيو هيفن، هو ديفيد أوستن David Auustin، هذه النبوءة حرفيًّا، وأنفق كل مدخراته في بناء موانئ وفنادق ومخازن استعدادًا لمغادرة اليهود؛ وفي عام ١٨٠٦ صرح آزا ماكفارلاند، وهو أحد أبناء طائفة البريسبيتاريان في ماساتشوسيتس زمن حادثة كومة القش أنه «عندما تنهار الإمبراطورية سيبدأ اليهود في العودة إلى فلسطين وسيأخذ المسيح لنفسه الملك والسلطة».[٦]

ويجب ملاحظة أن حمى الإحياء ظهرت متجاهلة أي تفكير في الوجود الحسي أو الرغبة السياسية أو الدينية لآلاف العرب الذين كانوا يعيشون في فلسطين حينذاك. وبدلًا من التركيز على شعوب لا هوية لها فضل الأمريكيون وقتها التركيز على أحداث الشرق الأوسط؛ فقد بدا غزو نابليون لمصر، وهزيمة قراصنة البربر، على شاكلة مقدمات وإشارات لتحرير فلسطين، وتنبأت جريدة نايلز ويكلي ريجستر في عدد من أعداد عام ١٨١٦ بأنه حالما يُطرد العثمانيون «الضعفاء المتخلفون، سيجعل اليهود الصحراء تزدهر كزهرة، وستنافس القدس مرة أخرى مدن العالم في جمالها وبريقها وثروتها». وتنبأ إلياس بودينو Elias Boudinot، رئيس مؤتمر القارة، ومؤسس جمعية الإنجيل الأمريكية أن «قوة الله العظيم ستدعو اليهود من منفاهم وتعيدهم إلى بلدهم المحبوب، فلسطين». وتخيل جون آدامز بطريقة أوضح «مائة ألف إسرائيلي، منظمين مثل جيش

فرنسي، يسيرون نحو فلسطين ويغزونها». وكتب القنصل الأمريكي السابق في تركيا عام ١٨١٩ إلى الرئيس السابق موردخاي نوا: «أتمنى حقيقة أن يعود اليهود مرة أخرى فلسطين كأمة مستقلة.» وفي نفس ذلك العام استقل بليني فيسك وليفي بارسونز البارجة سالي آن Ann Sally وبدآ أخيرًا رحلتهما إلى الشرق.[٧]

يوم الأشياء الصغيرة

اتبع بارسونز وفيسك طريقًا في البحر المتوسط كثيرًا ما سار فيه التجار الأمريكيون، وهي رحلة تستغرق ستة أسابيع من نيو إنجلاند إلى سميرنا (إزمير اليوم) على سواحل تركيا على بحر إيجة، ولا يمكن للمرء أن يتخيل مشاعر الصدمة والغربة التي شعر بها هذان القسان الشابان عندما دخلا هذه المدينة الشرق أوسطية القديمة، التي يقال إنها مهد ميلاد هوميروس، فعلى عكس مدينة بوسطن المنظمة وغير المكدسة التي تركاها وراءهما، كانت سميرنا «لؤلؤة الهلال الخصيب» مكونة من مجموعة من الحارات الملتوية والروائح الغريبة والموسيقى غير المتناغمة؛ وقال أحد الزائرين الأمريكيين المعاصرين معلقًا على ذلك: «لا يوجد بين الولايات المتحدة وتركيا أي وجه شبه يجعلهما ينتميان إلى نفس العالم.» ومع ذلك، فقد استقبل مسيحيو سميرنا اليونانيون الذين كانوا يمثلون نحو نصف عدد سكان المدينة الأمريكيين بكل حفاوة وتقدير، وقضى القسان الشهرين التاليين في التأقلم مع ما حولهما وفي دراسة اللّهجة والعادات المحلية، ونصحهما صامويل ورسيستر Samuel Worcester، سكرتير المجلس الأمريكي، قائلًا: «لا تقوما بأي فعل مجنون أو متسرع، ولا بما يمكن أن يصدم مشاعر الناس هنا، ولا تعرضا أنفسكما لغضب الآخرين ومقتهم.» ووفقًا لهذه النصائح، أنفق فيسك وبارسونز ٤٨ دولارًا على شراء ملابس شرقية وستة دولارات ونصف لتلقي دروس في اللغة العربية.

وبدءًا من شهر مارس/آذار عام ١٨٢٠ رحل الاثنان في رحلة تمتد ٣٠٠ ميل داخل آسيا الصغرى، زائرين كل واحدة من المدن السبع التي زارها القديس بولس، وقاما باستطلاع المنطقة بهدف «التبشير»؛ ومع وجود عدد قليل من اليهود هناك، فإن المنطقة كانت مكدسة بالسكان من المسيحيين الشرقيين، واليونانيين الأرثوذكس، والأرمن، وكان البروتستانت ينظرون إليهم باعتبارهم على ضلال روحانيّ ولديهم استعداد تام لإعادة الميلاد، وكان هناك أيضًا مسلمون يعتبرهم الأمريكيون أتباع عقيدة غريبة وغامضة، وأنهم في أشد الحاجة إلى الخلاص؛ وكتب ورسيستر بخط بارز لفيسك وبارسونز: «ما الذي يمكن تحقيقه؟ وبأي الوسائل؟» لم يكن السؤال يخص اليهود فقط، بل يخص أيضًا المسلمين والمسيحيين، ليس فقط في فلسطين، بل أيضًا في «مصر وسوريا وفارس».

ومع ذلك فقد ظلت فلسطين التي هي «ساحة الأحداث العظيمة» هدفهما الأساسي، وموقعهما المفضل لأول وقفة دائمة لهما. اختار بارسونز أن يذهب أولًا. فكتب يقول: «السماح بمجرد توقع الخير الروحاني الذي سيعود على صهيون هو ميزة لا يمكن التعبير عنها، فبروح موسى سيمكنني أن أقود جيوش إسرائيل إلى كنعان الروحية»؛ حمل بارسونز معه أحمالًا ثقيلة: خمسة آلاف كتاب ديني، منها أناجيل بتسع لغات مختلفة. وتلقى من أصدقائه المبشرين الإنجليز نصيحة «أن يذهب في هيئة الرجل النبيل المثقف، وأن يمارس الرياضة في الصباح، وأن يأكل القليل من الفاكهة في البداية، وأن يرتدي ملابس ثقيلة، وعمامة على رأسه». ونصحوا له أيضًا أن يسافر فقط في عيد الفصح وموسم الحج، عندما لا يكون الأجانب محل تشكك ومظهر ملفت في فلسطين.[٨]

ومع أن فلسطين لم تكن بلدًا مميزًا في ذلك الوقت، فإنها كانت محل اهتمام العثمانيين، ولو لم يكن ذلك لأي سبب آخر سوى مركزها كملتقى الديانات الرئيسية، وأظهرت السلطات حساسية خاصة نحو القدس؛ فقد كان أهل الملل المختلفة يتمتعون باستقلالهم، وكان الأجانب ممنوعين من الإقامة فيها، ولم يكن لدى الحاكم ولا رؤساء تلك الملل أي استعداد لاستقبال أجنبي من فئة مسيحية تهدف إلى إحداث اضطراب في هذا التوازن القديم قدم الدهر، ولكن بارسونز تذكر مهمته — التي عبر عنها ورسيستر بقوله «إعادة العالم إلى الرب وإلى الأخلاق وإلى السعادة». فصمم على الخروج من سميرنا في ديسمبر/كانون الأول ١٨٢٠، ودخل المدينة المقدسة بعدها بثلاثة أشهر، متجمدًا من البرد وعلى أرجل مصابة متعبة بسبب السير وسوء حالة الطرق.

ادعى بارسونز أنه أول مبشر أمريكي يصل إلى تلك «الحوائط المقدسة»، وعلى عكس بقية البلاد، التي كان المسافرون الغربيون يجدونها متخلفة، حتى بالمقارنة بمناطق أخرى من الشرق الأوسط، وقليلة السكان، وفقيرة ومقفرة للغاية، انبهر بارسونز بمدينة القدس؛ فعندما تسلق جبل الزيتون ونظر من أعلى إلى المدينة القديمة غربًا، وإلى البحر الميت في الجنوب الغربي، رأى أنه «لا يوجد مكان في العالم يمتلك منظرًا أجمل من هذا، أو يرتبط بأحداث أكثر قداسة أو إلهامًا». وقد تلقى ترحيبًا دافئًا غير متوقع من الكنائس هناك، خاصة من اللاتينيين، لكنه لم ينجح في تحويل أي يهودي من يهود المدينة البالغ عددهم عشرة آلاف إلى الإنجيلية، وما أحزنه أكثر أنه علم أن القانون الإسلامي يحرم بناء كنائس جديدة، ويحدد عقوبة ارتداد المسلم عن دينه بقطع رأسه، لذلك كان أكثر المرشحين للتحول هم الأرمن واليونانيون، «المسيحيون بالاسم» كما كان المبشرون يسمونهم، وكانوا يرونهم أتباع «مسيحية فاسدة قديمة»، وكان بارسونز يأمل أن تقوم هذه التجمعات المحلية بدور الرابطة الطبيعية مع اليهود والمسلمين، وأن

تلهمهم بالتزامها وتمسكها بالمسيح، فكتب في تقرير لفيسك بعد وصوله إلى القدس بنحو ثمانين يومًا: «هذا هو بالفعل مركز العالم أجمع، لذلك لا يجب أن نتخلى عن فكرة الوقفة الدائمة هنا، فالباب قد انفتح بالفعل.»

اجتمع بارسونز بزميله مرة أخرى في ربيع عام ١٨٢١، ولكن الوضع في سميرنا كان قد تدهور في تلك الأثناء، فقد ثار اليونانيون، وهي جزء من أملاك الدولة العثمانية منذ القرن الخامس عشر، وسرعان ما امتدت نيران الثورة إلى التجمعات اليونانية في الأناضول، وبدافع من العداوات والكراهية القديمة اكتسح العساكر الأتراك المنطقة، وحرقوا وقتلوا دون تمييز، واضطر المبشران الأمريكيان إلى الاختباء في سفينة أمريكية زائرة، هي يونايتد ستيتس؛ وكانت هذه هي المرة الأولى من بين عدة مرات ساعدت فيها السلطات الأمريكية في الشرق الأوسط ممثلي العقيدة الأمريكية، ومع أن بارسونز أصبح آمنًا، فإنه أصيب بالدوسنتاريا. ومع ذلك فقد ظل متفائلًا وواثقًا بأن «الاضطرابات الحالية ستضمن انضمام كل الممالك إلى المسيح»؛ ولكن حتى يحدث ذلك، قرر الأمريكيان أن يرحلا عن الأناضول، وأن يعودا إلى الأمان النسبي في مدينة الإسكندرية.

بقي بارسونز حيًّا بصعوبة حتى وصوله إلى المركب، وكان من الضروري حمله إلى خارج السفينة وهو يرتعد، وفي شتاء عام ١٨٢٢ رافق فيسك زميله في مرضه، مقدمًا له الدواء ومصليًا من أجل شفائه، ولكن مجهوداته ذهبت سدى، فكثيرًا ما كتب بارسونز عن رغبته في الاستشهاد، وفي فبراير استجيبت صلواته.

أصاب خبر وفاته المجلس الأمريكي بالذهول، وألف أحد القساوسة من شباب المبشرين مرثية قال فيها:

روحك يا بارسونز جذبتها أغنية
تنشر جناحيها وتطير لأعلى ... لا تتعب
من سيكدح من أجل أبناء يهوذا؟
ومن مثلك سيدمر قوم محمد؟[٩]

ولكن ذلك لم يكن ليؤثر في حركة التبشير ولا في حماس بليني فيسك، فقد رحل إلى مالطا لاستلام مطبعة من المجلس وللقاء بديل لبارسونز، وكان ذلك البديل هو القس جوناس كينج Jonas King، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أمهرست، كان قوي البنية، وقد تطوع من قبل لمدة ثلاث سنوات للخدمة في مجال التبشير، وقابل الاثنان بدورهما الإنجليزي جوزيف وولف Joseph Wolf، وهو ابن لحاخام يهودي كان قد تحول إلى الكاثوليكية قبل أن يصبح إنجليكانيًّا، ويتزوج من ابنة إيرل أوكسفورد.

وقالت التعليمات الجديدة التي وردت لهذه المجموعة، وكانت تهدف إلى تشجيع المبشرين على المثابرة في نشر النور والحياة في مناطق الظلام وموت الأخلاق: «لا ترهقوا أذهانكم وإلا ستفقدون أملكم وشجاعتكم.» رحل فيسك وكينج وولف إذن إلى مصر، وقد قررا استكمال الرحلة إلى فلسطين.

تابعوا النيل حتى طيبة، ووزعوا نحو ٩٠٠ إنجيل و٣٧٠٠ منشور ديني، وتحاوروا مع الشخصيات الدينية التي قابلوها، سواء أكانوا حاخامات أو شيوخًا أو قساوسة، وقابلوا أيضًا الحاكم اللبناني المنفي بشير الثاني المتحول من الإسلام إلى المارونية، الذي كان سعيدًا للغاية عندما عرف أن ضيوفه أمريكيون، وسجل فيسك في مذكراته: «حيانا بحرارة، ومنحنا نظرة أرضت غرورنا بكوننا أمريكيين.» ولم يكن انبهار الأمير الدرزي بخليفة المبشرين بسيطًا، فدعاهما إلى زيارة قلعته في لبنان، وقبل الأمريكيان العرض، واستأجروا دليلًا و١٣ جملًا ليعبروا بها صحراء سيناء، وهم يغنون ويتحدثون معًا. ثم ساروا شمالًا نحو البحر المتوسط إلى فلسطين، حيث كان استقبالهم أكثر جفاءً وبرودًا بكثير، ويتذكر جوناس «تقاطر العرب علينا كرخات المطر ... بسيوفهم وبنادقهم وعصيهم الغليظة ... مطلقين صرخات عالية كصرخات الحرب لدى متوحشي أمريكا الشمالية». فأصيب فيسك إصابة سطحية في رأسه، ونجت المجموعة، ولكن بدلًا من أن تتجه داخليًّا إلى الطريق الخطر نحو القدس، استمروا في السير بمحاذاة الساحل، ووصلوا أخيرًا إلى بيروت.[١٠]

كانت المدينة بسكانها الثمانية آلاف ومنازلها البيضاء وكنائسها المنتصبة على التلال المطلة على الخليج أكثر نظامًا من القدس وسميرنا (أزمير)، وأكثر أمانًا أيضًا؛ ورغم قربها من الأرض المقدسة، فإنه لم يكن بها أي مظهر من مظاهر عدم الاستقرار السياسي، وكان موقعها القريب من البحر يسهل الهرب، بالإضافة إلى أن الدبلوماسيين البريطانيين كان وضعهم مستقرًّا في بيروت، وكلهم حماس لمد حمايتهم لأناس يشاركونهم في الدين والثقافة، وأهدافهم غير استعمارية، أما أكثر ما أسعد المبشرين فكان وجود أعداد كبيرة من المسيحيين الشرقيين والدروز وجالية صغيرة من اليهود في جبل لبنان السوري، مما يعنى فرصا أكبر للتحول إلى المسيحية.

وفي الوقت الذي عاد فيه كينج إلى الولايات المتحدة تابع وولف رحلته، واستقر فيسك في بيروت، وقام بزيارة مناطق مختلفة، وصار يجيد العربية واليونانية، ويكتب لجريدة ميشينري هيرالد في موطنه مقالات مفصلة عن أسفاره، وقرر في ذلك الوقت الإجابة على أسئلة صامويل ورسيستر: «ما الذي يمكن تحقيقه؟ وبأي الوسائل؟» فإذا لم يتمكن المبشر من تحويل شعوب الشرق الأوسط، فيمكنه على الأقل تعليم أطفالهم،

فقد آمن فيسك أنه عن طريق تعليمهم القراءة والكتابة حسب الطرق الأمريكية، يمكنه تفتيح أذهان الناس لاحتمال الخلاص عن طريق المسيح، وفتحت مدرسة فيسك أبوابها للقبول باعتبارها المدرسة الأولى من بين عدة مؤسسات أمريكية قُدِّرَ لها أن تغير وجه الشرق الأوسط، عام ١٨٢٣.

شهد هذا العام أيضًا وصول تعزيزات جديدة من أمريكا منهم: أيزاك بيرد Isaac Bird، خريج جديد في جامعة ييل، ووليام جوديل William Goodell من دارتموث، كان الاثنان قد جلبا زوجتيهما، وهو ما عكس وعي المجلس بالدور الذي يمكن أن تقوم به النساء في الأنشطة التبشيرية، وقد ساعد بيرد وجوديل فيسك في إدارة المدرسة، وانضما إليه في جولات تبشيرية في كثير من مدن الشرق الأوسط، من دمشق إلى أنطاكية وحلب.

كان التفاؤل والحيوية اللذان أظهرهما المبشرون مبررًا للاحتفال في بوسطن، فقد تفاخر المجلس الأمريكي بنجاحه في توصيل الإنجيل «للدروز والموارنة والسوريين واليونانيين»، وفي تأسيس مراكز دائمة في «هذه البقعة من العالم المثيرة للاهتمام للغاية فلسطين». وتفاخر المبشرون بأنه «غرست معايير الصدق والاستقامة، ولن تقتلع من مكانها أبدًا». وتنبأ سيرينو دوايت Sereno Dwight، المؤرخ الشهير وقس مجلس الشيوخ الأمريكي، باليوم الذي «سيشق فيه المبشرون المحملون بالكتب طريقهم إلى أكثر الأركان المسلمة ظلمة، وذلك عندما يجري الإعلان عن مد الخلاص في مصر والجزيرة العربية وفارس».

مثل هذا الإطراء الذاتي كان في الحقيقة بدون سند ولا مبرر، فبالرغم من مجهودات المبشرين غير المنقطعة، فقد نجحوا فقط في تحويل عدد صغير جدًّا من المسيحيين الشرقيين، وكان معظمهم من الفقراء المعدمين، وليس أمامهم خيار سوى قبول وظائف أو صدقات من الكنيسة، وفي لبنان تصاعدت معارضة المارون، وهم فئة كاثوليكية مرتبطة تقليديًّا بفرنسا وتدير سائر مدارسها على نفس نهج مدارس الليسيه الفرنسية، وأكد أحد الأساقفة المارونيين «أنه من غير المقبول بأي حال من الأحوال تعليم النساء قراءة كلمة الرب، فهن على قدر كاف من السوء الآن، علموهن القراءة والكتابة ولن يكون هناك عيش محتمل معهن!» وهدد المطران بفصل أي ماروني من الكنيسة يحضر قداسًا بروتستانتيًّا، وأمر أن تتلف كل المنشورات التبشيرية، ومن بينها الإنجيل.

كانت العقبات كبيرة كذلك في مناطق أخرى من الشرق الأوسط، واعترف إلناثان جريدلي Elnathan Gridley، خريج جامعة ييل بعد وصوله إلى سميرنا «أزمير»

عام ١٨٢٥: «لا يتحدث المبشرون بأي قدر من الثقة عن تحويل شخص واحد من السكان المحليين، فلا يستطيع عشرة منهم أن يدعوا أنهم ينصتون للخطبة التي تلقى عليهم.» ورسم إيلي سميث Eli Smith صورة أكثر كآبة، وهو لغوي موهوب أعاد إحياء حروف اللغة العربية، وجاب المنطقة بتفويض من المجلس الأمريكي. فمع حزنه على «بلاد الظلام هذه، ووجود أشباح للموت والجهل واللامبالاة والشر» فقد حكى عن حادثة في مصر بين رجل مسلم وزوجته اللذين كان قد تحولا حديثًا إلى المسيحية، فقال: «جيء بالزوجة أمام المحكمة، وأُدينت، وحكم عليها بالغرق في النيل؛ استمرت في الصراخ: «سأموت مسيحية» ولكن ذلك زاد من غضب منفذي الحكم، فسارعوا بإعدامها، في أثناء ذلك كانت النار قد أوقدت على الشاطئ لحرق زوجها، لكنه أنقذ نفسه بالشهادة بأنه مسلم، أما زوجته فلم تعترف بذلك أبدًا».

وواجه بليني فيسك نفس المصير تقريبًا في القدس، فقد قُبِضَ عليه لتوزيعه كتيبات دينية عام ١٨٢٥، حيث وضعت الأغلال في يديه وعذب، ثم أفرج عنه فقط بعد التماس شخصي من القنصل البريطاني، وتساءل فيسك: «هل كان المسيح نفسه سيحقق أي نجاح تحت هذه الظروف؟»[١١]

في هذه الأثناء كان فيسك مرهقًا ومريضًا وفي حالة نفسية سيئة، كان الطلبة بمدرسته — ومعظمهم من اليهود — قد باعوا كتب العهد الجديد التي بحوزتهم كورق، وقُبض على واحد من القليلين الذين تحولوا على يديه، واسمه أسعد الشدياق، بتهمة الكفر وترك ليموت في السجن. وبسبب مطاردة الموارنة والمسلمين لفيسك شعر أيضًا بأن المجلس يضيق عليه الخناق، وقد اتهمه فيسك بإعادة تحرير تقاريره للتقليل من صداقة المطارنة اليونانيين والصعوبات التي واجهها أثناء محاولته تحويل اليهود؛ وعندما تحدد موعد عودته إلى الوطن في أكتوبر/تشرين الأول ١٨٢٥، قام فيسك برحلة أخيرة إلى الناصرة، لكنه اختطف في الطريق وضرب من قبل عصابات من العرب، وحمل فيسك مرة أخرى إلى بيروت، وعولج هناك بالأعشاب، ومات ميتة مؤلمة للغاية.[١٢]

وكتب أحد رجال الدين المجهولين: «يمكن للمرء إعادة كتابة كتاب اليهود بالأسماء الشهيرة للعاملين المسيحيين في بلد الإنجيل. ويجب أن يأتي على رأس تلك الأسماء بليني فيسك وليفي بارسونز»؛ ورغم أنف الطلبة المتمردين ومعارضة المطارنة الموارنة لم يكتب لمدرسة فيسك البقاء فقط، بل توسعت أيضًا، وبنهاية العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت هناك تسع مدارس عاملة في لبنان، انضم إليها نحو ستمائة طالب،

أكثر من سدسهم من الفتيات، وأكدت محطة بيروت للمجلس أن «مستقبل واحتمالات النفع لم تكن مزدهرة أكثر من ذلك في يوم من الأيام، وأنه يبدو أن بابًا واسعًا وفعالًا ينفتح بالفعل أمامنا»؛ وبتشجيع على هذه الثقة، قام المجلس بإرسال عدد إضافي من المبشرين إلى جبل لبنان، ومن هناك إلى المنطقة بأسرها، وكان صامويل ورسيستر قد حذر فيسك وبارسونز «ألا يحقرا يوم الإنجازات الصغيرة».[١٣]

ومع أن إنجازاتهما بدت صغيرة للغاية، فقد فتحت طرقًا وقنوات أمام إدخال وعرض العقيدة الأمريكية، دينيًّا ومدنيًّا، إلى الشرق الأوسط؛ وكانت الحقب التالية بمنزلة فترة محددة وحاسمة لكل من أمريكا والشرق الأوسط، فقد تميزت تلك الفترة من تاريخ الشرق الأوسط بعدم الاستقرار بسبب الضعف المتنامي للدولة العثمانية، وبسبب محاولات الدول الكبرى اقتطاع مناطق لتكون تحت السيطرة الأوروبية الكاملة، وهو ما أدى إلى فترة طويلة من التقلبات وبحار بلا شطآن من الدماء، وفي تك الأثناء كان الأمريكيون المستعمرون يتجهون غربًا نحو كاليفورنيا وأريجون، ونحو فلوريدا وتكساس جنوبًا، وكان الاتحاد قد ضم مناطق محددة حديثًا على الخريطة، بعضها لديه عبيد وبعضها لا يملك عبيدًا، وقد أعاد هذا إلى الأذهان التساؤل عما إذا كان بإمكان هذه الولايات الممتدة أن تظل موحدة بالفعل إلى الأبد.

وأفرز التوسع الأمريكي وعدم استقرار الشرق الأوسط علاقات جديدة شديدة التشابك، وبمساعدة التكنولوجيا الحديثة ووسائل الانتقال الثورية تمكنت أعداد هائلة لم تشهد من قبل من الأمريكيين من السفر إلى الشرق الأوسط، واختراق بعض أجزائه التي لم يكن الوصول إليها ممكنًا قبل ذلك، وكانت شعوب المنطقة عادة ما تحسن استقبال هؤلاء الزائرين، والتفاعل معهم على عدة مستويات؛ تجاريًّا وتعليميًّا واستراتيجيًّا.

وفي قلب هذه العلاقة الديناميكية كان لا بد أن تتحسن كثيرًا موضوعات محددة لعلاقة أمريكا بالشرق الأوسط، كالقوة والإيمان والخيال. وبدلًا من بعض المغامرين المنفردين كجون ليديارد، وأصحاب دعوة انتشار القوة كويليام إيتون، ومبشرين كبليني فيسك جاء أناس يحملون مزيجًا من هذه الصفات جميعًا، كالتجار الإنجيليين، والبحارة المبشرين، ورؤساء الدول المستكشفين، واضطر واضعو السياسات الأمريكيون لأول مرة إلى الاختيار بين الاهتمام بمصالح البلاد التجارية والاستراتيجية في الشرق الأوسط، وبين اتباع مثلهم الأخلاقية والروحية.

الباب الثاني

الشرق الأوسط وأمريكا ما قبل الحرب الأهلية

الفصل الخامس

اندماج وصراع

في يونيو/حزيران ١٨٢١، وتحت لهيب شمس السودان، توقف ضابط مصري ليشرب من ماء النيل، كان مسافرًا لمدة تسعة أشهر، متحديًا التيارات التي تحطم القوارب، ورجال القبائل العدوانيين، والحرارة الحارقة، وتقدم ببطء هو وقواته على متن قوارب محملة بالمدافع والذخيرة والمؤن، كانت مهمتهم هي إخضاع العصابات التي تعوق سير التجارة المصرية داخل أفريقيا، بالإضافة إلى توسيع نفوذ الحاكم المصري محمد علي؛ وكان اسم الضابط محمد أفندي، الذي يصفه معارفه بأنه «أبيض البشرة، رقيق المظهر» — وهو لون بشرة غير شائع في الشرق الأوسط — لكن تبدو عليه «سيماء الجدية والسكينة التي يتميز بها المسلمون»؛ جثا محمد أفندي على ركبتيه وضم كفيه ورفع بهما الماء إلى شفتيه الجافتين، ولكن قبل أن يرشف رشفة واحدة دعا السماء — أو هكذا كتب فيما بعد — «أن تمنح الرخاء لجمهورية الولايات المتحدة الحرة العظيمة».

ولد محمد أفندي قبل ذلك التاريخ بأربعة وثلاثين عامًا، بكيمبريدج ماساتشوسيتس، في زمن مؤتمر الدستور، وسمي باسمه المسيحي: جورج بيثون إنجليش George Bethune English، وكان ضمن دفعة الخريجين من جامعة هارفارد عام ١٨٠٧، درس القانون أولًا، ثم تحول إلى دراسة اللاهوت والعبرية، وكان إنجليش — شأنه شأن ليفي بارسونز وبليني فيسك والعديد من طلاب المدارس الإكليريكية الذين درسوا أسفار موسى الخمسة في ذلك الوقت — يكن احترامًا عميقًا لليهود ورغبة في تصحيح «الشرور العظيمة والتعذيب الشيطاني» الذي تعرضوا له من قبل المسيحيين، ولكنه تمادى إلى ما هو أبعد من الندم، فقد قادته معرفته بالعهد القديم إلى التشكيك في صحة الإنجيل تاريخيًّا ودينيًّا، ودفعته إلى قراءة ترجمة إيطالية للقرآن تعود إلى عام ١٦٨٨، واستخلص منها «أن المسلمين، الذين يعدون الأكثر عددًا بين أصحاب الأديان في العالم اليوم» أولى بنبوءات الإنجيل من غيرهم، وأنهم أطاعوا نواهي موسى عن عبادة الأوثان، «مثل عبادة الملائكة والأموات التي انتشرت في ثلاثة أرباع العالم المسيحي»، وليس من

المستغرب إذن أن تثير هذه الهرطقة هجومًا مضادًّا من رجل دين متخرج في جامعة هارفارد هو ويليام إيليري تشاننج William Ellery Channing ومن إدوارد إيفيريت Edward Everett، عضو مجلس الشيوخ ووزير الخارجية فيما بعد، ولكن ذلك لم يثن إنجليش، وترك كيمبريدج باحثًا عن مصادر جديدة للإثارة في العالم.

رحل غربًا، وهو ما كان يعني في ذلك الوقت نحو أوهايو، وجرب العمل بالصحافة قبل أن يستقر على ضفاف نهر واباش عضوًا في طائفة Puritanical Harmonie، وعندما سئم من المثالية، رحل عام ١٨١٧ إلى واشنطن، حيث زار صديقًا قديمًا، هو جون كوينسي آدامز، وزير الخارجية الجديد؛ وحصل آدامز لصديقه إنجليش على وظيفة ملازم أول بحري في فيلق البحر المتوسط، لكن إنجليش مل أيضًا من الخدمة على السفن، فحروب البربر كانت قد انتهت، وبعد وصوله إلى مصر استقال من البحرية الأمريكية.

يبدو أن الشرق الأوسط قدم لهذا المتمرد كل ما كان ينقص حياته؛ الغرابة والمغامرة والدين الذي كان فيما مضى مصدر إلهام له في كليته، وبدلًا من العودة إلى ماساتشوستس التقليدية المملة، ظل إنجليش في مصر، وتحول إلى الإسلام، وسمّى نفسه محمدًا.[١]

من هارفارد إلى سنار

كان إنجليش منفتح الذهن إلى درجة الهرطقة، ولم يكن نموذجًا للأمريكيين في ذلك الزمن؛ لكنه أظهر في ارتباطه بالشرق الأوسط نفس السمات التي جمعت بين شخصيات متباينة مثل جون ليديارد وليفي بارسونز ووليام إيتون، فكان يلهمه الإنجيل، وتفتنه أساطير الشرق، وتسحره أبهة السلطان، وبذلك كان إنجليش يمثل اندماجًا لعناصر العلاقة بين بلاده والشرق الأوسط، وهو مزيج يزداد انتشارًا.

في عام ١٨٢٠ كان إنجليش قد أتقن العربية والتركية، وكان مستعدًّا لوضع مواهبه في خدمة الدولة المصرية، وعن طريق وساطة القنصل البريطاني، تمكن من مقابلة إسماعيل باشا، نجل محمد علي، انبهر إسماعيل بالخبرات المتنوعة لإنجليش، وكان أكثر ما أثار اهتمامه مدة خدمته الوجيزة بالجيش، فقد كانت مصر وقتها تعمل على تحديث جيشها، وكانت تتطلع من أجل ذلك إلى الاستعانة بمستشارين أوروبيين، ومع أن إنجليش خدم في البحرية الأمريكية، ولم يتخط قط رتبة الملازم، فقد خرج من اجتماعه مع إسماعيل حاملًا لقب topji bashi، أو رتبة لواء، ومسئولًا عن المدفعية المصرية.

وإذا كان هدف إسماعيل هو رفع كفاءة الهجوم المصري، فإن إنجليش — بنزعته الرومانسية — لم يكن أفضل من يقوم بتلك المهمة، فبدلًا من تحديث فرقته، حاول الأمريكي إحياء أحد أقدم الأسلحة المصرية، وهي مركبة حربية، عجلاتها مزودة بنصال لتقطيع المشاة إربًا. فشلت التجربة بالطبع فشلًا ذريعًا، وقبل أن يقوم بتجربة ثانية، صدرت أوامر لإنجليش بقتال المتمردين في السودان، وفي حين كان إسماعيل يتقدم برًّا مع طليعة الجيش، كان على إنجليش ومعظم فرقته أن يتبعوهم على مياه النيل. وفي سبتمبر/أيلول ١٨٢١ ركب إنجليش وقواته المؤلفة من ستة آلاف جندي — من العثمانيين والبدو وأهل شمال أفريقيا — قواربهم من شلال وادي حلفا، متوجهين نحو مناطق غير مألوفة لمعظم المصريين، ومجهولة تمامًا للغربيين.

كانت الرحلة عبر مائة ميل من الدوامات والشلالات شاقة للغاية، ويذكر إنجليش أن «جانب القارب قد اقترب إلى نحو ياردة من الزبد الأبيض، ونزع ريِّس المركب (قائد الدفة) عمامته عن رأسه، ورفع يديه معقودتين إلى السماء صارخا: «لقد ضعنا!» أما بقية أفراد الطاقم فكانوا يتضرعون إلى الله ليساعدهم، ونجا المستكشف من هذه المحنة ليصاب بالتهاب شديد في عينيه أفقده بصره لأيام، ومع ذلك فقد شفي إنجليش واستطاع العبور بكل القوارب ما عدا واحدًا رسا عند النيل الأبيض.

ومثلما فعل ويليام إيتون قبله بخمسة عشر عامًا، قاد إنجليش رحلة استكشافية كبيرة عبْر جزء قاحل من الشرق الأوسط، ومثل جون ليديارد، ترك وصفًا حيًّا لكل ما رآه، من القرى المهدمة إلى المناطق الجرداء القاحلة، فذكر سوء حالة العبيد، وعجرفة اللصوص، والقلق الذي أصاب رجل قبيلة في العشرين من عمره، أجريت له عملية ختان، أما أكثر ما بهره فكان المعابد والآثار، التي «أصبحت الآن أطلالًا، يعلوها التراب»، وهي التي كانت تقف بين شاطئ النهر. كان كثيرًا ما يزورها متسللًا من فرقته في الليل، وشهد إنجليش بأن «رحلة في النيل يمكن أن تعد درسًا في التاريخ الأخلاقي للبشر، ففي كل مرحلة تقريبًا نقابل آثارًا تدل على دكتاتورية الإنسان وإيمانه بالخرافات».

قاد إنجليش قواته من البحر الأبيض عبر المناطق الريفية التي دهمها الخديوي إسماعيل بفرسانه حديثًا، وعبر القرى المحترقة والحقول المقفرة المليئة بالجثث، وأحنقه سلوك الجنود المصريين، الذين كانوا يسرقون وينهبون ويخربون، فكتب يسبهم سبًّا شديدًا. وشاهد فزِعًا أربعين منهم «وهم يدقون بالمطارق الثقيلة أوتادًا خشبية مدببة طولها ٦ أو ٨ بوصات في مؤخرات المتمردين»، ولكن كانت هناك مشاهد أكثر إيلامًا في انتظار إنجليش في سنار، وهي نفس المدينة التي حاول ليديارد الوصول إليها دون جدوى قبل ذلك بأكثر من ثلاثين عامًا، وجد إنجليش — بدلًا من الأنزال المزخرفة

المفعمة بالحياة التي كان يتخيلها — أربعمائة كوخ قذر مصنوعة من الألياف، يسكنها أناس «مقززون»، يأكلون القطط والقوارض، أما نساؤهم فقال عنهن إنجليش إنهن «أقبح نساء الأرض اللاتي وقعت عليهن عيناي».

لم يكن إنجليش أحسن منهم حالًا بكثير، فقد كان رث الثياب وكان الجوع قد بلغ منه مبلغه، ومع ذلك فقد اعتبرت الحملة ناجحة، وبسطت مصر سلطانها على السودان، وحين كان إنجليش يتعافى في الإسكندرية، تعرف إلى المبشر جوزيف وولف Joseph Wolff اليهودي البريطاني الذي تحول إلى المسيحية وحاول إقناعه بالعودة إلى المسيحية؛ وقابل إنجليش أيضًا بليني فيسك، الذي كان حزينًا لفقد ليفي بارسونز الذي توفي قبل وقت قريب، وقام هذا المبشر أيضًا بمحاولات لإعادة الجنرال الضال إلى طريق الصواب، لكنها باءت بالفشل، وقال فيسك معنفًا إنجليش: «عداء عنيد للحق يسيطر على روحك، وأنا أعتبر حالتك من أسوأ الحالات التي عرفتها وأخطرها».

لم يكن إنجليش مهتمًّا بالرجوع إلى عقيدته السابقة، لكنه كان يحن إلى وطنه الأول؛ وفي نهاية عام ١٨٢٢ رحل عن مصر واستقل سفينة عائدًا إلى الولايات المتحدة، ونشر مذكراته عن رحلته الاستكشافية إلى السودان التي جذبت إليه وإلى الشرق الأوسط الكثير من الانتباه؛ وعلق جون آدامز — الذي صار عجوزًا في ذلك الوقت — بعد قراءته للكتاب قائلًا: «عما قريب سنجد البواخر الأمريكية ... تجوب نهر النيل مثلما تجوب أنهار هدسون وباتوماك والميسيسيبي.»[٢] وكان جون كوينسي، نجل الرئيس السابق، منبهرًا أيضًا، واستقبل إنجليش بسعادة في وزارة الخارجية، ودعا الوزير صديقه القديم إلى دخول السلك الحكومي مجددًا، وكانت مهمته تقوم على استخدام مهاراته النادرة في إبرام أول اتفاقية في التاريخ بين الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية.

الرشوة والنحاس الأصفر

كانت العلاقات بين أقدم إمبراطورية في العالم في ذلك الوقت وأحدث جمهورية فيه يغلفها الغموض منذ أواخر القرن الثامن عشر. فكانت نظرة الرئيس آدامز إلى الباب العالي نابعة من اعتباره أمرًا حيويًّا للتجارة الأمريكية و«مسرح السياسة في أوروبا»، وفي عام ١٧٩٨ اختار ويليام لوتون سميث William Loughton Smith — عضو الكونجرس عن ساوث كارولينا — ليكون أول مبعوث للولايات المتحدة في الدولة العثمانية، ولكن سميث رفض العرض، وظل المنصب شاغرًا. ورأى جيفرسون أيضًا أنه «من المناسب تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الباب العالي»، على الأقل مثل بروسيا، لكنه لم يتابع تنفيذ تلك الخطة قط، كانت الولايات المتحدة تهزم البربر، وتضاعف تجارتها إلى أربعة

أضعاف مع الشرق الأوسط، وتبعث إليه بمئات من المبشرين — كل ذلك بدون علاقات رسمية مع أكبر قوة في المنطقة.

وكان عدم وجود أي اتفاقية بين واشنطن والباب العالي يرجع — إلى حد بعيد — إلى المشاعر المعادية للإسلام في أمريكا، لكنه كان يعكس أيضًا سياسات معادية للولايات المتحدة في أوروبا، وقد عملت كل من بريطانيا وفرنسا على الحيلولة دون أي مفاوضات بين السلطان العثماني والرئيس الأمريكي، خوفًا من تعرض هيمنتهما الاقتصادية في الشرق الأوسط للخطر، وخلص تقرير عثماني أعد للسلطان محمود الثاني في ديسمبر/كانون الأول ١٨٢٠ إلى أنه «لن ينتفع الباب العالي من عقد اتفاقية تجارية مع الجمهورية الأمريكية، لأن مثل هذه الاتفاقية ستثير حفيظة بريطانيا العظمى»، وأضاف الكاتب أن الأمريكيين قد أظهروا سلوكًا عدوانيًّا في صراعهم الأخير مع الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في الجزائر وتونس وطرابلس، لهذا تعرض التجار الأمريكيون العاملون في الشرق الأوسط لفرض رسوم باهظة، وصاروا معرضين للاعتقال دون مبررات من الشرطة العثمانية. ويتذكر جورج باريل George Barrell من بوسطن بعد زيارته لإسطنبول عام ١٨١٨: «كان رجالنا تحت رحمة أهل البلد، بسبب عدم وجود سفير أمريكي لدى الباب العالي.» ولكن كان هناك أمريكي واحد يسعى إلى حماية مصالح أهل بلاده، وهو ديفيد أوفلي David Offley، من فيلادلفيا سابقًا.

ومع أنه لم تصل إلينا أي صورة كافية عن أوفلي، فإنه يمكن للمرء أن يتخيله مرتديًا سترة سوداء بسيطة يفضلها أتباع طائفة الكويكر، وتبدو عليه أمارات الحزم والإقدام. لم يكن انجذاب أوفلي إلى الشرق الأوسط بسبب معتقداته الدينية فحسب، بل بسبب حبه لجني الربح أيضًا، ولكن بعد تأسيس مكتب تجاري في مدينة سميرنا عام ١٨١١، سرعان ما وجد أوفلي أن الرسوم الجمركية الباهظة تعيق عمله، ولما فاض به الكيل من دفع ما أسماه بـ«حماية وهمية ضد مخاطر وهمية»، تناول أوفلي عدة أكواب من القهوة ودخن عددًا لا يحصى من النارجيلات مع موظفين عثمانيين، حتى تمكن في النهاية من الوصول إلى قصر قبودان باشا، قائد البحرية الإمبراطورية، وهناك دفع أوفلي ٢٠٠٠ دولار عام ١٨١٥ «كبقشيش» لكي يحصل للأمريكيين على نفس المزايا التي يتمتع بها الأوروبيون خارج حدود بلادهم، لكنه اضطر إلى تكرار نفس السيناريو مرة أخرى في العام التالي، بعد إعدام قائد البحرية بتهمة الخيانة، ولكن عندئذ كان أوفلي قد تعلم ما اعتبره قواعد دبلوماسية الشرق الأوسط، وهي مزيج من «الرشوة والنحاس الأصفر».

انتعشت أحوال أوفلي، وأصبح في النهاية يتعامل مع ثلثي السفن الأمريكية التي تزور ميناء سميرنا، فيقوم بتخزين حمولاتها ويتولى أعمال صيانتها، حتى إنه كان يقوم أيضًا بسجن البحارة المشاغبين مقابل ٦٠ دولارًا كل عام، لكنه لم يتمكن من إصدار جوازات السفر أو حماية الممتلكات الأمريكية، وظل الفشل يلاحق جهود أوفلي لإقامة علاقات دبلوماسية حقيقية بين بلده الأصلي والبلد الذي اختاره مقرًّا له بسبب المعارضة الأوروبية.[٣]

بدا الأمل ضعيفًا في تحقيق أي تقدم حتى عام ١٨١٩، عندما اختمرت فكرة الوصول إلى اتفاق أمريكي عثماني في ذهن جون كوينسي آدامز متقد الذكاء، الذي وصفه المؤرخ جون جاديس بأنه «أكثر الخبراء الاستراتيجيين الأمريكيين تأثيرًا في القرن التاسع عشر»، فقد كان آدامز يشع ذكاءً، بدءًا بجبهته العريضة وانتهاءً بفمه الحازم وحاجبيه المقوسين المتسائلين المندهشين، وكان آدامز في شبابه قد مثَّل بلاده في بعض من أشهر القصور الملكية في أوروبا، ويستطيع الآن، وهو وزير الخارجية البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، أن يدرك أهمية إقامة علاقات ديبلوماسية بين أمريكا وإسطنبول، إن هذه الاتفاقية ستكفل الحماية لتجارة الشرق الأوسط التي كان آدامز — باعتباره من نيو إنجلاند — يقدر قيمتها كثيرًا، وستوفر مزيدًا من الأمن للمبشرين الذين كان الوزير يدعمهم باعتباره مسيحيًّا مخلصًا.

اتبع آدامز أسلوبًا هادئًا، واختار محاميًا بارعًا موضع ثقة من نيويورك مبعوثًا له، اسمه لوثر براديش Luther Bradish، وكان براديش ناجحًا مثل أوفلي على المستوى التجاري وشديد التمسك بمعتقداته، وأصبح فيما بعد رئيسًا لجمعية الكتاب المقدس الأمريكية. تنكر براديش في زي سائح بريء، واستقل السفينة الأمريكية سبارك Spark، وخطط للإبحار إلى إسطنبول، لكن السفينة مُنعت عند مضيق الدردنيل من دخول بحر مرمرة، واضطر براديش إلى مغادرة السفينة في سميرنا، والتوجه برًّا إلى العاصمة العثمانية.

كان براديش مهيبًا قليل الكلام، وهو ما لم يجعل منه أفضل المؤهلين للدبلوماسية الخشنة المتبعة في الشرق الأوسط، وكان يشعر بالعار بسبب الحاجة المستمرة إلى تقديم رشاوى إلى حالت أفندي، وزير الخارجية العثماني، مع تجنب أي تدخل أوروبي، ومع ذلك فقد بدا العثمانيون وكأنهم مهتمون بعقد صفقة، خاصة إذا تضمن الأمر هدايا من السفن الحربية والذخيرة الأمريكية، وورد في مذكرة مرفوعة للسلطان: «مع أن الولايات المتحدة كانت فيما مضى دولة صغيرة، فإن قوتها أصبحت اليوم تضاهي قوة بريطانيا، فمصانع المدافع ومخازن الذخيرة ومصانع البارود وترسانات الأسلحة الخاصة بهم في

حالة جيدة للغاية.» وبناءً على ذلك، قدر براديش أن الاتفاقية ستتكلف نحو ٥٠٠٠٠ دولار منها ٧٠٠٠ «حتى يظل حالت أفندي على موقفه الحالي»، وأن إتمام الاتفاق قد يؤدي إلى توتر شديد في العلاقات مع بريطانيا.[٤] وربما رأى آدامز أن هذا ثمن فادح — فلم تذكر السجلات التاريخية شيئًا بهذا الشأن — ولكن على أي حال فإن موضوع الاتفاق الأمريكي العثماني سرعان ما أصبح مستبعدًا، فقد اغتيل حالت أولًا، ثم انشغل العثمانيون بدءًا من عام ١٨٢١ بالتمرد الذي وقع في اليونان.

كان الغربيون في القرن التاسع عشر ينظرون إلى اليونان باعتبارها بلدًا أوروبيًّا يقع في الجنوب، على مدخل الشرق الأدنى، غير أنها كانت من الناحية السياسية جزءًا لا يتجزأ من الدولة العثمانية، وكان لها أثر في الأحداث في الشرق الأوسط بأجمعه، كما أظهرت حرب الاستقلال فيما بعد. نشب الصراع العرقي بين اليونانيين والأتراك في سميرنا أيضًا، وشارف ليفي بارسونز وبليني فيسك على الموت أثناءه، أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فقد أصبحت الأزمة مصدرًا لمشكلات لا تنتهي، مما وضع علاقاتها مع المنطقة في مواقف حرجة لم تشهدها منذ حروب البربر، وفي حين فرض الصراع ضد شمال أفريقيا على الأمريكيين أن يختاروا بين رشوة القراصنة أو محاربتهم، فإن الحرب اليونانية أبرزت تساؤلًا أكثر أهمية؛ هل يجب على الولايات المتحدة أن تعطى الأولوية لمصالحها الاقتصادية في الشرق الأوسط، أم يجب عليها أن تتجاهل الاعتبارات المالية وتتمسك بمبادئها الديمقراطية؟

كان رد الفعل الأمريكي على التمرد اليوناني نابعًا إلى حد بعيد من شغف الأمريكيين بكل ما هو يوناني، وهى حركة ثقافية وسياسية اهتمت بالحضارة الإغريقية القديمة، وكان المثقفون الأمريكيون يحبون الكلاسيكيات تمامًا مثل لورد بيرون وغيره من المثقفين الأوروبيين في ذلك الوقت، فأسموا أولادهم بأسماء أبطال التاريخ والأساطير الإغريقية، وأطلقوا على مدنهم أسماء مدن إغريقية كأثينا وإسبرطة وطروادة، وكانت الرسومات والأنماط الإغريقية واضحة في كل زاوية من زوايا الحياة الأمريكية، من الفن والعمارة إلى الأدب والحكم؛ وفي خطاب إلى صديقه المسن جون آدامز عبر توماس جيفرسون عن شوقه البالغ «لرؤية لغة هوميروس وديموستينيوس تسري بنقاء من شفاه شعب حر مبدع خلاق». وشاركه كثير من الأمريكيين في هذا الحلم، عن طريق رؤيتهم لليونان — بجانب إسرائيل التي وردت في الإنجيل — باعتبارها مهد حضارتهم، وسعي اليونان للتحرر باعتباره مماثلًا لصراع أمريكا نفسها حديثًا ضد الحكم الفاسد.

لم تلق الثورة اليونانية قبولًا من الجانب الرومانسي لأمريكا فحسب، بل من قناعاتهم الدينية أيضًا، وكان قطاع كبير من الأمريكيين يرى في هذا الصراع مواجهة حاسمة بين الإسلام والمسيحية، ويرى أن اليونانيين هم صليبيو هذا العصر، وحتى المطبوعات التي تبدو علمانية في الظاهر مثل مجلة North American Review استطاعت أن تدعي أنه «أينما امتدت هيمنة السلطان، تهدم كنائس القرى وتسوى بالأرض أو تدنس بشرور الإسلام»، وأكدت عدة سيدات من نيويورك هذه النقطة عن طريق إقامة صليب هائل، نقشت عليه كلمات «من أجل قضية اليونانيين» على مرتفعات بروكلين، حيث تسهل رؤيته من مانهاتن، وفي رده على جيفرسون اعترف جون آدامز بأن «خياله القديم يتحول إلى نوع من حماس المبشرين من أجل قضية اليونانيين.»

كانت شدة هوس الأمريكيين بالثقافة الإغريقية ومعارضتهم للإسلام معروفة بلا ريب للحكومة اليونانية المؤقتة عندما طالبت إخوانها المواطنين في بنسلفانيا وواشنطن وفرانكلين بالمساعدة في تخليص اليونان من البربر، الذين دنسوا أرضها لمدة أربعمائة عام، وكانت الاستجابة حماسية للغاية، حتى إن رئيس جامعة هارفارد إدوارد إيفيريت Edward Everett أعلن «أن هذا النداء ... لا بد أن يوضح للأمريكيين ... الدور التاريخي المجيد الذي يجب أن تلعبه بلادنا في الإحياء السياسي للعالم.» أما الجنرال ويليام هنري هاريسون William Henry Harrison — رئيس الولايات المتحدة فيما بعد — فنادى بتعبئة عامة من أجل اليونان، معلنًا «أن قيم الإنسانية والسياسة والدين كلها تدعو إلى ذلك، وأن علم الولايات المتحدة يجب أن يرفرف على بحر إيجة.»

استجاب آلاف الأمريكيين بعد ذلك لهذا التحدي، وتكونت جمعيات في جامعات ييل وكولومبيا هدفها تحرير اليونان، وأقيمت أيضًا حفلات لجمع التبرعات أو «الحفلات اليونانية» في مدن ألباني وريتشموند وسافاناه، وأصدرت المجالس التشريعية قرارات تعترف بحق اليونان في الحرية، وشكلت لجان لإيجاد مأوى لليتامى اليونانيين وجمع التبرعات لمساعدة المتمردين، وكتب القس توماس روبينز من ولاية كونيتيكت في مذكراته: «عقد اجتماع هنا لمساندة اليونانيين، واحتشد الناس، وجُمع ٦٠ دولارا.» وفي المحصلة تبرع الأمريكيون بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دولار، أي ما يوازي مليوني دولار اليوم، وساعدوا على تمويل بناء السفينة هدسون التي تحمل ٦٤ مدفعًا وترفع العلم اليوناني.

ولكن التبرعات المادية وحدها لم تكن كافية عند بعض الأمريكيين، الذين كانوا على استعداد لتقديم معاشهم لليونانيين، وحتى حياتهم إذا أمكن، فقد تبرع صامويل جريدلي هاو Samuel Gridley Howe، الداعي إلى تحرير العبيد والطبيب والرائد في تعليم المعاقين، الذي كان أيضًا زوج جوليا وارد هاو Julia Ward Howe، مؤلفة كتاب معركة

النشيد الوطني للجمهورية، تبرع بتقديم خدماته الطبية في اليونان. وقد ألهمت مذكرات هاو وذكرياته عن تجاربه الحية التي يصف فيها الرجال اليونانيين الذين ذُبِحوا «مثل الحيوانات البرية في الشوارع» وعن القساوسة الذين شُنقوا، والنساء والصبية الصغار الذين جرى ترحيلهم «ليخدموا الغرائز الوحشية للأغنياء»، ألهمت آخرين ليسيروا على خطاه؛ وكان من بينهم جورج جارفيس Jarvis George من نيويورك، الذي خدم كفريق في الجيش اليوناني، وجيمس ويليامز James Williams، الأمريكي من أصول أفريقية من بالتيمور، والذي كان قد حارب مع ستيفن ديكاتور في الجزائر، وكان يحارب البحرية التركية الآن في اليونان.[٥]

كان الدعم الشعبي للثورة اليونانية يعني أن الكونجرس لا يمكنه تجاهل الموضوع أكثر من ذلك، فقد أصر عضو الكونجرس عن ولاية كنتاكي هنري كلاي Henry Clay أنه على الولايات المتحدة أن تفكر في الاعتراف بدولة يونانية مستقلة، وقال نائب ماساتشوستس دانيال وبستر Danial Webster، في خطاب له: «أنا أفكر في اليونان الحديثة وليس القديمة، في اليونانيين الأحياء وليس الأموات، في اليونان التي تحارب من أجل بقائها الإنساني عامة»، داعيًا ليس فقط إلى مساعدات دبلوماسية لليونان، بل أيضًا إلى تقديم مساعدات عسكرية إلى اليونانيين الذين يحاربون بنبل وشجاعة. ومع ذلك فلم يدعم كل الأمريكيين هذه التوصيات؛ فقد تذكر كثير من سكان نيو إنجلاند، موطن وبستر، الصعوبات التي واجهتهم في حروب البربر، فعارضوا أي سياسة قد تستفز الباب العالي إلى التدخل في تجارة البحر المتوسط أو في العمل التبشيري في الدولة العثمانية.

ولكن كيف كان يمكن المواءمة بين مصالح التجار والمبشرين في الشرق الأوسط وبين الشغف بالتراث الإغريقي الذي أظهره كثير من الأمريكيين؟ كانت هذه هي المعضلة التي واجهت جون كوينسي آدامز، ففي حين اعترف آدامز وزير الخارجية بالفائدة الجمة الروحية والمادية للحفاظ على العلاقات الودية مع الباب العالي، فقد كان مؤمنًا أن الإسلام دين «تعصب وضلال، قائم على مشاعر العداوة الطبيعية لدى المسلمين نحو غيرهم وإخضاع الآخرين بحد السيف»، وكان يطمح إلى أن يكون واضع أول اتفاقية عثمانية أمريكية، لكنه في نفس الوقت كان متفقًا مع الأمريكيين الذين كانوا ينظرون إلى الحرب اليونانية باعتبارها الحلقة الأخيرة في الصراع بين المسيحية و«عقيدة المسلمين القائمة على العنف والغرائز الحسية».

كان هناك عامل يتعين على آدامز أن يأخذه في الاعتبار عند صياغة سياسته تجاه اليونان، فقد كان قلقًا من أن تدخل الولايات المتحدة في القارة الأوروبية لمصلحة

اليونان قد يقلل من شأن معارضتها لغزوات أوروبا الأخرى في الجانب الغربي من الكرة الأرضية، كما ورد في وثيقة مونرو، وكانت تلك الاعتبارات تمثل ضغوطًا قوية عليه، لدرجة أنه عندما أعلن الرئيس جيمس مونرو نيته في تعهد أمريكي بمساعدات عسكرية للثورة، عمل آدامز بقوة على إقناعه بالعدول عن ذلك، وكان من بين ما قاله إن الأوروبيين سيستغلون ذلك بالتأكيد في الإعلان بتجديد جهودهم الاستعمارية في أمريكا الجنوبية للسيطرة على التجارة في البحر الكاريبي، ونجح أخيرًا في إقناع الرئيس بالعدول عن رأيه؛ وقال مونرو أمام الكونجرس: مع أن الولايات المتحدة «تميل إلى منح اليونان حريتها وسعادتها»، إلا أنها لن تتدخل في شأن أوروبي داخلي.[٦]

وقد دعم القرار الأمريكي بوقف المساعدات لليونان صورتها دعمًا كبيرًا في إسطنبول، وتزامن ذلك مع فتور العلاقات بين أوروبا والباب العالي، لذلك كان الوقت مناسبًا للغاية لآدامز لتجديد بحثه عن اتفاقية عثمانية أمريكية، معتمدًا مرة أخرى على مواهب جورج بيثون إنجليش.

أمريكي مسلم في عاصمة الإسلام

أصدر آدامز توجيهاته لإنجليش، بعد أن عينه مبعوثًا أمريكيًّا سريًّا إلى العثمانيين، قائلًا: «ستبلغني بالتقدم والنجاح اللذين ستحرزهما عن طريق خطاب شخصي، وستبلغنا — كلما أتيحت لك فرصة آمنة — بأي معلومات تجارية أو سياسية تتنامى إلى علمك، وتكون ذات أهمية للولايات المتحدة.» كانت أول مهمة لإنجليش هي الوصول إلى القبودان الجديد، هوزريف محمد باشا، إن لم يكن إلى السلطان ذاته.

كتب إنجليش أنه سافر باعتباره أمريكيًّا مسلمًا آتيًا من بلد بعيد لزيارة عاصمة الإسلام. ودخل إنجليش إسطنبول في ٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٢٣، مرتديًا الزيّ المحلي، واستأجر غرفة في أقدم أحياء المدينة، وبحذر شديد بدأ في بناء وتكوين علاقات، أولًا مع أمين مكتبة السلطان، ثم مع موظفين أعلى منصبًا، وكانت كل علاقة منها تقربه من هدفه أكثر فأكثر، ولكن على حساب أن يصبح هو نفسه مستهدفًا، وأسر إلى آدامز كاتبًا: «موقفي مليء بالمخاطر والترقب والقلق، فأنا كثيرًا ما أسمع اللعنات تنصب على رأسي باعتباري جاسوسًا يونانيًّا متنكرًا، وحتى خادمي لا يرافقني في خروجي حتى لا يصاب بطلقة تستهدفني».

وفي ٤ يناير/كانون الثاني تمكن إنجليش أخيرًا من مقابلة هوزريف، وكان رجلًا مشغولًا بالموقف العسكري في اليونان و«مهتمًّا للغاية باتخاذ خطوات للحفاظ على مكانته وحياته». وكان هوزريف أيضًا مهتمًّا بالمطالب الأوروبية بأجزاء من دولته،

وبمخططات حول أسواق الشرق الأوسط، لذلك أكد له إنجليش أن الولايات المتحدة ليست لديها أي مطامع في أراض عثمانية، لكنها تطالب فقط بإتاحة فرص تجارية مفتوحة ومفيدة للطرفين معًا، إلى جانب أن أمريكا دولة تحترم كل الأديان، ومنها الإسلام، حيث «يتمتع المواطن المسلم بنفس المزايا التي يتمتع بها المواطن المسيحي»؛ ترك ذلك الحديث انطباعًا جيدًا لدى قبودان، فوافق على مناقشة صياغة اتفاقية، على أن يحدث ذلك سرًّا على متن سفينة، لتجنب أي مؤامرات أوروبية، كما فهم إنجليش أن سرية الاجتماع ستضمن أيضًا استلام القبودان لكافة الرشاوى، وإلا سيضطر لمشاركة الغير فيها، وأكد المبعوث الأمريكي لآدامز أنهما «تفاهما جيدًا حتى الآن».

ومع ذلك فلم يطمئن آدامز؛ بسبب ميل إنجليش لأساليب العباءة والخنجر — أي الأساليب غير المباشرة المستترة — كما أن لجوءه المتكرر لاستخدام الرشاوى أثارا قلق الوزير المستقيم صاحب الأسلوب المباشر، فتشكك في قدرة مبعوثه على عقد اتفاقات دولية، واستنادًا إلى ذلك، خفض رتبة إنجليش إلى مجرد مترجم لجون روجرز John Rogers، قائد أسطول البحر المتوسط. وأصدر آدامز توجيهاته لروجرز بمتابعة الاجتماعات مع القبودان، والتوصل مع العثمانيين إلى مزايا مشابهة لتلك التي تتمتع بها بريطانيا وفرنسا، وأن يحذر أن تفسر تصرفاته على أنها مع أو ضد اليونانيين، ويمكنه أيضًا أن يعد هوزريف أن «وساطته في هذا الاتفاق ستقدر جيدًا».[٧]

كان روجرز — الذي خاض حرب البربر ونال نياشين عنها — ضابطًا يسير حرفيًّا حسب الأوامر، وجرى تعيينه لتخليص البحرية من آفات السُّكْر والمبارزة، وليس للقيام بمباحثات حساسة مع قادة عثمانيين، وأدى عدم لياقته الدبلوماسية — التي ضاعف منها انشغال هوزريف بقضية اليونان — إلى تأجيل أي مناقشات حول الاتفاقية، وأخيرًا في ٥ يوليو/تموز ١٨٢٦، أي بعد سنتين ونصف من وصول إنجليش إلى إسطنبول، التقى القائد الأمريكي والقبودان العثماني بين جزر تينيدوس وليسبوس. واستقل بحارة من السفينة نورث كارولينا والسفينة كونستيتيوشن سفينة ترفع العلم العثماني مرتدين زي البربر، وقاموا بتسلية طاقمها بنشيد فلتحيا كولومبيا، وجرى تبادل الهدايا؛ حرير ونارجيلة لروجرز، وخواتم وبنادق وعلبة نشوق مرصعة بالجواهر لهوزريف، في حين كان إنجليش يقوم بالترجمة، اتفق الرجلان على أن يغادر روجرز إلى سميرنا وأن ينتظر ورود خبر بالموافقة على الاتفاقية، ثم غادر القبودان، ملقيًا التحية ببنادقه ورافعًا العلم الشخصي للسلطان، وهو شرف لم يحظ به أي غربي من قبل.

رحل روجرز بالفعل إلى سميرنا، حيث حضر حفلات وقابل صغار الموظفين، باعتباره ضيف أوفلي، وانتظر لمدة تزيد عن العام، لكنه لم يتلق أي جواب من الباب

العالي، وفي تلك الأثناء كان آدامز قد أصبح رئيسًا، وفي وضع أفضل للضغط من أجل عقد اتفاقية. ولكنه إذا كان قد أطلق عليه «الفصيح البليغ» عندما كان وزيرًا مميزًا، فإن أداءه كرئيس للدولة لم يكن من الطراز الأول. فبدلًا من استمالة الأتراك، أصدرت إدارته عدة تصريحات تساند استقلال اليونان، مما ولد شائعات بأن الولايات المتحدة كانت تمد المتمردين بالسلاح سرًّا، واشتكى السلطان قائلًا: «انظروا كيف لا يحفظ هؤلاء الفرنجة عهودهم ومواثيقهم أبدًا، من الحكمة أن نحترم وضع بريطانيا العظمى وأن نماطل الأمريكيين بالسياسة.» وزاد آدامز من التباعد بينه وبين الأتراك، عندما صرح بتعاطفه مع «اليونانيين المعذبين في هذا الصراع غير المتكافئ بالمرة»، ومتمنيًا لهم «انتصارًا للإنسانية والحرية».

لم ينجح آدامز في اكتساب عداوة العثمانيين فحسب، بل اكتسب عداوة جورج إنجليش أيضًا، الذي انتقد تهوره، وألقى عليه باللوم في تضاؤل أي أمل في التوصل إلى اتفاقية، ولم تكن تلك هي اللحظة المناسبة لانتقاد رئيس محبط بسبب سنوات طويلة من الفشل في التوصل إلى اتفاق — ولو محدود — مع إسطنبول، ولم يساعد ديفيد أوفلي في تحسين رأيه في إنجليش، فقد وصفه بأنه غير مستقر ومتلون، ومتعاون سرًّا مع السلطان، ولصقت به التهمة. فقرر آدامز إنهاء أي علاقة له مع مبعوثه الشخصي وصديقه القديم، متهمًا إياه «بسوء التصرف المشين، وبتصرفات غريبة تصل إلى حد الجنون»، وكتب قائلًا: «لا يمكنني الاستمرار معه بعد الآن.» أبحر إنجليش عائدًا إلى أمريكا، وحاول أن يشرح قضيته في البيت الأبيض بلا جدوى، وتوفي إنجليش في ٢٠ من سبتمبر/أيلول عام ١٨٢٨، عاطلًا عن العمل، وهو الذي كان في السابق طالبًا للدراسات الدينية، وضابطًا في البحرية، ولواءً مسلما. ولم يمت في عاصمة الإسلام، بل في عاصمة الولايات المتحدة، موطنه الأصلي.[٨]

عام المعجزات (١٨٣٠)

صادف موت إنجليش تدهورًا حادًّا في الوضع السياسي في الشرق الأوسط، وتضاءلت فرص التوصل لاتفاقية أمريكية تركية، واستغلالًا للوضع العثماني المعقد في اليونان، قام الحكام المحليون في شتى أنحاء الدولة بمحاولات للاستقلال، وأثناء ذلك كانت القوى العظمى تخشى أن يؤدي انفصال اليونان عن الحكم العثماني إلى بداية تفكك الدولة العثمانية، وإلى إشعال حرب أوروبية حول أجزائها المفككة، لذلك سعوا إلى الحفاظ على الوضع القائم في اليونان، ولكن الباب العالي أرسل أسطولًا مصريًّا عثمانيًّا مشتركًا إلى جنوب اليونان، ردًّا على ما اعتبره تدخلًا أجنبيًّا في شئونه الداخلية، وواجهت الزوارق

الحربية الفرنسية والبريطانية والروسية الأسطول التركي المصري المشترك، وأغرقت ثلاثة أرباع سفن السلطان قرب خليج نافارينو (الذي يسمى بيسلوس اليوم) في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٢٧.

شجعت الهزيمة التركية في نافارينو اليونانيين على المطالبة بالاستقلال، وأدت إلى طمع وتزاحم الدول الأوروبية على الأقاليم العثمانية، أي إلى نفس الوضع الذي كانت القوى العظمى تحاول تجنبه، وعلى ذلك، غزت روسيا عام ١٨٢٩ جزءًا شاسعًا من بلغاريا، وبعدها بعام أنزلت فرنسا ٢٤٠٠٠ جندي في الجزائر، لتبدأ فترة احتلال امتدت إلى ١٣٠ عامًا. وكانت هذه هي بداية ما أطلق عليه «المسألة الشرقية»، وإلى سؤال: «ماذا نفعل بشأن الإمبراطورية العثمانية المتفككة؟» التي كان مقدرًا على أوروبا أن تأرق بشأنها في فترات طويلة من القرن التالي، متسببة في إشعال فتيل حرب في القرم، ومساهمة في اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وهكذا أيضًا نبتت فكرة شرق أوسط يتكلم العربية ومتحررًا من الحكم العثماني، وقد كان محمد علي من المرتزقة الألبان السابقين، وقد أرسل إلى مصر في أوائل القرن للمساعدة في تحرير البلاد من نابليون، وكان محمد علي غاضبًا بسبب خسارة السفن الحربية ورفض العثمانيين دفع مقابل خدماته في قتال اليونانيين، ولأنه كان مستقلًا عن إسطنبول في كل شئون الدولة إلا بالاسم، ومدعومًا بصورة قوية من الفرنسيين، فقد استعد محمد علي للسير بجيشه إلى الأناضول وتأسيس إمبراطورية خاصة به.[٩]

لم يمثل استقطاع القوى الأوروبية وحلفائها المحليين للأقاليم العثمانية دافعًا قويًّا للتوصل إلى اتفاق بين القادة العثمانيين وقادة دولة غربية أخرى، هي الولايات المتحدة. بالإضافة إلى أن الأمريكيين كانوا قد هللوا لانتصارات أوروبا في نافارينو، بل سميت مدينة في ولاية ويسكونسن باسم المعركة، ولكن العثمانيين كانوا على استعداد لتجاهل هذه الهفوات أو الزلات، بسبب حاجتهم إلى إيجاد توازن دبلوماسي أمام الأوروبيين، بالإضافة إلى حاجتهم إلى مصدر لإمداد لسفنهم الحربية. ويقال إن وزير الخارجية العثماني قال لأحد التجار البريطانيين: «مهما كان سلوككم تجاهنا، فإن الأمريكيين سيظلون أصدقاءنا الأوفياء. وإن سفينة أمريكية تساوي اثنتين من سفنكم من نفس الحجم.» وفي حين كان القناصل الأوروبيون يهربون من إسطنبول خشية الانتقام، كان الترحيب بالأمريكيين يجري في العاصمة، ويُبلغون باهتمام السلطان المتجدد بعقد اتفاقية معهم، ولكن المشاعر العدائية تجاه الأتراك استمرت في الولايات المتحدة، وهو ما أدى إلى عدم التوصل إلى أي استجابة إيجابية لهذا العرض حتى عام ١٨٣٠، وحينها كان رئيس جديد قد تولى السلطة في البيت الأبيض، هو أندرو جاكسون Andrew Jackson.

كان أندرو جاكسون طفلًا فقيرًا ويتيمًا، عمل جنديًّا، وتحول إلى محام متميز وعضو في مجلس الشيوخ وبطل من أبطال حرب عام ١٨١٢. وبذلك كان مختلفًا تمام الاختلاف عن الرئيس السابق صاحب الامتيازات العديدة، ولم يكن يمتلك التزام آدامز بالقواعد الدبلوماسية، لذلك كان يدير شئونه الخارجية بأسلوب «عصا التأديب» أكثر منه بأسلوب «البلاغة والفصاحة»، وكان جاكسون يرغب في التجارة مع الإمبراطورية العثمانية، ولم يكن مستعدًّا لأن توقفه أي عقبة عن القيام بذلك، حتى لو كان ذلك هو التعاطف الشعبي مع اليونان، ومن بين قرارات السياسة الخارجية الأولى التي أصدرها، أعلن جاكسون تصميمه على «عدم ترك أي وسيلة يمكن استخدامها لتحصل أمريكا على المزايا نفسها التي تتمتع بها القوى العظمى الأوروبية في الدولة العثمانية»، وأنه سيسعى حثيثًا نحو عقد اتفاقية رسمية مع الباب العالي.

وقع اختيار جاكسون على ديفيد أوفلي كمفاوض، يرافقه قائد البحرية الأمريكية، جيمس بيدل James Biddle والتاجر النيويوركي تشارلز ريند Charles Rhind؛ وبدأ الثلاثة مباحثات سرية في إسطنبول في فبراير/شباط ١٨٣٠، ليواجهوا العقبات البريطانية المعتادة، ومع ذلك ثابر الأمريكيون، ونتيجة لذلك وقعت أمريكا أول اتفاقية تجارة وإبحار مع الدولة العثمانية في ٧ مايو/أيار، ومنحت تلك الاتفاقية حقوقًا خارجية للولايات المتحدة وسُمح لها بالتجارة في البحر الأسود، وعرضت الاتفاقية على الكونجرس فأثنى جاكسون عليها قائلًا: «إنها من أطيب المشاعر التي أبداها السلطان، وإنه موقف متنور اتخذ لدعم العلاقات بين البلدين.» وأعلنت أمريكا من جانبها التزامها بإمداد البحرية العثمانية بأنواع مختلفة من الزوارق الحربية، بخصومات خاصة.[١٠]

يجب إذن أن نتذكر عام ١٨٣٠ باعتباره نقطة تحول في علاقات أمريكا ما قبل الحرب في الشرق الأوسط؛ فهو العام الذي حصلت فيه الولايات المتحدة على وضع قانوني وتجاري في البلاد العثمانية يوازي الوضع الأوروبي، وهو العام الذي أسس فيه الرئيس الأمريكي سابقة بيع أسلحة أمريكية للمنطقة أيضًا، وأُقيم حوض سفن في إسطنبول، وصف بأنه «خاضع تمامًا للسيطرة الأمريكية وللوائح التنظيمية الأمريكية»، وأنشئ في هذا الحوض ١١ سفينة، و١٢ بارجة حربية، بالإضافة إلى أكبر سفينة حربية وصل وزنها إلى ٩٣٤ طنًّا، هي السفينة محمود، وسُمِح للضباط الأمريكيين بالعمل مستشارين على هذه السفن في حين تلقى الضباط الأتراك تحت التمرين تدريبات على متن سفن أمريكية سعيًا إلى «تحسين قدراتهم في مجال البحرية»، وبالإضافة إلى تجديد البحرية العثمانية وإعادة تأهيلها، سلحت الولايات المتحدة أيضًا القوات البرية التركية بمسدسات من نوع هاربرز فيري وبنادق كولت ومدافع من الطراز الأمريكي.

ومع ذلك فقد كانت مبيعات الأسلحة تمثل قطاعًا محدودًا فقط من الازدهار الذي شهدته التجارة الأمريكية في الشرق الأوسط بداية من عام ١٨٣٠، وتحت مظلة حماية الاتفاقية الجديدة أصبح التجار يجوبون الإمبراطورية حاملين أحدث منتجات الصناعة الأمريكية، من الأسنان الصناعية إلى آلات يمكنها — كما أقسم مخترعوها — «إخراج قذائف بدون بارود»، أما المنتجات الأمريكية مثل «المقاعد والمناضد، والكتب والمكتبات، وساعات الحائط والنوافذ الزجاجية» فكانت تمثل فقط بعضًا من المنتجات التي تبادلتها الولايات المتحدة مقابل التمور والتين والسجاد، وذلك حسب قول أحد المبشرين المتمركزين في الأناضول، وكانت المنسوجات الأمريكية تلقى تقديرًا خاصًّا في المنطقة، وذكر أحد الزائرين الأمريكيين لدمشق أنه شاهد كميات هائلة من القطن الأمريكي محملة على قوافل متجهة إلى آسيا الصغرى، ولاحظ آخر آلات في الأناضول تحمل ختم محلج تريمونت، لويل، ماساتشوستس. وانتشرت كلمة «ميركاني» لتعني «القماش» في منطقة الخليج العربي وفي تركيا عرفت باسم «أمريكانو».[١١]

ورسخ رجال الأعمال الأمريكيون أوضاعهم في جميع أنحاء الدولة العثمانية، وبدءوا في الخروج إلى ما بعد حدودها، فاشتروا من اليمن نصف المحصول السنوي من البن، وفي مسقط (عمان اليوم) اشتروا اللبان العربي وقرون الخرتيت والعاج، وعام ١٨٣٢ أبحر رجل أعمال من نيو هامبشير اسمه إدموند روبرتس Edmund Roberts على متن السفينة بيكوك محملًا بأسلحة وخرائط وعملات أمريكية متجها إلى المخا ومسقط. وسمح له بدخول قلعة السلطان سيد سعيد، الذي كان يتعافى من جروح أصابته أثناء حربه مع الوهابيين، فكتب يقول: «كانت القاذورات والبقع الموجودة على الحائط هي بقايا دم ومخ العديد من الضحايا.» ووقع سعيد معه اتفاقية تجارة مع الولايات المتحدة، وكانت الأولى من نوعها بين بلاده والغرب، وأهدى حديقة حيوان واشنطن زوجًا من الأسود، وأرسل أيضًا مبعوثه الشخصي نعمان إلى الولايات المتحدة، حيث تبعت جموع من الأمريكيين يتملكهم الفضول جولته لتفقد الآثار والنوادي وسكة حديد لونج أيلاند المشيدة حديثًا، وعندما زار دبلوماسي بريطاني قلعة سعيد عام ١٨٣٣، وجد أن جدرانها لم تعد ملطخة بالدماء، ولكن الشيء الذي أزعجه كثيرًا كان صور الانتصارات الأمريكية في حرب عام ١٨١٢.[١٢]

كان اتساع التجارة الأمريكية في الشرق الأوسط المضطرب يعني دورًا أكبر للبحرية الأمريكية، وفي إشارة إلى «التأثير العنيف» لأسطول البحر المتوسط على شمال أفريقيا، آمن جاكسون أن القناصل الأمريكيين في المنطقة «لا يشبعون من الحديث بشأنه».

ولتأكيد هذه النقطة، أُرسلت السفينة كونكورد عام ١٨٣٢ إلى الإسكندرية، حيث أصبح قائدها ماثيو بيري Matthew C. Perry أول قائد أمريكي يزور مصر، وهو الذي قدر له فيما بعد أن يفتح اليابان أمام الغرب، وفي العام التالي زارت السفينة ديلاوير القاهرة ويافا وبيروت، يقودها المحارب القديم في حروب البربر دانيال باترسون؛ وكتب مبشر أمريكي من لبنان واصفًا كيف قام أربعون ألف شخص «من المسلمين والمسيحيين والدروز، من المزارعين والقساوسة والشيوخ والأمراء» بالالتفاف حول السفينة، وكان في استقبالهم طاقم السفينة بزيهم الأنيق المبهر، وتراجع أحد النبلاء العرب — الذي بهرته تلك الصورة — عن فكرته السابقة عن الأمريكيين باعتبارهم «وحشيين وغير متمدنين»، وبدلًا من ذلك اعتبرهم «متفوقين على كل الأمم الأخرى من حيث الأدب والعطف علينا نحن الأغراب». وفي عيون الكثيرين من مراقبي أحوال الشرق الأوسط أصبحت أمريكا تتحدى التفوق البحري الذي طالما تمتعت به بريطانيا في المنطقة، ووصل الأمر بإبراهيم بن محمد علي، إلى إعلان أن بريطانيا تمتلك ثاني أفضل أسطول بحري في البحر المتوسط «بعد أمريكا».[١٣]

وأضاف النشاط التجاري والبحري المتزايد بدوره وجودًا دبلوماسيًّا قويًّا في الشرق الأوسط، ولكن أمريكا ظلت متباطئة بصورة تدعو للأسف في تلبيتها لذلك الدعم، فقد كانت هناك عدة قنصليات أمريكية في المنطقة، يعمل في معظمها أجانب غير مؤهلين لتلك الوظائف، حتى إن بعضهم لم يكن يتحدث الإنجليزية، وكانت أجورهم متدنية للغاية؛ أما القناصل المولودون في أمريكا فكثيرًا ما أثبتوا أنهم أقل تأهيلًا لتلك الوظائف؛ ففي طنجة مثلًا، كان القنصل جيمس ليب James Leib، المشهور بسكره وعربدته، يلتف بالعلم الأمريكي كل ليلة، ويشير إلى سفن حربية أمريكية وهمية في خياله، في حين نجح نظيره في تونس، الممثل الفاشل هوارد بين Howard Payne، في تأليف أغنية ما أجمل الوطن فقط. واشتكى أحد أبناء نيويورك بعد زيارة المنطقة عام ١٨٣٠ من أن «النظام القنصلي الأمريكي كله خاطئ للغاية، وسيئ السمعة ومهين لنا ولوطننا، فالعلم الأمريكي يرفرف على منازل اليونانيين والإيطاليين واليهود والعرب وكل تلك الشعوب المختلطة، ولكن لم يرفرف علم من تلك الأعلام فوق مضيق الدردنيل، لأن القنصل هناك كان فقيرًا لدرجة لم تمكنه من شراء علم».[١٤]

من الواضح أن هذا التمثيل الهزيل الفقير كان غير مناسب لبلد يزداد اهتمامًا بالشرق الأوسط يوميًّا، وقد اتخذت إدارة الرئيس جاكسون خطوات تنفيذية سريعة لحل تلك المشكلة، ففي عام ١٨٣١ قامت بتعيين أول قائم بالأعمال لأمريكا في إسطنبول، واختارت لتلك المهمة رجلًا مميزًا وعنيدًا للغاية، هو ديفيد بورتر David Porter.

الشيطان وديفيد بورتر

كان ديفيد بورتر معروفًا بين أصدقائه باسم سندباد، وقد وصل إلى مقر عمله الجديد بعد رحلة عمل أسطورية، وإن كانت في كثير من الأحيان سيئة السمعة، كان ابنًا لقبطان بحري ثوري، وقد قاد بورتر الابن سفينة استولت على السفينة طرابلس عام ١٨٠١، وجرح في هجمة جريئة على الساحل، ثم أُسِرَ مع طاقم السفينة فيلادلفيا؛ وفيما بعد، في حرب عام ١٨١٢، أصبح أول قبطان أمريكي يستولي على سفينة حربية بريطانية، وأول من يبحر حول كيب هورن، ولكن كان لبورتر أيضًا جانب متهور تلقائيًّا. فقد قتل رجلًا في حانة، وكان شاهدًا على المبارزة التي قتل فيها ستيفن ديكاتور، وهاجم قلعة في بورتوريكو لم ترد التحية على سفينته، ولأنه كان لا يعرف الحياء، فقد ترك زوجته في تشيستر، بنسلفانيا، ليعيش مع أخته غير المتزوجة في إسطنبول، وكان يرسل رسائل يومية إلى وزارة الخارجية مع مبعوثين مختلين؛ كان بورتر قصير القامة، داكن البشرة، خشنًا، له عينان تخترقان الواقف أمامه، ولم يكن مضيافًا لزائريه، ولا متقبلًا للشرق الأوسط. فكتب مرة يقول بعد مقابلة مع السلطان محمود الثاني: «إلقاء السلام عند الشرق أوسطيين أمر يضايق بحق، لماذا لا يكتفون فقط بالتحية العادية؟»

كان مزاج بورتر يشبه مزاج أندرو جاكسون، وكان أيضًا يشاركه في تصميمه على تحسين علاقة أمريكا بالعثمانيين، وكان يحب بصورة خاصة أن يطرب مستمعيه من العثمانيين بحكايات عن عجائب الصناعة الأمريكية، فكان يؤكد أنه «لا توجد منطقة في العالم تشتهر بوجود رجال مبتكرين ومهارات تقنية عالية مثل الولايات المتحدة». وللتدليل على تلك العبقرية، اقترح بورتر تقديم هدية للسلطان وهي قارب يسير بالبخار على هيئة بجعة، رأسها ورقبتها ملتصقتان بالمقدمة، والأجنحة بمحركات مرتبطة بالمقود، والذيل بمؤخرة القارب، ولكن وزارة الخارجية رفضت الفكرة، مفضلة عليها أن تُقَدَّم علب النشوق التقليدية المرصعة بالجواهر، ولكن بورتر وصل بالفعل بجياد هزازة مصنوعة في بوسطن، كهدية لأبناء السلطان، وبقبعات حربية أمريكية لجنوده، وتلقى السلطان الهدية الأولى بسرور، أما الثانية فلم يتحمس لها كثيرًا.[١٥]

أقام بورتر في فيلا أنيقة تطل على مضيق البوسفور، وشرع فورًا في إصلاح أحوال التمثيل الدبلوماسي الأمريكي في الشرق الأوسط، وكلما سنحت الفرصة كان يتم تعيين يهود في مناصب قنصلية، وكان أداؤهم يتابع ويقيم باستمرار، وقد ساعد هذا القبطان السابق على مراقبة حوض السفن، وجلب لها أفضل النجارين من نيو إنجلاند وشحنات كاملة من خشب البلوط، لضمان تفوق منتجاتها حتى على المعايير الصارمة للبحرية

الأمريكية، لقد ترك ذلك كله انطباعًا رائعًا لدى السلطان محمود الثاني، فرُقِّيَ بورتر من قائم بأعمال إلى سفير، ليكون بذلك أول سفير للولايات المتحدة في الشرق الأوسط؛ فكتب يقول: «لا يبدو أن أحد الدبلوماسيين هنا يعرف أنه لا شيء يضاهي التأثير الأمريكي»، مضيفًا بتواضع: «لو كان لدي مهارة ميترنيخ أو تاليراند ... ما كانت لتكون لي مكانة أعلى في عيون الأتراك.»[١٦]

كان بورتر على استعداد تام لاستغلال تلك المكانة، حتى من أجل انتقاد السياسات العثمانية. فعندما قُبض على عدد من اليهود السوريين وعذبوا بتهم قتل ملفقة — وهو ما عرف في التاريخ باسم سب وسفك الدماء الدمشقية عام ١٨٤٠ — ندد بورتر رسميًّا «بتلك الممارسات الوحشية المخيفة». وذكّر الباب العالي أن الولايات المتحدة «لا تفرق بين المسلمين واليهود والمسيحيين، متمنيًا أن تُحْمى هذه الفئة المظلومة، التي ولد من بينها بعض أفضل رجال أمريكا وأكثرهم وطنية». وأسس بورتر قاعدة استمرت حتى القرن العشرين، وهي مد مظلة الحماية الأمريكية إلى يهود الشرق الأوسط. في هذه المرة نجح التدخل الأمريكي، ونتيجة للاعتراضات الفرنسية والبريطانية أيضًا عمل العثمانيون على حفظ التحقيق وضمان خروج المتهمين من السجن.[١٧]

ولكن أكبر الصعاب التي واجهت بورتر لم تكن تدور حول يهود الشرق الأوسط، ولكن حول مسيحيي بلاده، فقد أدت محاولات المبشرين الأمريكيين لتحويل العرب المسيحيين إلى البروتستانتية في سوريا وجبل لبنان، إلى إثارة حفيظة رجال الدين المحليين، وخاصة البطريرك الماروني، وفي عام ١٨٤١ كتب البطريرك رجاءً إلى الباب العالي بطرد الإنجيليين البروتستانت من الدولة العثمانية، ولإصدار أمر الطرد توجه الباب العالي إلى السفير الأمريكي.

ومع أنه لم يكن متدينًا، فإن بورتر أظهر إعجابه بالمبشرين ومجهوداتهم الرائدة في التعليم، حيث يقول: «أنا أومن أن أمة تجيد القراءة وتمارسها بانتظام لا يمكن أن يطول بها الأمد لفهم مصالحها الحقيقية، وعندها لن تتأخر عن القيام بأي خطوات تنفيذية.» ومع أن مسئولية بورتر الأولى هي دعم الاتفاقية الأمريكية العثمانية، وليس الترويج للأفكار الأمريكية، فإن مجهوداته في هذا المجال أصيبت بإحباط كبير بسبب المبشرين واحتقارهم للسلطة العثمانية، فقال لهم يوبخهم: «تجنبوا القيام بكل ما من شأنه أن يجرح مشاعر المسلمين»، مؤكدًا على أن الاتفاقية لا تحمي الأمريكيين الذين «يستفزون السكان المحليين لتغيير ديانتهم أو طقوسهم الدينية»، وحذرهم إن استمروا في محاولات تحويل المواطنين العثمانيين عن ديانتهم «أن يقوموا بذلك على مسئوليتهم الخاصة وأن يتحملوا وحدهم عواقب ومخاطر ذلك».

وفي توبيخه للمبشرين وإظهاره حساسية تجاه قلق العثمانيين كان بورتر ينفذ فقط توجيهات الرئيس جاكسون التي مكنت الولايات المتحدة من إظهار نفسها بمظهر القوة الاقتصادية والصديق للشرق الأوسط، وللأسف، تولت إدارة جديدة حكم الولايات المتحدة، وكان وزير خارجيتها رجلًا متعجرفًا ومتسلطًا، هو دانيال وبستر، المناصر للهيلينيين ومنتقد الأتراك الذي لا يلين، وكان قليل الصبر بشأن ما كان يرى أنه تعصب عثماني، ومع انتقاده من جانب أحد رجال الدين بأنه باع روحه للسياسة، فإن وبستر كان في الحقيقة على عكس ذلك؛ فقد كان عضوًا شرفيًّا في المجلس الأمريكي للتبشير بالخارج، وفي رأي هذا المجلس كان بورتر — وليس وبستر — هو الذي ركبه الشيطان برفضه حماية المبشرين، وقال أعضاء المجلس إن هؤلاء الأمريكيين عاشوا دومًا في سلام باعتبارهم «مواطنين من الفرنجة في بيروت» بدون أي محاولات لتحويل الموارنة أو خرق القوانين العثمانية، واقتنع وبستر بذلك، ففي رسالة مؤلمة مؤرخة في ٢ فبراير/شباط عام ١٨٤٢ وبخ بورتر بسبب تقاعسه عن مساعدة المبشرين، وأمره «ألا يغفل أي مناسبة لمد كل سبل العون لهم».[١٨]

ترك هذا التوبيخ أثرًا سيئًا ومرارة في نفس بورتر، ولكن ليس لفترة طويلة، فقد توفي في نفس العام عن عمر يناهز ٦٣ عامًا، ولكن ميراثه استمر عن طريق العديد من أفراد أسرته — من آل بورتر وهيب وفاراجت وبراون — الذين أدوا أدوارًا رئيسية في الشرق الأوسط، وأيضًا في النماذج والمبادرات التي أسسها للعلاقات الأمريكية مع المنطقة، فبالإضافة إلى بيع الأسلحة وتعريف حكام الشرق الأوسط بالتكنولوجيا الأمريكية، دعم بورتر صورة أمريكا كقوة في المنطقة تقف على قدم المساواة مع أوروبا، لكنها على عكس الأوروبيين لم يكن لها أي مطامع فيها، وبفضل ديفيد بورتر حققت الدبلوماسية الأمريكية خطى واسعة في الشرق الأوسط مقارنة بالأيام التي كان يضطر فيها المبعوثون السريون من أمثال جورج إنجليش إلى التسلل متخفين في شوارع إسطنبول، وإلى أن يديروا مفاوضاتهم في السر؛ ومع ذلك، ورغم نجاحه في تأسيس صداقة مع العثمانيين، فقد فشل بورتر في النهاية في الحفاظ على صداقة أبناء وطنه، الذين كانوا أنشط ما يكونون في المنطقة، فقد كان للمبشرين تأثير على العلاقات بين الشرق الأوسط وأمريكا ما قبل الحرب فاق تأثير رجال السياسة والخدمات والتجار الأمريكيين.

الفصل السادس

المصير الحتمي للشرق الأوسط

الجرأة التي أظهرها المبشرون عند تحدي بورتر كانت دليلًا على ظهور تحالف جديد بين قادة الكنيسة ومتخذي القرار في الولايات المتحدة، فحركة التبشير كانت قد نمت بصورة واضحة منذ أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر، عندما فشل أوائل مبعوثيها إلى الشرق الأوسط، ليفي بارسونز وبليني فيسك، في جذب متحولين إلى ديانتهم، ثم ماتا ميتة مؤلمة، وحتى الإنجازات المتواضعة لخلفاء فيسك، إسحق بيرد ووليام جوديل وإيلي سميث، فيما يخص تأسيس مدارس في سوريا كان من الصعب إرجاعها إلى قدرة المبشرين فقط، حيث لم يكن لها أي تأثير على السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. فالوضع الذي حدث عن طريقه إرسال مجموعات صغيرة من الرجال والنساء عبر آلاف من الأميال خلال مناطق وطرق وعرة هي التي نتج عنها النجاح في تحويل علاقة بلادهم مع المنطقة بأكملها، وكذلك تغيير المنطقة ذاتها، ويعتبر، [هذا الوضع] قصة مثيرة بحق. إنها ملحمة مليئة بالمشقة والدماء.

قواعد انطلاق الشمس والصليب

في بداية عام ١٨٢٧ كان المبشرون قد نجحوا عن طريق مدارسهم في ترسيخ مركزهم في سوريا، ولكن الهدف النهائي لتحويل فلسطين إلى البروتستانتية كان لا يزال بعيد المنال، وفي تلك السنة قرر المجلس الأمريكي والجمعية النسائية للترويج للمسيحية ببوسطن أن يرسلا بعثة أخرى إلى القدس، يترأسها قس في الثلاثين من عمره من بركيشايرز اسمه جوسيا برور Josiah Brewer، الذي قال عنه أحد أساتذته: «يتميز بهدوء الطبع والتواضع والقدرة على إصدار أحكام جيدة، وورع وتقي لا تشوبه شائبة.» جرى تكليف برور إذن باستكمال مهمة بارسونز وفيسك، اللذين فشلا في تأسيس قاعدة دائمة في المدينة المقدسة، وأيضًا في البدء بتجميع اليهود معًا؛ وأعلن برور وهو يرحل من

ماساتشوستس: «كانت أمهاتنا المهاجرات ستفرحن كثيرًا إذا عرفن أن بناتهن ستعاودن إرسال الإنجيل إلى القدس.» فقد كان واثقًا بقدرته على استبدال «العلم الأبيض رمز السلام بالعلم العثماني الأحمر الدموي» على جدران القدس.

ولكن السلام كان آخر شيء اكتشفه برور في فلسطين، فقد وصل إلى تلك البلاد بعد الهزيمة العثمانية المدوية في نافارينو عام ١٨٢٧، وكانت الهزيمة إيذانًا ببدء تفكك الدولة، وكانت الغالبية العظمى من الفلسطينيين المسلمين في ذلك الوقت لا يزالون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم رعايا للدولة العثمانية، ويدينون بالولاء لها، وكانوا لا يزالون يعتبرون كل الغربيين، سواء الأمريكيين أو الأوروبيين من «الفرنجة» الذين يهددون الدولة الإسلامية، وباءت جميع محاولات برور بالفشل لإقناع السكان المحليين بأن البحرية الأمريكية لم تعد حتى موجودة بنافارينو، وبأن الولايات المتحدة تحترم السيادة العثمانية، ولم تقنعهم مظاهر الود والنيات الحسنة نحو الثقافة الإسلامية التي أظهرها برور أثناء توزيع نسخ من العهد الجديد، وبعد طرده من قريتين في منطقة طبرية، وبعد أن ملأ القمل جسده وأصابت العلل جسده، بتر برور مهمته، وعاد إلى بوسطن محاطًا بالخزي والعار والفشل.[١]

ومع ذلك فقد ظل الأمل يراود المجلس الأمريكي في أن تُؤَسَّس محطة أو قاعدة في القدس، وأشار كبار السن في المجلس إلى تحسن الأحوال في البلاد المقدسة منذ عام ١٨٣١، وهي السنة التي قام فيها محمد علي — مدفوعًا بغضبه بسبب رفض الدولة العثمانية تعويضه عن خسائره في نافارينو — بإرسال جنود مصريين لغزو سوريا وفلسطين، ومنح المصريون — أصحاب الحداثة — مزايا غير مسبوقة للملل غير المسلمة في المنطقة، واستغلالًا منه لذلك الموقف الأفضل نسبيًّا، وافق المجلس على إرسال بعثة أخرى إلى فلسطين، واختير لقيادتها هذه المرة ويليام وإليزا تومسون William and Eliza Thomson، وهما زوجان شابان تقابلا في جامعة برينستون، بمدينة نيوجيرسي، حيث كان هو يدرُس الإنجيل وكانت هي تقوم بتدريسه، تزوج الاثنان عام ١٨٣٣ وتطوعا من فورهما كمبشرين.

لم يرحب جميع سكان فلسطين بإصلاحات محمد علي، فالأغلبية المسلمة عارضت الحقوق المساوية للمسلمين التي منحتها مصر للمسيحيين واليهود المحليين، وعارضت الانفتاح الذي أظهرته مصر تجاه الأجانب، وتصاعد الغضب ضد المحتلين، وبعد محاولات لفرض الضرائب على الفلاحين المسلمين وتجنيدهم إجباريًّا في الجيش المصري، تحول هذا الغضب إلى ثورة عارمة، ووصلت المجازر وحمامات الدم إلى قمتها في فلسطين عام ١٨٣٤، وتزامن ذلك مع وصول آل تومسون إلى القدس.

كانت إليزا عندئذ حاملًا في شهرها التاسع وغير قادرة على الهروب من المدينة، ولم يكن أمام ويليام تومسون من خيار سوى تركها بالمدينة ومحاولة العثور على أي مساعدة في يافا، وانتابه القلق وهو يسمع شائعات عن أعمال العنف بالمدينة قائلًا:

> «لم أسمع حرفًا واحدًا عن مسز تومسون منذ غادرت القدس.» كانت إليزا قد حبست نفسها في المنزل، وقد أصابها الرعب من «زئير المدافع وتهدم الجدران وصرخات الجيران ورعب الخدم والتوقع المستمر للمجازر». ومع ذلك، فقد أنجبت صبيًّا أسمته توماس، وعاد الأب في ٢٢ من يوليو/تموز، متتبعًا قافلة إمدادات مصرية، ليجد القدس أطلالًا وزوجته مريضة للغاية، ثم وافتها المنية بعد ذلك بأسبوعين.

وكتب تومسون في وصف فلسطين: «بلد مهدمة وبقايا بشر. أما نهر الأردن فلا يستحق حتى تسميته بنهر في أمريكا.» ولكن شكاواه لم تقلل من همة المبشرين الآخرين ومحاولتهم العمل في القدس. فوصل جورج وايتنج George Whiting وبتسي تيلدن Betsy Tilden بعد فترة قليلة من وفاة إليزا تومسون، لكن لم يستطع أي منهما تحمل المشقة وشظف العيش فيها. وتكشفت فلسطين الساحرة الواردة في الإنجيل عن «بلد للشياطين، ملعونة وغير مباركة» في رأي المبشر الرائد إسحاق بيرد. وبنهاية عام ١٨٣٤، اضطر المجلس الأمريكي للاعتراف بأنه لم يمكن «تحويل روح واحدة من الضلال إلى الهداية وطريق الرب». ثم قرر وقف أي رحلات تبشيرية إلى فلسطين. ومن هنا تحول اهتمام المبشرين إلى موقع آخر في الشرق الأوسط، ألا وهو على وجه الخصوص المنطقة التي تحيط بجبل لبنان.[٢]

استمرت عائلتا بيرد وجوديل في التوسع في مدارسهما وبناء مدارس جديدة في بيروت وما حولها، ولكن الأحوال في المدينة بدأت في التدهور بعد الغزو المصري عام ١٨٣١، ونشبت معارك بين الموارنة المساندين للمصريين والدروز الذين استمروا على ولائهم للباب العالي، مما نتج عنه تبادل للنيران وصل إلى حد خوف الأمريكيين من الخروج من منازلهم أو حتى الجلوس بقرب النوافذ، واستغل الموارنة أيضًا تلك الفوضى لزيادة لعناتهم ضد البروتستانتية وإظهار معارضتهم للمدارس البروتستانتية، واعترض ويليام جوديل قائلًا: «يظهر الأتراك سمات شخصية أفضل بكثير من المسيحيين، ففكرة التصرف بشرف تبدو بعيدة للغاية عن قلوب المسيحيين»؛ كان المبشرون منعزلين ومهددين، لذلك انتهوا إلى خلاصة أنه لا يمكنهم البقاء في لبنان، وبدءًا بعائلة بيرد جرى ترحيلهم على سفينة نمساوية، حتى تمكنت المجموعة كلها من الهرب.

أصبح الأمريكيون لا يحتملون الموقف في سوريا وفلسطين. وفي سميرنا، التي كانت مدينة ذات أغلبية مسيحية، ومدخل المبشرين إلى الشرق الأوسط، كان الموقف أيضًا قد أصبح عدائيًّا، وكانت المحاولة الأولى لتأسيس قاعدة دائمة في سميرنا على يد متسلق الجبال الهاوي إلناثان جريدلي عام ١٨٢٦ قد فشلت بعد أن ذهب هذا القس الشاب لتسلق الجبال فأصيب بداء الرئة ومات؛ أما بديل جريدلي فكان دانيال تمبل Danial Temple، الذي ظهر في وصف أحد كتاب السيرة أنه كان«سوداويًّا غامضًا ومتعجرفًا»، وتقليديًّا محافظًا عنيدًا؛ لقد تسلق السلم من أوله من الفقر في الريف إلى الحصول على منح في جامعات دارتموث وأندوفر، ولكن لا شيء في نيو إنجلاند كان قد أعد تمبل للشرق الأوسط، حيث لقيت زوجته حتفها مسمومة هي واثنان من أطفالهما الأربعة، وعاد المبشر محطمًا إلى أمريكا، مع ابنيه الناجيين، فكتب يقول: «مجرد فكرة تعليمهم في هذا الجزء المقفر المحروم من العالم يثير أعصابي ويصيبني بالتوتر.»

ومع ذلك فقد تمكن تمبل من التغلب على نفوره من الشرق الأوسط، وفي عام ١٨٣٣ أبحر مرة أخرى إلى سميرنا، هذه المرة مع زوجته الجديدة ومعهما مطبعة، وسرعان ما كانت أناجيله وكتبه تدرس في مدرسة للبنات المسيحيات التي قام جوشوا برور بتأسيسها، وهو نفس الشخص الذي تراجع عن فلسطين قبل ذلك بخمس سنوات، وكانت تقوم على رعاية المدرسة في ذلك الحين جمعية سيدات ميسوري في نيو هيفين، وتساءل برور: «إن لم يفتح السيف الباب أمام مبشر مسيحي في بلد مسلم، ألا يمكننا أن نأمل أن يقوم بذلك التطور التدريجي للحضارة؟» وقد وضحت الإجابة بحلول عام ١٨٣٨، وعندئذ كانت أكثر من مائتي فتاة قد سُجِّلْن في المدرسة.[٣]

ظل نجاح المبشرين في سميرنا استثنائيًّا، وظل انعدام الحد الأدنى من الأمان يقف عائقًا أمام مجهودات التبشير في أي بلد من بلاد العثمانيين الأخرى، لذلك وضع المجلس الأمريكي عينه على منطقة ما وراء حدود الإمبراطورية، وهي منطقة بحيرة يورميا شمال غرب إيران، وعلى مجتمع المسيحيين السريان الذين كانت الشائعات تقول إنهم يعيشون هناك. ووقعت مهمة الوصول إلى تلك المجموعة الغامضة على عاتق هاريسون جراي أوتيس دوايت Harrison Gray Otis Dwight، وكان خريجًا حديثًا في جامعة أندوفر، كما وقعت أيضًا على عاتق المبشر اللبناني الخبير إيلي سميث، فتقابل الرجلان في سميرنا في مايو/أيار ١٨٣٠، متخفيان في عمامات وعباءات، وحددا هدفًا لهما أن يصبحا «أول أمريكيين يَطِآن أرض أرمينيا».

ولكن كان أمامهما طريق مليء بالمصاعب والمشاق، توجها شرقًا نحو إرزوروم، وسارا لمدة ثلاثة أسابيع عبر أراض لا تصلها المياه، بدون رؤية أي قرية، واشتكى

سميث العالم ضعيف البنية من اضطراره إلى النوم في حظائر الحيوانات، «محاطًا بكل أنواع القاذورات»، ومن اضطراره أيضًا إلى الاستيقاظ وهو يعاني حرارة مرتفعة وعيناه كليلتان، ثم أصيب بمرض الكوليرا على أبواب مدينة تيفليس، ولم يعد يستطيع السير، واضطر دوايت إلى ربطه في عربة يجرها حمار، وأخيرًا وصل الأمريكيان إلى هدفهما ودخلا أرميا منهكين في مارس.

بدت المدينة في البداية، مقارنة ببيروت والقدس غير المستقرتين، وكأنها جنة عدن، فتحت حكم أسرة قاجار المنفتحة نسبيًّا كانت فارس تعيش فترة من الاستقرار الداخلي متحررة من تدخلات القوى العظمى، مثل روسيا وبريطانيا، في أرميا وجد المبشران أن الحكومة لا تتدخل في العظات التي يلقيانها، وأن دين السريان القائم على الإنجيل لا يختلف كثيرًا عن معتقداتهم، وعبر سميث عن سعادته قائلًا:

> «شعرت برغبة أكبر في الاستقرار بينهم فورًا، أكثر من أي شعب آخر رأيته من قبل.»

بعد استقرارهما، أسس الأمريكيان مدرسة، سرعان ما كان أربعون طالبًا يتلقون فيها دروسًا في الرياضيات والإنشاء باللغة الإنجليزية والترانيم، ووصل مبشرون جدد لدعم المحطة أو القاعدة الدائمة؛ جاستين وشارلوت بيركنز Justin and Charlotte Perkins عام ١٨٣٢، وبعدها بثلاث سنوات وصل أساهيل وجوديث جرانت Asahel and Judith Grant، وكان أساهيل في الثامنة والعشرين من عمره، من يوتيكا، نيويورك، داكن البشرة، متوسط الطول، وذا طاقة غير تقليدية، كانت عيناه تلمعان، وكان تعامله لطيفًا مليئًا بالحماس، وكان أيضًا طبيبًا ابتدع تقليدًا للمبشرين، وهو تقديم رعاية طبية مجانية لشعوب الشرق الأوسط. في عامه الأول في أرميا، عالج جرانت عشرة آلاف شخص، وكان يتذكر بفخر أن «المرضى والمشلولين والمكفوفين كانوا يتجمعون بالمئات، وسرعان ما انتشر صيتي إلى الخارج في البلاد المجاورة».

أتاح صبر جرانت له ليس علاج المرضى فقط، بل أتاح له أيضًا فرصة استكشاف الأماكن المقفرة في الجنوب وحتى كردستان، مواجهًا العصابات، بحثًا عن مزيد من السريان. وعندما عاد إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٠، أكد الطبيب للمجلس أن قاعدة أرميا تزدهر، وأنه يجب إرسال بعثة جديدة إلى ما يطلق اليوم عليه العراق. فوافق المجلس وأرسل كولبي ميتشيل Colby C. Mitchell وآيبل هندزديل Abel Hindsdale مع زوجتيهما إلى الموصل.[٤]

كان البروتستانت الأمريكيون قد سجلوا أول انتصار لهم في الشرق الأوسط بلا منازع، ولكن بعدها بدأت عدة كوارث معًا؛ أصابت حمى التيفويد آل ميتشيل بالاضطراب وشبه العمى وكان ذلك بعد تعرضهم لعاصفة رملية. ومع أن آل هندزديل تمكنوا من الوصول إلى الموصل، فإنهم كانوا غير قادرين على القيام بأي نشاط بسبب سوء حالتهم. وبسبب الأمراض أيضًا توفيت إليزابيث دوايت وابنها جون وأطفال آل بيركنز الخمسة. وكانت شارلوت بيركنز تشكو من الصرع، فعادت إلى الولايات المتحدة. أما سارة سميث، زوجة إيلي، فلقيت حتفها في حادثة غرق سفينة قرب قبرص، وتوفيت زوجته الثانية، ماري وارد تشابين، بالدوسنتاريا.

واعترف إيلي سميث بكثير، وهو لا يشير إلى أرميا فقط، بل إلى الشرق الأوسط بأكمله فقال:

«يعتبر تدهور الصحة وقصر الحياة من التضحيات الضرورية للعمل في مجال التبشير.» وكانت النساء — اللاتي كانت صحتهن تضعف بصورة خاصة بعد ولادة الأطفال — يتعرضن أكثر من غيرهن لمشكلات صحية وللوفاة. فكتبت ماري فان لينيب Mary Van Lennep، التي كانت قد غادرت هارتفورد، كونيتيكت عام ١٨٤٣ لتذهب إلى الأناضول: «أخشى أحيانًا أن يكون المرض عقابًا من الله بسبب عدم شكري للبركة التي منحها لي، وأحاول أن أصلي لكي أكون أكثر استعدادًا للمعاناة.» وكان المبشرون عرضة لهجوم العصابات، ولم تكن الحكومة العثمانية تقدم لهم سوى حماية ضعيفة للغاية لا يعتد بها. وقال ويليام جوديل هازئًا تعليقًا على ذلك: «دائمًا ما تكون قبعة المرء أكثر أمانًا في الولايات المتحدة من رأسه بأكملها في تركيا.» ولكن ظل المرض هو أكثر القتلة كفاءة، ومسئولًا عن معدل وفيات المبشرين الأمريكيين في الشرق الأوسط بصورة تعدت بكثير معدلات وفيات المستعمرين على الجانب الشرقي. وكان ثلث المبشرين الذين غادروا الولايات المتحدة متجهين للشرق الأوسط بين عامي ١٨٢١ و١٨٤٦ قد توفوا أثناء خدمتهم. وتوفي معظمهم بعد وصولهم بفترة قصيرة. وكان يقال للمبشرين الشباب المغادرين: «تقترب ساعة الموت عندما تغادرون سواحل بلادكم، مع احتمال ألا تروها مرة أخرى أبدًا.» أما ماري فان لينيب فقد توفيت في السنة الأولى من وصولها.

إن ما بدا رؤية براقة لقواعد دائمة تحت شمس الشرق الأوسط أصبح لا نتيجة له سوى المعاناة والموت، وبذلك تحولت المحطات إلى قواعد تبشيرية. وحتى أساهيل جرانت لم ينج من هذا المصير. ففي فترة قصيرة فقد هذا الطبيب زوجته واثنين من أبنائه الثلاثة. لكنه تمكن مع ذلك من الاحتفاظ بإيمانه ومن تأسيس بعثة قرب الموصل. لكن تلك البعثة أيضًا كان مصيرها الدمار. ففي أواخر ربيع عام ١٨٤٣ هاجم الأتراك والأكراد

المواطنين السريان هناك، وقتلوا منهم ثمانمائة وشردوا الآلاف. واعترض جرانت على اتهام المبشرين بأنهم هم من أثاروا هذه المذبحة وبدءوها، عن طريق تشجيع المجتمع إلى السعي وراء الاستقلال عن حكم المسلمين. وأعلن جرانت، وهو يجاهد من أجل تهدئة السريان وربما نفسه أيضًا: «ليكن لنا عزاء في أننا كنا عاملًا محددًا ومؤثرًا — إلى حد ما — في إثارة الاهتمام بالصلاة ومغزاها.»

ولكن كيف تمكن المبشرون — في وجه كل تلك المتاعب والهزائم — من التمتع بهذا التأثير في الولايات المتحدة، وإلى حد بعيد، من تحديد سياسات بلادهم عبر البحار؟ وما العوامل التي مكنت الأمريكيين من التعافي من هزائمهم المؤلمة، وإعادة تنظيم صفوفهم، وإعادة بناء كل ما دُمِّرَ؟ قال دليل عربي ذات مرة موبخًا ومنتقدًا مبشرًا كان قد وصل لتوه: «تعتقدون أيها الأمريكيون أن بإمكانكم القيام بأي شيء يمكن للمال شراؤه أو للقوة أن تحققه. ولكن لا يمكنكم التغلب على الله تعالى.»[٥] وكان القس يتفق معه بالتأكيد على أن الله لا يمكن التغلب عليه، لكنه كان يؤمن أيضًا أن التصميم والإرادة والثروة يمكنها أن تحقق المعجزات، خاصة في الشرق الأوسط.

انتفاض المسيحية

بدأت موجة التحول للمبشرين عام ١٨٤٠، عندما قامت القوى الأوروبية — خوفًا على تكامل الدولة العثمانية وتماسكها — بطرد الجنود المصريين من سوريا وفلسطين. وأُعيد الاستقرار نسبيًّا إلى المنطقة، ولكن بدون المساس بالحقوق التي منحت للأقليات تحت حكم محمد علي. بل على العكس؛ فتعبيرًا عن شكره للأوروبيين لإعادتهم أقاليمه إلى دولته، تعهد السلطان عبد المجيد باحترام «حرية وممتلكات وشرف كل واحد من الرعايا، دون النظر إلى ديانته»، وسمح للأجانب أيضًا بالإقامة بصورة دائمة في القدس، وجرى أخيرًا الاعتراف بالمواطنين البروتستانت في الدولة باعتبارهم أصحاب ملة شرعية. أما المبشرون، فلم تكن هذه التطورات إلا من عمل الرب. وقد قال أحدهم: «منذ سنوات قليلة كان لا يزال هناك تعصب عنيد وروح لا تهدأ للمطاردة والفرقة، أما الآن فيوجد تسامح وقبول تام.»

كان لتيسير المعوقات تأثير فوري على أنشطة المبشرين في سوريا وجبل لبنان. فتمكن آل بيرد وجوديل من إعادة ترسيخ وضعهم في بيروت، والترحيب بجيل جديد من البروتستانت، بقيادة ويليام إيدي وهنري جيساب. وبعد عودته إلى لبنان قادمًا من أرميا بدأ إيلي سميث في إعداد ترجمة عربية للإنجيل، وفي تطوير أول مطبعة ذات حروف متحركة باللغة العربية، أسماها «الأمريكية العربية». وفي عقد من الزمان كانت مطابع

سميث تنتج خمسين ألف مجلد سنويًّا بأربع عشرة لغة محلية، تتضمن ترجمات لكتاب «ابنة بائع اللبن» و«تقدم الحجاج»، اللذين كانا أول كتابي قراءة للمرحلة الابتدائية. وكانت الهزيمة الوحيدة التي مني بها سميث من محاولته مواءمة الموسيقى المحلية مع الطقوس الدينية البروتستانتية. واعترف بأنه «ليس وحده من وجد غناء العرب غير موسيقي في آذانه، بل وجد الموسيقيون الغربيون أيضًا أنه من المستحيل تقليد نغماتهم».[٦]

كان النجاح الجديد الذي حققه المبشرون ناتجًا عن الظروف المحسنة في الشرق الأوسط، لكنه كان أيضًا نتاجًا للتغييرات الجذرية في الولايات المتحدة، فقد شهد عام ١٨٤٠ بزوغ أيديولوجية «القدر الجلي»، وهي نسخة أكبر وأكثر تطرفًا من ادعاء الكويكرز القديم بأن الرب منحهم حقًّا في أرض الميعاد الجديدة، الذي برر به الأمريكيون غزوهم لقارة أمريكا الشمالية كلها. وتحت هذه الراية، قام مواطنو أمريكا البالغ عددهم ١٧ مليونًا بالانتشار في ربوع الولايات الست والعشرين وفي المناطق الشاسعة غرب نهر الميسيسيبي وشمال نهر ريو جراندي، مقتلعين مجتمعات الأمريكيين الأصليين من جذورها، ومطاردين المكسيكيين في طريقهم. ولكن كان لهذا المفهوم بُعد تعليمي على العالم أجمع. فحسب قول الصحفي النيويوركي جون أوساليفان John O’Sullivan، الذي وضع هذا المصطلح، فإن القدر الجلي أوجب على أمريكا أيضًا أن «تؤسس على الأرض خلاص الإنسان وأخلاقياته» لنشر مبادئها الدينية والدنيوية في الخارج.

تواءم البعد التعليمي العالمي لفكرة أو مبدأ المصير الحتمي Manifest Destiny مع حس المبشرين بالهدف، وأعاد الطاقة والحيوية للحركة في أكثر نقاطها إظلامًا. وقال دوايت مارش Dwight Marsh، رئيس بعثة الموصل: «إن قدر أمريكا مرتبط بقدر العالم، ولن تكون أمريكا بمأمن إلا بخلاص الإنسانية.» وقد ألهمت البروتستانت الحركة الدءوبة المنتشرة بأمريكا وروح البحث العلمي التي شهدتها. كانت هذه هي أمريكا؛ المستحدثات العلمية الخارقة، وتكنولوجيا تشارلز جوديير Charles Goodyear للإطارات المطاطية، وحركة النحاس التي يعتمد عليها للساعات التي اخترعها تشونسي جيروم Chauncey Jerome. وكان من بين المنتجات الحديثة التي أدخلها المبشرون الأمريكيون إلى الشرق الأوسط آلات التصوير وماكينات الخياطة وأداة ثورية للاتصال من اختراع ابن أحد أعضاء المجلس الأمريكي، هو صامويل مورس Samuel Morse. وقد اعترف ويليام جوديل بأنه «يجب إعطاء صدمات للسكان المحليين؛ إذ تبدو تلك الصدمات وكأنها تحركهم خطوة للأمام نحو الألفية الجديدة».

ولكن الأكثر أهمية من النواحي الفنية التقنية كانت صورة القوة العسكرية التي أظهرتها الولايات المتحدة في فترة المصير الحتمي، وقد أثرت في المبشرين كثيرًا. وكما أعلن إيلي سميث، فإن شعوب الشرق الأوسط «يجب أن تعلم أننا دولة قوية، ولا توجد طريقة أخرى لإعلامهم هذا إلا أن نشعرهم بذلك مباشرة». ومثل المبشرين على الحدود الأمريكية، الذين كانوا يستعينون بمشاة الجيش الأمريكي عندما يتهددهم خطر الهنود الحمر، كان سميث وزملاؤه من البروتستانت يستعينون بالحكومة الفيدرالية ودبلوماسييها وحتى بسفنها الحربية لحمايتهم من غضب الحكام المسلمين. فعندما جاء دابني كار Dabney Carr خلفًا لديفيد بورتر سفيرًا لأمريكا في إسطنبول عام ١٨٤٢، أعلن عزمه حماية المبشرين «بكل ما في وسعه»، وإذا اقتضت الضرورة «عن طريق استدعاء الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط كله إلى بيروت». كان كار، أحد أحفاد توماس جيفرسون، ملتزمًا بما صرح به. فبعد سنة كانت السفينة إنديبيندنس تقوم بجولة كبيرة في الموانئ السورية والمصرية. وكانت الأوامر الصادرة إليها تقضي «بالاستعلام عن مدى الأمان والازدهار الذي تشعر به البعثات التبشيرية، وبمدها بكل المساعدات التي تطلبها».

كان امتزاج البعثات الدينية والسلطة الدنيوية علامة من علامات فترة المصير الحتمي في كل من أمريكا الشمالية والشرق الأوسط. ومع ذلك وعلى عكس البعثات التي كثيرًا ما كانت تشكل نواة قلاع ومدن المستقبل في الغرب الأمريكي، فإن المحطات أو القواعد الدائمة التي قام البروتستانت الأمريكان بتأسيسها في الشرق الأوسط لم تكن أبدًا نواة لمطامع في أراضيه، ولم ترتبط أبدًا بمصالح تجارية، كما كان الأمر مع المبشرين في هاواي. وكان غياب أي أجندة أو مطامع استعمارية أو اقتصادية هو ما يميز المبشرين في الشرق الأوسط، ليس عن زملائهم في الولايات المتحدة فقط، بل أيضًا عن الوعاظ الأوروبيين الذين كثيرًا ما كانوا عملاء لحكوماتهم في تلك البلاد. لذلك خلص قنصل فرنسي في بيروت بعد تمحيص دقيق إلى أنه «مقتنع أن الدافع الوحيد لوجود الأمريكيين في الشرق الأوسط ديني بحت، وأنا ببساطة لا أرى أي دافع سياسي خفي أو شرير».

كان المبشرون الأمريكيون في الشرق الأوسط يرون المصير الحتمي ليس فقط نموذجًا لغزو المناطق، بل ضمانًا لجذب الأرواح والأذهان. واستمروا في الاستهزاء بالإسلام باعتباره دينًا رجعيًّا مضللًا، ورفضوا أيضًا كل صور المسيحية الشرقية باعتبارها متخلفة وعفا عليها الزمن. كان منهجهم نحو شعوب وثقافات المنطقة مليئًا بالعجرفة، مع أن تعاليهم كان مشوبًا بطيبة القلب. وأمام حشد من اللبنانيين الغاضبين،

أعلن ويليام جوديل بكل صدق «لقد جئنا بكل ما أوتينا من طيبة قلب بغرض رفع شعوبكم من حالة الجهل والانحطاط والموت التي تعيشونها».

كان ملايين الأمريكيين في ذلك الوقت يساندون مجهودات الخلاص هذه. وبدءًا بحملات صغيرة بعد حروب البربر، ازدهرت حركة المبشرين في العقود الأربعة حتى وقت وقوع الحرب الأهلية، وتحولت إلى شغف على المستوى القومي، وانهال الدعم على البعثات التبشيرية ليس فقط من الكنائس عبر البلاد، بل أيضًا من الصحافة والكونجرس وحتى من البيت الأبيض. وبإلهام من رؤية المصير الحتمي، فإن عمال المصانع والمزارعين وخريجي المدارس الصغيرة وخريجي الجامعات الرائدة، الشماليين منهم والجنوبيين على السواء، تطوعوا لمهام التبشير بالبروتستانتية في الخارج. لذلك لم يكن هناك عامةً نقص في المتطوعين. وربما يكون أكبر دليل على تأثير المصير الحتمي على مشروعات التبشير هو الميزانية السنوية للمجلس الأمريكي، التي ارتفعت من ١٠٠٠٠ دولار في عهد فيسك وبارسونز إلى ٢٥٠٠٠٠ بحلول منتصف القرن.[٧]

كان تأثير الظروف المحسنة للمبشرين العاملين في الشرق الأوسط مع الحيوية التي عادت لحماس البروتستانت أوضح ما يكون في حالة سيروس هاملين Cyrus Hamlin. فقد ولد في ماين عام ١٨١١، وأصبح يتيمًا في سن مبكرة مما اضطره للعمل مساعدًا في المزارع. إلى جانب ذلك درس أيضًا، وفاز في النهاية بمنحة لكلية بودوين، حيث أصبح الطالب المفضل لهنري وادزورث لونجفيلو، وتخرج الأول على فصله. كان وسيمًا للغاية، وإن كان شاربه غريبًا للغاية أيضًا. لذلك كان هاملين يمثل نموذجًا لعصر المصير الحتمي. ولذلك أيضًا وصف بأنه «ذو إرادة حديدية، ينزع للشجار، وديكتاتور». لكنه لم يعمل بالوعظ الديني، بل أعد نفسه للعمل في مجال التبشير. لكنه بيت في نفسه أن يجمع بين التبشير للبروتستانتينية وعبقرية عصر الثورة الصناعية. فالصناعة — عند هاملين — كانت أكثر من مجرد إجراء للإنتاج. بل كانت أيضًا أداة لتطهير الأرواح. وصل هاملين إلى إسطنبول عام ١٨٤٠، وشرع فورًا في تعليم الشباب المحلي مبادئ الرياضيات وقواعد اللغة الإنجليزية وتعريفهم ببعض طقوس المسيحية.

تزامن وصوله مع الانفتاح الذي قام به السلطان على الغرب. ونتيجة لذلك، حصل هاملين على موافقة بتأسيس مدرسته في بيبيك، التي تبعد عن إسطنبول خمسة أميال. وفي بداية عام ١٨٤٢، كان هناك أربعون تلميذًا مسجلون في المدرسة، يقضون نصف اليوم في قاعات الدرس والنصف الآخر في تصميم أفران ومصائد للفئران ويعملون على تشغيل طواحين الدقيق. كانت المقاومة الوحيدة لهذا المنهج الحديث تأتي من البطريرك الأرمني، الذي كان معظم التلاميذ من رعيته، ومن المزارعين المسلمين الذين كانوا يلقون

الحجارة على المدرسة، مما جعل بها «ثقوب»، على حد قول هاملين. ومع ذلك فقد تمكن من إصلاح الخسائر ومن مصالحة البطريرك، وأخبر هاملين المجلس، وهو راض تمامًا، أنه قد ترك أثرًا دائمًا على التعليم العثماني، وأثار روحًا عامة للفضول العلمي، وأكد أن «الشرق الراكد بدأ يتغير»، ولكن دون أن يلاحظ كم هذا التغيير، لم يكن لدى هاملين أي فكرة عن أن مدرسته المتواضعة ستتحول يومًا ما إلى أول جامعة تركية حديثة.[٨]

تعافى المبشرون الأمريكيون تمامًا من وضعهم حيث شارفوا على الفناء التام في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وبنهاية فترة ما قبل الحرب كانت أحوالهم مزدهرة؛ إذ كان مئات المسلمين والمسيحيين واليهود يدرسون في مؤسسات تبشيرية في جميع أنحاء الدولة العثمانية، ويقرؤون كتبًا تخرجها المطابع الدينية الأمريكية، ويتشربون بالأفكار الأمريكية؛ وشرح المعلم المصري الرائد الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الوضع قائلًا: «هذا البلد (الولايات المتحدة) من أعظم الدول المتحضرة في العالم، فسكانها قد حرروا أنفسهم من قبضة الإنجليز وأصبحوا أحرارًا ومستقلين اعتمادًا على أنفسهم، ومسموح لديهم باتباع كل العقائد والأديان.» واستجابة لطلب السلطان عبد المجيد، قام المبشرون أيضًا بتأسيس مدرسة على الطراز الأمريكي للتدريب العسكري، وتمكن هؤلاء الضباط الشباب [الأتراك] — عن طريق المهارات اللغوية التي اكتسبوها — من قراءة أحدث النشرات العسكرية الأمريكية، بالإضافة إلى أكثر الأعمال إثارة لجيفرسون وهاملتون وباين.

وبجانب محاولات تحويل أهالي الشرق الأوسط عن عقيدتهم وتعليمهم قام المبشرون أيضًا بتنوير أبناء بلدهم في الوطن، فعن طريق رسائلهم ومقالاتهم وتقاريرهم التي لا يحصى عددها، قدم المبشرون البروتستانت للأمريكيين صورًا للحياة في الشرق الأوسط كانت أكثر تفصيلًا — وأقل بريقًا — من أي قصص من الإنجيل أو من كتاب ألف ليلة وليلة؛ وقامت المراسلات التبشيرية أيضًا بدور المصدر الرئيسي لإدوارد سالزبري Edward Salisbury من جامعة ييل، الذي أصبح عام ١٨٤١ أول أستاذ أمريكي للغة العربية، وأصبح أيضًا أول أستاذ للجمعية الأمريكية الشرقية، التي أُسِّسَت في العام التالي بهدف دراسة ثقافات الشرق الأوسط القديمة والحالية، وانضم سالزبري بدوره إلى المبشرين في الترويج للتعليم التقدمي في سوريا وغيرها من الأقاليم العثمانية؛ وقد شهد هذا العالم بأن «بلاد الغرب، ومنها بلادنا نحن، تدين بتنوع ثقافاتها للشرق، وقد آن الأوان لرد هذا الدَّين».

ومع إنجازاتهم المذهلة، استمر المبشرون في مواجهة عدة أخطار في الشرق الأوسط، وفي معالجة إحباطات يومية، فاشتكى ويليام إيدي William Eddy المقيم في بيروت على سبيل المثال من «عدم وجود سكك حديدية هنا؛ فتُنقل الأحمال والأفكار عن طريق قوافل الجمال»، ولم تأت أكبر المعارضات للمبشرين من الشرق الأوسط، بل من المجلس الأمريكي ذاته، إذ استشعر الكثيرون من كبار السن فيه أن التركيز على الكتب المدرسية والطب قد حجب الهدف الأساسي من البعثات التبشيرية، وهو الخلاص، وخلص الدكتور جون ثورنتون كيركلاند John Thornton Kirkland، الرئيس السابق لجامعة هارفارد، بعد زيارة لسوريا عام ١٨٤٢ إلى أنه «إذا قُدِّمت المسيحية للبشر بصورتها البسيطة بدون تقنيات المدارس فقد تلقى قبولًا أكثر وأشمل»، وأجاب المبشرون بأن هذه الخدمات تساعد على كسب ثقة السكان المحليين، مع تهيئة الأجواء الفكرية والمادية التي قد تدفعهم إلى التحول إلى البروتستانتية في المستقبل، وكان لكيركلاند زوجة، هي إليزابيث التي سنتعرف عليها باعتبارها رحالة رائدة إلى الشرق الأوسط، اختلفت إليزابيث مع زوجها ومع المجلس، وانحازت إلى جانب المبشرين، وأكدت ذلك بقولها: «هؤلاء الناس (تقصد المبشرين) قد وجهوا اهتمامهم نحو تأسيس المدارس كإعداد وتمهيد (لأهل تلك البلاد) لدخول المسيحية، وبصورة عامة فإن المبشرين الأمريكيين يحظون بدرجات قصوى من الاحترام.»[٩]

ولم يحسم هذه المسألة المجلس الأمريكي ولا المبشرون، ولكن حسمتها شعوب الشرق الأوسط، عن طريق مطالباتها المتصاعدة بالتعليم الحديث وخدمات الرعاية الصحية، ومع عدم استجابتهم لرسالة المبشرين الدينية، فإنهم ظلوا على تقديرهم لأعمالهم الخيرية وتقبلوا وجودهم بينهم. واستغلالًا لذلك الانفتاح، أصبحت أعداد متزايدة من الأمريكيين تتبع مشاعرها التلقائية إلى المنطقة، وكان من بينهم نوعان من الأنماط الممتزجة، المبشر العالم، والمبشر الجندي، وكان كلاهما يرحل إلى الشرق الأوسط، الذي أصبح أكثر المناطق تقديرًا من قبل الأمريكيين، بحثًا عن المعرفة وقدسية الحياة.

مغامرات في الجنة المقدسة

تمطى الراكب على سنام الجمل ونظر إلى الأجواء الحارة المتربة مضيقًا عينيه، لم يكن بالمغامر التقليدي، فلم يكن عريض الصدر كجون ليديارد أو مهيبًا كجورج إنجليش، كان إدوارد روبنسون Edward Robinson في السادسة والأربعين، بدينًا قصير النظر، وكان أستاذًا للكتابات الدينية بكلية الوحدة للدراسات الدينية بنيويورك، ومثل سراب الصحراء الخادع، كانت صورة روبنسون كرجل ضعيف صورة خاطئة للغاية، بل

الواقع أنه كان قادرًا على ركوب الجياد لمدة ثماني ساعات متواصلة تحت أشعة الشمس الحارقة وهو يراجع إنجيله وبوصلته، وكان قد قضى الشهر الأخير في عبور جبال سيناء الوعرة دون شكوى، منبهرًا «بغرابتها وعظمتها»، ومذكرًا نفسه أن هذه هي نفس القمم التي عبرها موسي وبنو إسرائيل، وأخيرًا، في مارس/آذار ١٨٣٨ استعد روبنسون للخروج من الصحراء ودخول بلد «رومانسي ومثير». نظر من نظارته المتسخة، فرأى المياه اللازوردية لخليج العقبة، أما وراءها فرأى أرض اليهودية، واعترف قائلًا: «مع أنني لست عاطفيًّا، فإنني لم أستطع منع نفسي من الانفجار في البكاء.»

كان روبنسون جزءًا من طابور طويل من الأمريكيين الذين كانوا يأتون أفواجًا إلى البلد المقدسة في الحقب السابقة على الحرب الأهلية، وللتكيف مع هذه الكثافة، عينت الولايات المتحدة وكلاء قنصليين في ست مدن فلسطينية رئيسية، مما جعله أكبر تمثيل لبلد غربي في المنطقة، ولكن كانت هذه القنصليات متخمة بهجوم من المبشرين والسائحين والمستعمرين والباحثين، وكلهم منجذبون إلى خبر التسامح الذي يعامل به الأجانب في فلسطين، وبسبب الوصف المبهر لعجائبها.

كانت الكثير من تلك الحكايات — على أقل تقدير — مبالغًا فيها، فقد كتب ويليام تومسون، المبشر الذي تحدثت رسائله بقسوة عن فلسطين وترك البلاد لاحقًا ليذهب إلى بيروت، كتب كتاب «البلد والكتاب»، وهي قصة حماسية مبهجة، بها العديد من الصور المثالية، فقد ادعى فيها أن بلد الإنجيل هذا لم يعد مقفرًا وقاسيًا، بل جنة «من الجبال الشاهقة، المغطاة بالثلوج، ومن سهول مغطاة بأزهار نضرة، بالإضافة إلى بحيرات وأنهار ومجارٍ مائية جرى تعميدها بالجمال»، بيع من هذا المجلد ثلاثون طبعة في الولايات المتحدة، وساعد على تثبيت الخيالات الشبيهة بالأحلام المحيطة بفلسطين، ولكن هذه الأجواء الغامضة كانت سريعًا ما تختفي وتتبخر عندما يصل الأمريكيون ويواجهون واقعًا أكثر كآبة، وقال القنصل الأمريكي في يافا تعليقًا على ذلك: «لا توجد دولة أخرى في العالم كتب عنها مثل هذا الكم الكثير، وعرف عن حقيقتها هذا الكم القليل»، ملاحظًا «الحالة شديدة الإثارة من التوقعات والخيالات» عن فلسطين، التي كثيرًا ما دفعت أبناء وطنه إلى ما عرف بـ«كآبة ما بعد الحج».[١٠]

ولكن إدوارد روبنسون كان يمثل استثناءً لتلك القاعدة، فمع أنه كان من الأبرشانيين، فإنه لم يسمح أبدًا للمعتقدات الدينية أن تحجب حكمه العلمي، فقد نشأ طفلًا في مزرعة بولاية كونيتيكت، وكان يحلم بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين يومًا ما، وكشخص ناضج راشد بالغ صمم على التخلص من «هذا الكم الضخم من التقاليد، الغريبة في مصدرها، والمريبة في سماتها وشخصيتها» التي تحيط بتلك الأماكن. وكان

التطهريون قد فرضوا خريطة إسرائيل القديمة على أرضهم الموعودة الجديدة أمريكا، وأصبح روبنسون الآن خلفهم ويسعى إلى إعادة التعرف على تلك الخريطة وحقيقتها التاريخية.

وبصحبة إيلي سميث، المبشر المتحدث بالعربية، توجه روبنسون إلى الشمال، عبر المنطقة المعروفة اليوم باسم الضفة الغربية، أصابه الريف الملوث «بالركود والظلام الأخلاقي» باكتئاب حقيقي، مثله مثل طبيعة سكانه «الذين لا يمكن الاعتماد عليهم»، ومع ذلك فقد كانت تلك المدن الحقيرة تبدو مألوفة لروبنسون «وكأنها حلم جديد يتحقق»، وتضخم إحساسه بهذا الحلم في ٤ من أبريل/نيسان ١٨٣٨ — وكان يوم عيد الفصح — عندما قام مع سميث «مثل العبرانيين القدامى في وقت عيد الفصح اليهودي» بدخول القدس؛ كانت هناك مجموعة من ثمانية مبشرين وعائلاتهم في استقبالهم، وكان هذا أكبر تجمع شهدته المدينة للبروتستانت.

ومع ذلك فلم يؤثر هذا في روبنسون، وفي فجر اليوم التالي كان بالخارج، مسلحًا بمقياس طوله مائة قدم، لقياس أسوار القدس، وباستخدام الإنجيل وغيره من كتب الحكايات الكلاسيكية كدليل، تعرف على بركة سلوان، وبالرغم من قصر نظره وجسده البعيد عن الرشاقة، فقد نجح روبنسون في الزحف لمسافة ١٧٥٠ مترًا في نفق ضيق مليء بالحجارة، ووصل إلى نافورة العذراء داخل المدينة القديمة، وتعرف أيضًا على موقع بقايا جسر ضخم، كان يوصل يومًا ما إلى معبد هيرود، الذي يعرف اليوم باسم قوس روبنسون، خرج بعدها روبنسون إلى الريف، بحثًا عن المواقع التي وردت في الكتابات الدينية، عن قناعة بأن أسماءها العربية الحالية تتضمن أصداءً من أسمائها العبرية الأصلية، وعلى ذلك وجد روبنسون في اسم القرية العربية السموع آثارًا من الاسم العبري اشتموع. ووجد أيضًا أن الجش هي التسمية العربية للاسم العبري جوش هالاف، وأن الجب كانت جيبون، حيث تمكن يوشع من إيقاف الشمس، وأطلق أحد المبشرين على روبنسون لقب «المعلم الأكبر للقياس في العالم» وذلك بعد أن تمكن من استعادة ماض أسطوري، ورسخه في واقع اليوم.

كان إدوارد روبنسون قد قام برحلة استكشافية ثانية إلى فلسطين عام ١٨٥٢، ونشر مجلدين ضخمين من أبحاثه، وأصبح بذلك أول أمريكي تمنحه جمعية لندن الجغرافية الملكية ميدالية ذهبية. وأسس أيضًا حقلًا معرفيًّا جديدا تمامًا، هو علم الآثار الإنجيلي، وهو علم أمريكي خالص، ولم يكن هذا العلم متاحًا للعلماء وحدهم، بل لرجال الدين والعامة أيضًا، وجذب لفلسطين أمريكيين آخرين أيضًا، مزجوا بين عقيدتهم وإيمانهم من ناحية وبين رغبة قوية في الاستكشاف، تمامًا مثل روبنسون.[١١]

وكان وليام فرنسيس لينش William Francis Lynch أحد هؤلاء الرحالة، وهو قائد بحري «ومسيحي جاد ومحب للمغامرة» جاب أمريكا الجنوبية والشرق الأقصى من قبل، وكان في نفس عمر روبنسون، أي في السادسة والأربعين، ولكنه كان رشيقًا وذا عينين حادتين، أي أنه كان صورة مثالية للفيرجيني الشجاع، في مايو/أيار ١٨٤٧ كان الملل قد بلغ به مداه، بسبب غياب أي نشاط أو تحرك في حرب المكسيك، لذلك طلب لينش إجازة لزيارة فلسطين، واقترح أن يكون أول غربي يبحر بطول نهر الأردن بأكمله، من بحيرة طبرية إلى البحر الميت، «للترويج لقضية العلم وتطوير خدمات البحرية الأمريكية»؛ أما فيما عدا القيمة العلمية والدراسية والتحفيزية فكان لينش يأمل في أن تقوي رحلته روابط أمريكا بالأرض المقدسة، وأن يحدث عن طريقها الإسراع بالخلاص على مستوى العالم.

اختار لينش بنفسه طاقمًا مكونًا من خمسة ضباط وتسعة بحارة من «الشباب مفتولي العضلات المولودين في أمريكا والذين لا يتعاطون الخمر»؛ غادر لينش نيويورك متوجهًا إلى إسطنبول، وقدم نفسه في بلاط السلطان عبد المجيد وأحدث ضجة برفضه خلع سيفه تحية للسلطان، ولكنه حاز رضا السلطان مرة أخرى عندما قدم له كتيبًا به مجموعات صور للهنود الحمر كهدية من الرئيس جيمس بوك James Polk، ومقابل ذلك حصل لينش على فرمان أو قرار إمبراطوري يمنحه «حماية من العرب»؛ ولكن القائد لم يعتمد على ذلك الضمان، لأنه عندما وصل إلى بيروت استعان بخدمات هنري جيمس أندرسن Henry James Anderson المبشر الطبيب، وفكر لينش: «في حالة ما إذا أصبت بطلق ناري، لن يكون هناك غنى عن الجراحة.» كما استأجر الأمريكيان عدة حراس من البدو أيضًا، واشتروا ترسانة من الأسلحة المختلفة.

حُمِّلت الأسلحة والأجهزة العلمية ومعدات التخييم على ظهور الدواب، من جمال وغيرها، وشحن قاربان من الحديد المجلفن على حاملات للسلاح، ثم ربطت بظهور الجمال، وبخروجهما من مدينة أيكر الساحلية، مضت هذه القافلة العجيبة لمسافة ثلاثين ميلًا في ريف رأى الأمريكيان أنه مقفر بدرجة كئيبة وغير مأهول بالسكان، ومع ذلك فقد أصرا على الاحتفاظ بمعنوياتهما عالية، عن طريق غناء «فلتحيا كولومبيا» وأغنية أمريكية أخرى شهيرة وكذلك أغنية «العلم المليء بالنجوم»، بالإضافة إلى معاقرة الخمر بين الحين والآخر، وكتب إدوارد مونتاجو Edward Montague أحد البحارة: «نحن الأمريكيين لا نتردد ولا نخاف، فنحن لا نخشى العرب المتجولين ولا تأثير الأمراض ولا حرارة الشمس ولا رياح الصحراء الخانقة.» كان الرجال مغرمين غرامًا خاصًّا بقائدهم، الذي قال عنه مونتاجو: «أحد أفضل الرجال وأكثرهم إنسانية وفكرًا

وكرمًا.» ووصفه أيضًا بأنه بطل «ذو روح وثابة يتميز بها أمريكيو المولد بصورة خاصة».

بدا الأمر وكأن لينش أيضًا سعيد بكل ما يراه، من العلم الأمريكي المرفرف فوق جنوده، إلى منظر بحيرة طبرية، وكانت مجرد فكرة أنه يسير على نفس السواحل التي وطأها يسوع المسيح ويلمس المياه التي سار عليها، تثيره وتملؤه بالفرح، تمامًا مثل كرم الضيافة الذي أظهره له ولطاقمه المجتمع اليهودي القديم في مدينة طبرية، فقد دعاهم تاجر غني اسمه حاييم وايزمان Chaim Weisman الأمريكيين إلى الإقامة في منزله، واحتفى بهم ببذخ، وبعدها بأسبوع في ١٠ أبريل/نيسان ١٨٤٨، ودع لينش ورجاله وايزمان واستقلوا القوارب المصنوعة من المعدن.

يقول لينش: «لا بد أن المنظر من الشاطئ كان لا مثيل له، فالطاقم في قوارب حربية، وقلاعها الناصعة البياض مشرعة، وأعلامها ترفرف، وإيقاع الدفة منضبط ونحن نبحر على السواحل الخضراء الساكنة لبحيرة طبرية.» سُمِّي أحد القاربين بفاني ميسون على اسم ابنة وزير البحرية وسمي الثاني فاني سكينر على اسم ابنة أحد كبار القادة، وكان تصميم القاربين المعدنيين يسمح لهما بمقاومة دوامات نهر الأردن الشهيرة وتياراته الجارفة؛ وكان هناك قارب صغير بالإضافة إليهما، وأطلق عليه اسم العم سام؛ لقد كان النهر بالفعل صاخبًا، وتجمعت جماهير من السكان المحليين على الشاطئ للمشاهدة، ويتذكر لينش المحب للإثارة والمبالغة كيف كان هو وطاقمه «رحالة مجهولين في بلاد موحشة مجهولة لا ترحب بهم»، حيث كانت «القبائل البربرية من العرب المحبين للقتال تدعو المرء تلقائيًّا إلى تحسس سلاحه، أو القبض على مقبض سيفه».

ولكن العالم لينش أرهق نفسه في تسجيل عمق النهر ودرجات حرارة مياهه، وفي وصف البيئة المحيطة به، وحاول — مثل روبنسون — تحديد موقع الأحداث المذكورة في الإنجيل بدقة، خاصة أماكن عبور بني إسرائيل إلى أرض كنعان أو المكان الذي صارع فيه يعقوب الملاك، مع أن النتيجة لم تكن دقيقة بالمرة، وفيما حوله يتخيل لينش أن هناك «أراضي مليئة بذكريات مقدسة، وآثار أقدام المسيح الفادي، التي غذتها الدماء، والتي أصبحت مباركة بوجود قبره فيها».

مرت ستة أيام قبل أن يقترب البحارة المنهكون من أريحا، وكان لينش يؤمن أنه لا يوجد مسيحي زار هذه المنطقة منذ عصر الصليبيين، وأن احتمالات اعتداءات البدو كانت عالية للغاية، وفي حركة مناورة تعلمها من المقاتلين الهنود في الغرب الأمريكي، جمع رجاله وقواربه في دائرة دفاعية، وقد أثبتت هذه المناورة أنه لا ضرورة لها، لأن

المتطفلين الوحيدين كانوا بعض الحجاج المسيحيين، ومنهم اثنان من الأمريكيين اللذين كانا قد خلعا ثيابهما ونزلا إلى نهر الأردن للاستحمام.

بعد ذلك أكملت المجموعة العشرين ميلًا الباقية على وصولها لمحطتها؛ البحر الميت، وكتب مونتاجو يقول: «الرجال يمكنهم الطفو بسهولة على سطحه، ويمكنهم نتف ريش دجاجة أو قراءة الصحيفة وهم طافون.» أما لينش فلم يكن في حالة مزاجية جيدة، بل انتابته كآبة بسبب جفاف الصحراء من حوله وبسبب نقص المياه العذبة، فقال: «بالتأكيد وقعت لعنة الله على هذا البحر!» وكان عزاؤه الوحيد هو مياه عين جدي، التي أعاد لينش تسميتها «تكريمًا لأعظم الرجال الذين أخرجهم العالم حتى الآن»؛ جورج واشنطن.

قضى لينش الأسابيع الثلاثة التالية في إجراء تجارب على مياه البحر الميت، التي اعتقد أنه قد يكون لها فوائد طبية، وقضاها أيضًا في استكشاف أطلال قمران وماسادا. ثم سار إلى الكرك في الأردن الحالية حيث كان يوجد بعض المسيحيين، أبناء وأحفاد الصليبيين الذين افتخروا بغزوهم في يوم من الأيام، والذين كانت الأغلبية المسلمة تضطهدهم بشدة، ومع انشغاله التام فقد وجد لينش وقتًا للاستمتاع بليال رومانسية في الصحراء، حيث «الخيام بين نيران الحراسة الموقدة، والجبال الداكنة في الخلفية، والنجوم فوقها والقوارب مربوطة إلى الساحل». وكان يتابع أخبار الوطن، عن طريق البريد الذي كان يصل إلى القنصل الأمريكي في القدس، فيوصله بدوره إليه، أحد تلك الطرود جاءه بخبر وفاة جون كوينسي آدامز، الرئيس الذي كان قد حاول فتح الشرق الأوسط أمام الأمريكيين قبل ذلك بعشرين عامًا. وبكى لينش قائلًا: «انسجمت فكرة الموت مع البيئة من حولنا؛ فأنزلنا الأعلام وساد الوجوم المكان.»

في ١٠ من مايو/أيار رفع لينش نفس العلم على طوف راسٍ في البحر الميت، وأمر بفك القوارب الحديدية، ثم توجه هو ورجاله شمالًا نحو القدس والناصرة وقيصرية، كانت انطباعاته عن تلك المواقع وغيرها من الأماكن الشهيرة مشابهة لانطباعات كثير من الحجاج الأمريكيين؛ مزيج من الاشمئزاز بسبب قلة الجَمال فيما حولهم، مع سمو روحي، وكان الطريق مرهقًا للغاية، فحين وصلوا إلى دمشق كان كل رجال لينش يهذون بسبب الحمى، أما الملازم أول ديل — أحد رجاله — فمات في منزل إيلي سميث ببيروت، ودفن بجانب ويليام تومسون.[١٢]

عاد لينش إلى نيويورك وإلى استقبال ممتزج غير متوقع، فالذين انتقدوا الرئيس بوك لإرساله الجيش الأمريكي ليحارب ضد المكسيك كانوا ينتقدونه الآن بسبب إهداره ٧٠٠ دولار من المال العام على رحلة استكشافية أخرى لا ضرورة لها، ومع ذلك فقد

حققت مذكرات لينش عن الرحلة مبيعات هائلة، كان مجلدًا وصفيًّا وإرشاديًّا غريبًا، لكن نبرته كانت مليئة بالعناد والإصرار، وكان المؤلف قاسيًا في رسمه لصورة العرب، مدعيًا أن «حبهم الكبير للذهب الذي يستولون عليه من بين يدي الغريب غير المسلح، أو يقتنصونه من صديق لا يتوقع منهم شرًّا». ومع ذلك فقد دافع عن فلسطين بنفس الحماس، مؤكدًا أن لها مستقبلًا اقتصاديًّا مبشرًا، وقدم لينش عدة أفكار لتطوير الأرض المقدسة، منها خطة لإعادة تسكين الأمريكيين السمر في مزارع تؤسس في سهل الأردن، وكان مفتاح نجاح تلك البرامج هو الأمان، كما كان يؤكد. فكتب يقول: «خمسون من الفرنجة أقوياء الشكيمة مسلحون جيدًا، يمكنهم إحداث ثورة في البلد كلها.»

واختتم لينش كتابه بدعوة حماسية لإعادة اليهود إلى فلسطين، فالشعب اليهودي «مقدر له أن يكون أول عنصر من عناصر حضارة العرب» ووسيلة لإعادة إحياء المنطقة بأكملها، توسع الدكتور أندرسن — طبيب البعثة الاستكشافية — في عرض لينش، وتحت رعاية الجمعية الأمريكية للجغرافيا والإحصاء نشر طلبًا يدعو الولايات المتحدة إلى الترويج للاستعمار اليهودي في فلسطين، قائلًا: «التأثير اليهودي كان كبيرًا فيما يسمى المنطقة العربية السورية، وسيمنح دفعة جديدة لتجارة الشرق، وتجارة العالم كله.»[١٣]

حان وقت العودة

الاقتراح القائل بأن تقوم الولايات المتحدة بمساعدة اليهود في العودة إلى فلسطين لم يكن جديدًا ولم يعتبر متطرفًا بصورة مبالغ فيها في فترة ما قبل الحرب، فأفكار إعادة اليهود التي سادت بين الكنائس الإنجيلية في أمريكا الاستعمارية كانت قد تعمقت لدى عامة الناس، وفي حين ظل الأساقفة والموحدون على رفضهم لتلك الفكرة، كانت جماعات المنهجيين والأبرشانيين والمشيخيين قد تبنت الفكرة، وكان كثير من الأمريكيين يؤمنون بأن اليهود بدءوا بالفعل العودة إلى وطنهم، وهي منطقة قليلة السكان، أكد لهم المبشرون أنه يمكنها استيعاب الملايين، وكانت المقولة الشهيرة للورد شافتزبري Lord Shaftesbury، الإصلاحي الإنجليزي المعاصر هي: «وطن بلان شعب لشعب بلا وطن.» وقال قس كونيتيكت توماس روبنز Thomas Robbins في مذكراته في يونيو/حزيران ١٨٣٨: «تبدو هناك تحركات غير معتادة بين اليهود.» أما سارة هايت Sarah Haight فهي امرأة من لونج أيلاند رحلت إلى الشرق الأوسط في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وكانت مقتنعة تمامًا بقرب تجمع اليهود في فلسطين، وكانت تقول متنبئة: «سيأتي الله بشعبه المختار لإعادة بناء هيكلهم والتعبد فيه.» وكانت بذلك تتنبأ بما أسمته «انقضاء عهد الكفرة».

ظهرت الدعوة لعودة اليهود في أجلى صورها في فترة ما قبل الحرب في دراسة كتبت عام ١٨٤٤، باسم «وادي الرؤية» أو «إحياء العظام الجافة لإسرائيل»، التي قام بها عالم الإنجيل وأستاذ العبرية الشهير بجامعة نيويورك، جورج بوش George Bush. فقد انتقد فيها «العبودية والاضطهاد اللذين قربا اليهود من التراب وأذاقاهم الذل» ودعا إلى «تحسين سمعة اليهود بين أمم العالم» عن طريق إعادة تكوين دولتهم في فلسطين، هذه العودة لم تكن لتفيد اليهود وحدهم، بل الإنسانية جمعاء، مكونة «رابطة للاتصال» بين الإنسانية والرب، وتنبأ بوش بأن ذلك «سينهي سوء سمعتهم، وسيوضح ظاهرة رائعة بين جميع الأمم والألسنة المختلفة التي تنطق بالحق»؛ ولكن البعض انتقد هذا الكتاب، فانتقد «تقرير برينستون» ما أسماه «الاعتقاد في إعادة اليهود حرفيًّا التي ازداد تصديق وإيمان المسيحيين بها منذ سنوات»، ومع ذلك فقد استمر قطاع متزايد من الأمريكيين في تصديق جورج بوش — وهو جد رئيسيين لاحقين يحملان نفس الاسم — وحلمه بدولة يهودية.

من وجهة نظر بوش — وكما كان الحال مع معظم من آمنوا بعودة اليهود إلى أرضهم الموعودة — كان دور المسيحيين في إعادة تأسيس الكيان اليهودي يقتصر على الصلاة والدعاء، وفي أفضل الحالات تقديم «حوافز» ضرورية لليهود للعودة إلى فلسطين.[١٤] ولكن بعض أتباع هذه الفكر سعوا إلى دور أكثر إيجابية في إعادة توطين اليهود، فكانوا يسافرون إلى الأرض المقدسة، ويقيمون هناك، ويعدون العدة لعودة اليهود.

أحد أمثلة ذلك النشاط قدمته إحدى أحدث الطوائف وأكثرها إثارة للجدل، وهي طائفة المورمون. كان مؤسس الحركة، جوزيف سميث Joseph Smith، مؤمنًا إيمانًا عميقًا بإعادة توطين اليهود. وأرسل عام ١٨٤١ مبعوثه الشخصي، أورسون هايد Orson Hyde، في رحلة حج إلى القدس. فتسلق هذا الأخير جبل الزيتون، وأنشأ على قمته مذبحًا ودعا ربه أن «يعيد الملك إلى بني إسرائيل، وأن يجعل القدس عاصمة لهم، وأن يستمر شعبها في كونه مميزًا، أمة وحكومة». وقد دمج المورمون فيما بعد هذا الدعاء في صلواتهم، وبنوا في موقع المذبح الذي شيده هايد فرعًا لجامعة بريام يونج.

وأما واردر كريسون Warder Cresson فكان أكثر نشاطًا وأكثر اقتناعًا وتطرفًا من هايد، وقد أقام إقامة دائمة في فلسطين، ووهب حياته لإعادة توطين اليهود. كان أبًا لستة أبناء يقيمون في فيلادلفيا، وكان في السابق من المورمون، وقبلها من الكويكرز، وكان كذلك من الشيكرز. آمن كريسون بإعادة توطين اليهود في سن السادسة والأربعين،

وكان ذلك عام ١٨٤٤. في تلك السنة، قابل كريسون موردخاي نوح، الذي كان قنصلًا في تونس من قبل، وكان قد بدأ حملة لإعادة سيادة اليهود على فلسطين. جرب وفشل في دعوة أمريكيين يهود آخرين إلى مشروعه، لذلك بدأ في الترويج له بين المسيحيين. وتساءل: «أين يمكن أن ندعو إلى استقلال بني إسرائيل بثقة أكبر عن مهد الحرية الأمريكية؟» تردد صدى التساؤل عند كريسون، الذي أصبح مقتنعًا بأن الله خلق الولايات المتحدة خاصة لإنقاذ ودعم اليهود، وأن النسر الأمريكي — تحقيقًا لنبوءة إليشع — «سيغطي البلد بجناحيه». ثم أعلن أنه «لا خلاص لليهود، إلا بقدومهم إلى إسرائيل».

كتب كريسون من فوره لوزير الخارجية جون كالهون John C. Calhoun، وطلب أن يتم تعيينه قنصلًا في القدس، وتزامن هذا الطلب مع بحث وزارة الخارجية عن الدبلوماسيين المقبولين لدى المبشرين. وبعد الحصول على ضمانات عن «نزاهة وكفاءة» كريسون وافق كالهون على تعيينه. كان كريسون ذا ذقن داكنة وعينان نافذتان وأنف كبير، أي أنه كان يمثل الصورة المثالية لرسول متحمس. رحل كريسون بالسفينة في ٢٢ يونيو ١٨٤٤، حاملًا معه علمًا أمريكيًّا وحمامة بيضاء كان ينوي إطلاق سراحها عند وصوله. وتذكر قائلًا: «تركت زوجتي التي تزوجتها في شبابي، وستة أطفال أحباء، ومزرعة ممتازة. كل شيء كان مريحًا حولي، ولكن نور وعد الله الثمين (في إشارة إلى عودة اليهود) أصبح مضيئًا لدرجة أنني لم أستطع البقاء في الوطن».

وصل كريسون إلى فلسطين، واستقر في القدس، مؤسسًا «ختمًا قنصليًّا»، ومد مظلة الحماية الأمريكية على يهود المدينة، الذين كان الكثيرون منهم علماء فقراء يعتمدون على المساعدات والجمعيات الخيرية من الخارج. في تلك الأثناء كان كالهون قد علم من مصادر في فيلادلفيا أن كريسون «ضعيف العقل» وأن «البقية الباقية من عقله مشوشة إلى حد كبير». وهو ما أدى إلى إلغاء تعيينه كقنصل. وبمنتهى البساطة تجاهل كريسون الأوامر، واستمر في مساعدة اليهود. وخلال اجتماع مع المؤلف الساخر البريطاني ويليام ثاكيري William Thackery، وهو مؤلف Vanity Fair، شرح كيف ستقوم بلاده عما قريب — بالتنسيق والتعاون مع القوى الأوروبية — بالتدخل لضمان تأسيس دولة مستقلة لليهود. فكتب ثاكيري: «كريسون ليست لديه أي معرفة بسوريا إلا ما يستقيه من النبوءات، وأنا أشك في أن تكون أي حكومة قد استقبلت أو عينت سفيرًا أو قنصلًا بهذا القدر من الغرابة».[١٥]

استمر كريسون في إبهار زواره برؤى للدولة اليهودية وبسلوكياته الغريبة الشبيهة بالغياب عن الوعي. ولكن كريسون لم يكن الأمريكي الوحيد المؤمن بعودة اليهود لوطنهم، ولم يكن كذلك بالضرورة أكثرهم غرابة. وبنفس القدر من الغرابة وعدم التقليدية

كانت هاريت ليفرمور Harriet Livermore، كاتبة الروايات والمغنية والشاعرة والواعظة المبشرة بعودة اليهود.

كانت ليفرمور ابنة عضو مجلس النواب عن نيو هامبشاير، وقد تحولت من فتاة تتشبه بالرجال إلى آنسة بريئة، تتميز بالأناقة والعيون الداكنة. وفي سنوات ما بعد حرب ١٨١٢ رفضت طابورًا طويلًا من الشباب المتقدم للزواج بها، ولما رُفضت بدورها من طبيب شاب بالجيش، يئست تمامًا من خوض أي تجربة رومانسية، بحثًا عن حب أكبر وأسمى. فقالت: «تعبت من العالم، ويئست من أي أمل في سعادة دنيوية، ثم اتخذت قرارًا أن أصبح متدينة». أخذها هذا القرار أولًا إلى الأبراشانية، ثم المشيخانية، فالكويكرز. لكنها لم تقتنع بأي منهم، فاتجهت إلى المعمدانية وأسست طائفة خاصة بها، أسمتها الحاج الغريب. آمنت ليفرمور بأنها صاحبة قدرة على التنبؤ بالمستقبل، وأنها مبعوثة إلى الهنود الحمر، الذين آمنت أنهم من نسل الأسباط العشرة التائهة. ظهرت هذه وغيرها من الأفكار التي لا أساس لها في روايتها «دلائل من الكتب الدينية لصالح شهادة المرأة في الاجتماعات»، والتي مولها بعض أهالي واشنطن ذوي النفوذ، ومنهم عضو مجلس الشيوخ جون تايلر John Tyler ودوللي ماديسون Dolly Madison. ووصلت تلك الطائفة إلى قمتها في عام ١٨٢٧، عندما خطبت ليفرمور في كلا من مجلس الشيوخ ومجلس النواب. وقال جون كوينسي آدامز عنها: «إنها أكثر الخطباء الدينيين الذين سمعتهم في حياتي بلاغة؛ فلا توجد كلمات يمكنها أن توفيها حقها من حيث إثارتها للمشاعر والأحاسيس».

حدثت نقطة التحول في حياة ليفرمور بعد عشر سنوات، عندما جذبتها تقارير عن إعادة توطين اليهود في فلسطين إلى الشرق الأوسط، فتسلحت بخطاب من وزارة الخارجية، يشهد «بنزاهتها واستقامتها الدينية والأخلاقية»، وزارت ديفيد بورتر في إسطنبول، ثم استقلت سفينة بخارية إلى بيروت. في جنوب المدينة، في جبال صيدا، توقفت لزيارة السيدة هيستر ستانهوب Hester Stanhope، وهي سيدة بريطانية انطوائية في الخمسين من عمرها، كانت تعمل من قبل سكرتيرة لخالها رئيس الوزراء، ويليام بيت William Pitt. كانت ستانهوب أيضًا قد انتقلت إلى الشرق الأوسط أملًا في التشجيع على إعادة توطين اليهود في فلسطين. لكنها يئست من نجاحها في تلك المهمة، فاستأجرت قلعة صليبية وأطلقت على نفسها «راهبة لبنان». ولأنهما كانتا من الجميلات في السابق وممن آمنوا بإعادة اليهود لموطنهم كان يجب أن تتفاهم السيدتان سريعًا، لكنهما تعاركتا حول أي منهما هي المختارة حقًّا، وأيهما ستصاحب الرب عند دخوله منتصرًا إلى القدس.

من صيدا تابعت ليفرمور رحلتها إلى المدينة المقدسة، فاستأجرت سكنًا متواضعًا فوق جبل صهيون. ومن هناك خططت للإشراف على بناء مستعمرة تعليمية لليهود العائدين. ومثل الكثيرين من المؤمنين بالعودة، شاركتهم ليفرمور في فكرة أن كل الدول تتطلب أساسًا زراعيًّا، وأن المسيحيين لديهم واجب ديني هو إعادة تعريف اليهود بالزراعة. سعت ليفرمور إذن إلى رؤية المستعمرة كاملة ومنتهية، ثم إلى تخصيص حياتها للعبادة والتأمل «لمواجهة مصيرها، وهو الشهادة».

ولكن كان تمويل المستعمرة أكثر إرهاقا وتكلفة مما تنبأت به ليفرمور ومما توقعته، وسرعان ما نضبت مواردها، وبسبب رغبتها في «ما يقيم أودها ويسدد ديونها ويعيدها إلى جبل صهيون فقط»، حاولت ليفرمور توزيع نسخ مطبوعة من محاضراتها وعظاتها، ولكن الأمر انتهى بتسولها في شوارع وطرقات مدينة القدس، غير أن التسول لم يجد نفعًا، وغادرت ليفرمور فلسطين وهي على شفا الموت جوعًا، عائدة إلى الولايات المتحدة منكسرة الخاطر. وتوفيت في عام ١٨٦٨ — شهيدة بالفعل بالنسبة للبعض — في بيت للفقراء بمدينة فيلادلفيا.[١٦]

ولكن ظلت فكرة عودة اليهود حية بوضوح، تمامًا مثل رؤية تحويل اليهود الذين كان معظمهم من أهل المدن إلى مزارعين فلسطينيين. وفي حين كانت أحوال هاريت ليفرمور تتدهور في القدس، وصل واعظ أمريكي آخر إلى المدينة، وكله حماس لبدء مشروع بناء المستعمرة. كان طويلًا مهيبًا، لكن البعض كان يصفه بأن «له جرائم متواضعة». كان جيمس تيرنر باركلي رجلًا من عصر النهضة — طبيب ومخترع ومهندس. وكان الناس ينبهرون بخطه، والذي وصفه أحد المصادر بأنه قادر على أن يكتب صلوات الرب بحروف بلغ من صغرها ودقتها أنه يمكن «كتابتها كلها على عملة من فئة الخمسة سنتات». وجاءت أهم إنجازات باركلي سلبا في عام ١٨٣١، عندما قام بشراء مونتيتشيللو، وهي مزرعة جيفرسون الكلاسيكية، والتي كان قد أصابها التدهور والدمار منذ زمن. حاول باركلي إعادة إحياء المزرعة من خلال إنتاج الحرير، لكنه فشل فشلا ذريعا. ومن بعدها اتجه للدين. فأصبح مشيخانيا، ثم انضم إلى طائفة أتباع كمبل، وهي حركة ألفية، تهدف إلى إعادة حكم المسيح على الأرض. ومن أجل تحقيق هذا الهدف رحل باركلي في عام ١٨٥٠ إلى فلسطين.

ومثل ليفرمور سعى باركلي إلى تأسيس مستعمرة لإعادة تعليم وتأهيل اليهود للزراعة. لكنه سرعان ما واجه نقصًا مشابهًا في التمويل والموارد. أصابه الإحباط، فعاد أدراجه إلى ممارسة الهندسة، وحصل على عمل في ترميم قبة الصخرة. كما ألف كتابًا حقق مبيعات عالية، بعنوان «مدينة الملك العظيم»، وفيه وصف مدينة القدس — تمامًا

مثلما فعل ويليام تومسون قبل ذلك. كان وصفه مبهرًا، وأخذ من خلاله يدعو إلى فكرة إعادة توطين اليهود، تمامًا مثلما فعل جورج بوش من قبله. وأكد أن «الرب لم يطرد أبناءه (اليهود) الذين اعترف بهم من قبل. وكذلك يجب أن نفعل نحن أيضًا». بل كان رأيه أن المسيحيين يجب أن يتبنوا اليهود، قائلًا: «سنقف إلى جانبكم، لأننا سمعنا أن الرب يقف إلى جانبكم».[١٧]

ساعدت مثل هذه الدعوات على صرف الانتباه عن فشل أصحاب دعوة عودة اليهود في تأسيس مركز دائم في فلسطين للمساعدة في إعادة اليهود إلى موطنهم، كما آمنوا. وقد سعى بروتستانت آخرون إلى تحقيق النجاح فيما فشل فيه ليفرمور وباركلي، وإلى استكمال بناء المستعمرات في الأرض المقدسة. كان أكثر تلك الشخصيات لفتًا للأنظار وأكثرهم عنادًا وإصرارًا هي كلورِيندا ماينور Clorinda Minor. كانت تابعة للطائفة الأسقفية طوال عمرها، ومتزوجة من رجل أعمال ثري من فيلادلفيا. وفي مرحلة منتصف العمر أصبحت ماينور من السبتيين (المجيئيين)، ثم بدأت في الاستعداد لليوم الآخر. وفي ملاحظة لها قالت: «يظهر عدد كبير من المسيحيين الكثير من التعاطف نحو اليهود، وينتظرون الزمن المحدد لدعم صهيون». وحسبت ماينور «الوقت الموعود» فتوصلت إلى أنه «قريب». وفي عام ١٨٥١ تركت زوجها وأبحرت إلى فلسطين، قائلة: «كانت قناعة روحي تزيد في كل ساعة أن الرب يناديني للذهاب».

بعد الوصول إلى يافا بقليل، قابلت ماينور جون ميشولام، وهو يهودي بريطاني كان قد تحول إلى المسيحية، وكان يشارك ماينور في رغبتها في تعريف اليهود «بأنشطة محببة». ولكن جهودهما — مثل سابقيهما — توقفت بسبب نقص التمويل. وعلى ذلك توجهت ماينور إلى أصدقائها في الولايات المتحدة، الذين أجابوا طلبها بإرسال سبعة متطوعين، وخيام وأدوات وبذور وأدوية بقيمة ٢٥٦ دولارا. فجرى شراء قطعة أرض قابلة للزراعة بالقرب من قرية أرطاس، بالقرب من بيت لحم، وأُسست مدرسة الزراعة للأعمال اليدوية لليهود في الأرض المقدسة. كما قدم البارون موسي مونتيفيوري Moses Montefiore، وهو رجل خيّر يهودي من أصول إنجليزية، دعمًا إضافيًّا لهما، لأنه كان يرحب بأي مساهمة في تأسيس مستعمرة يهودية في فلسطين. وقد تنبأت ماينور في كتابها «مد من القدس» الذي حقق مبيعات ضخمة، تنبأت بأن «زمن دعم الرب لصهيون قد آن، وأن الرب سيمد يده مرة أخرى لإعادة مجد بني إسرائيل». وقد بدا وقتها أن نبوءتها ستتحقق.[١٨]

ولكن خلال سنتين، كانت مجموعة أرطاس قد تفككت. وقد حدث الشقاق أولًا بسبب رفض اليهود إظهار ولو قدر ضئيل من الاهتمام بالزراعة، ولكن السبب الأكثر

تأثيرًا والذي قضى على المشروع تمامًا، كان الخلاف الذي نشأ بين ماينور وميشولام. ورغم ذلك ظلت «تابيثا الحديثة» — كما كانت ماينور تسمى أحيانًا — على تفاؤلها، فانتقلت من أرطاس إلى مزرعة صغيرة خارج يافا، وأسمتها «جبل الأمل». وأهداها مونتيفيوري بستان برتقال، فتمكنت من العيش بصعوبة، بمساعدة اثنين من المبشرين الألمان، هما يوهان وفريدريش جروسشتاينبيك Johan and Frederick Grossteinbeck. وبثت رسالة إلى اليهود الأمريكيين عبر جريدة «الشرق» اليهودية قائلة: «إذ أمكن لأصدقائنا العبريين في الولايات المتحدة أن يساعدونا، فسنقدم لهم حسابًا تفصيليًّا لكل نفقاتنا. لا تضيعوا الفرصة، ولا تتركوا المعذبين للفناء». ولكن وصلتها عدة تبرعات زهيدة فقط. وعلى ذلك فشلت فكرة المزرعة، وأشهرت ماينور إفلاسها. ثم ماتت في عام ١٨٥٥ عن عمر يناهز التاسعة والأربعين.

ورغم ذلك ثابر بعض البروتستانت الآخرين. فبعد وفاة ماينور اشترى مزرعة «جبل الأمل» واردر كريسون، وهو قنصل عين نفسه بنفسه، وكان شخصية لها بعض السمات الخاصة المختلفة عن غيرها. رأى كريسون في مستقبل المزرعة «مزرعة أمريكية نموذجية» لتعليم اليهود كيفية زراعة الأناناس والموز والليمون. قريبًا منهم كان ولتر ديكسون من مدينة جروتون بماساتشوستس قد أسس مستعمرة أخرى لليهود. كان ديكسون قد عين الأخوين جروسشتاينبيك اللذان كانا قد تزوجا ابنتيه ألميرا وماري. وبسبب تكرار مطاردة البدو لهم سعت البعثة الأمريكية الزراعية — كما كان ديكسون يطلق على مشروعه — إلى طلب المساعدة من البحرية الأمريكية، التي استجابت بإمداده ببعض الأسلحة والذخائر. وبذلك تم إبعاد هؤلاء المتطفلين مؤقتًا، وتمكنت المستعمرة من البقاء والاستمرار.[١٩]

على مدى أربعين عاما، بدءًا بليفي بارسونز وبليني فيسك في عام ١٨١٩، استمر الأمريكيون في بذل مجهوداتهم لبث دعائم إيمانهم وقناعاتهم الدينية والدنيوية في الشرق الأوسط، في بعض المناطق البعيدة منها وفي قلب فلسطين أيضا. ولكنهم لم يكونوا الوحيدين في هذا المجال، فالمبشرون من فرنسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا كانوا قد اقتحموا المنطقة أيضًا، مؤسسين مدارس ومستشفيات ومستعمرات. وقد اشتكى البروتستانتي ويليام إيدي William Eddy من لبنان من أن «أوروبا تسعى للتفوق على أمريكا في التعليم والوعظ في هذا البلد». ولكن لم تستطع أي دولة أن تنافس التوسع الجغرافي والنطاق الحرفي الواسع واستثمار الموارد البشرية والمالية للبعثات الأمريكية إلى الشرق الأوسط.

ظل ولاء المبشرين يمثل انعكاسًا للأدوار التي وهب أمريكيو القرن التاسع عشر أنفسهم لها باعتبارهم منفذي المصير الحتمي، وأيضًا باعتبارهم حملة ثمار عصر النهضة الصناعية وثورتها، وحاملي لواء الديمقراطية في العالم. وكان الحماس التبشيري دالًّا أيضًا على الحاجة الأمريكية المستمرة لحدود جديدة، وتجارب طازجة، وإلى التحرك قدمًا. ومن خلال ملاحظته لتلك الاحتياجات، علق المفكر السياسي الفرنسي أليكسيس دي توكفيل على «الحماس الصاخب» للأمريكيين، قائلًا: «يبدو وكأن قوة خارقة موجودة بوفرة لديهم تدفعهم. وهو عدم استقرار غريب، حتى في وسط تلك الوفرة».[٢٠] ولكن عدم الاستقرار هذا لم يكن مقصورًا على البروتستانت، فقد غامر عدد كبير من الأمريكيين — من ربات المنازل والمهنيين والفنانين ورجال الأعمال، وحتى العبيد — إلى الشرق الأوسط في فترة ما قبل الحرب الأهلية، منجذبين إلى المنطقة، تدفعهم قناعاتهم الدينية، والأكثر من ذلك، أحلامهم الواسعة.